

الفكر السياسي الأوربي فى العصور الوسطى

د/ رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبدہ غريب



الكتاب: الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى

المؤلف: د/ رافت عبد الحميد

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٧٨٧٧

التقييم الدولي: ISBN

977 - 303 - 398-8

تاريخ النشر: ٢٠٠٢

الناشر: دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الإدارة

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

٦٣٧٤٠٣٨ / فاكس - ٦٣٦٢٥٦٢

المكتبة:

١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

١٢٢ (الفجالة) / ٥٩١٧٥٣٢

المطابع:

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www.alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

حرص الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد، طيب الله ثراه، في السنوات الأخيرة من عمره على تجميع أعماله التاريخية المتناثرة Opera Minora ونشرها في مجموعات تاريخية بأسلوب لغوى رصين وحس أدبي رقيق يدفع القارئ إلى الاستزادة منها بنهم شديد. ومنذ عام تقريباً كنا نتحدث عن ضرورة أن يجمع سيادته كل ما كتبه عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ويضمه في مجلد واحد ليفيد منه القراء والباحثون على حد سواء؟ وأجابني مبتسماً ابتسامته المعهودة لرفاقه وأصدقائه، قائلاً أنا في ذهني هذا المشروع وسأبدأ فيه إن شاء الله، وسيكون عنوانه "الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى".

ومضت الأيام كما أراد لها القدر، ورحل العالم رأفت عبد الحميد عن دنيانا في الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠١، وكاد يرحل معه هذا المشروع التاريخي المهم؛ إلى أن زرت أسرته بعد فترة الحداد !! هناك في منزله المتواضع وقع بصري على مكتبه لأجده يئن من عبء ما يحمله من كتب ومراجع تشير معظم عناوينها إلى مشروعه البحثي المرتقب. ونظرت إلى صورة سيادته، لأجد نفسى أقود قارب الذكريات وأمخر عباب سنوات عشر، قضيتها تلميذاً في محرابه؛ وترتد ابتسامته إليّ وهو يذكرني بالمسئولية! لقد كان يذكرني دائماً بأبنى سأحمل العبء عنه، وسأكمل ما بدأه من أساس لمدرسة متميزة في تاريخ العصور الوسطى؛ ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أحدث السيدة الفاضلة حرمه عن مشروع أستاذي، وأستأذنها في لم شتات هذا المشروع وإخراجه إلى النور !! وأجابتي بالدعاء. وها هي بعض أفكار أ. د. رأفت عبد الحميد عن مرحلة مهمة من مراحل تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، حاولت قدر جهدي، وبحكم معرفتي بمنهج أستاذي، أن أقدمها للقارئ والباحث في صورة أقرب ما تكون لتلك التي كان سيقدّمها هو بنفسه لقراءه الأعزاء.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن يحاول فيه المؤلف أن يؤكد على أن البابوية كانت المحرك الرئيسي لدفة الحكام والملوك في أوروبا في العصور الوسطى؛ فقد طرقت أبواب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، تارة برفق، وتارة أخرى بقبضة من حديد؛ والأخيرة كانت سمة البابوية في العصور الوسطى! ولم لا! فالسلطة الروحية التي منحها بطرس الرسول للبابا جعلت منه لا كبيراً للكهنة فحسب، بل سيداً للعالم؛ فما كان يحله بطرس في السماء كان يحله البابا على الأرض؛ وما يربطه في السماء كان يربطه البابا على الأرض. وقد ترجم هذا المفهوم البابوي إلى واقع عملي، عندما كان يشهر سلاح الحرمان في وجه هذا الإمبراطور أو ذاك.

وإذا كانت العلاقات بين البابا والفرنجة من المير وفنجين أو من الكارولنجيين قد بلغت ذروتها الطيبة بحادثة التتويج الشهيرة لشارلمان على أيدي البابا، فإنها على العكس سارت مع أباطرة ألمانيا معظم العصور الوسطى.

ففي الأيام الفاصلة بين عامي ٧٩٩ و ٨٠٠، وبالتحديد يوم الخامس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٩، قام البابا، ليو III كنوع من العرفان بالجميل، بتتويج شارلمان، خالفاً عليه لقب إمبراطور الرومان، وهو اللقب الذي كان يحمله الإمبراطور البيزنطي، القائم في القسطنطينية، وريثة روما القديمة. في هذا العام بالذات يمكن القول أن ناقوس الخطر بدأ يدق في سماء أوروبا، لينذر الإمبراطورية البيزنطية، التي رفضت الإعراف بشارلمان إمبراطوراً رومانياً، بخطورة ما أقدم عليه البابا، الذي كان يعمد إلى سحب البساط من تحت قدمي الإمبراطور البيزنطي، حامل اللقب وصاحب الحق التاريخي فيه.

وعلى الرغم من اعتراف الإمبراطور البيزنطي نقفور الأول ٨٠٢ - ٨١١م بعد ذلك بلقب شارلمان، إلا أن اعترافه لم يكن ليغير الكثير من فكر وعزم البابوية، التي أوحى للعالم الأوروبي أنها غدت الوصية على هذا اللقب، لتمنحه لم تشاء وتحجبه عن تشاء أيضاً.

ويبدو أن فاه البابوية أفتت عن ابتسامه عريضة، تكشف عن زهوها لهذا النصر، الذي شقيت به أيضاً. فما هي تحاول ترويض ملوك ألمانيا الفتيان، وتبسط

سيادتها الروحية عليهم، لتجعل منهم ظهيراً عسكرياً يقضى لها مآذباها؛ ولهذا لم يتردد البابا في منح الإمبراطور الألمان في لقب "إمبراطور الرومان" Rex Romanorum في عام ٩٦٢م، الذي أفاد منه ملوك ألمانيا أيما إفادة فاقت كل تقديرات البابوية، ليتعكر الصفو بين الأخيرة والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ويتحول الود بينهما إلى عدااء سافر عرفه التاريخ باسم "الصراع بين البابوية والإمبراطورية". وقد استعرت نار العدااء بين ألمانيا والبابوية عندما أدرك الأباطرة الألمان أن أمن ألمانيا وصولجانها يقبع في إيطاليا، ومن ثم خرجت الجيوش الألمانية مراراً إلى هناك لتبسط السيادة الألمانية عليه، الأمر الذي أصاب البابوية بخيبة أمل، لم تعرف لها مثيلاً، في علاقتها مع ألمانيا؛ فبدأت البابوية في استخدام الأسلحة الروحية لصد هذه الجحافل، فكان قرار الحرمان الكنسي خير وسيلة لحماية البابوية من بطش الألمان القادمين صوب الجنوب الإيطالي عازمين على البقاء والاستقرار. وهكذا يأتي الفصل الثالث من الكتاب ليؤكد على الدور السياسي للبابوية في أوروبا العصور الوسطى.

أما الفصل الثاني من الكتاب فيتعرض المؤلف فيه إلى قضية مهمة للغاية، وهي الدور الذي لعبته البابوية في قيام الحركة الصليبية؛ والذي يأتي استكمالاً للفكرة التي يطرحها المؤلف في الفصل الأول عن السمو البابوي في أوروبا آنذاك.

يكشف المؤلف في هذا الفصل الممتع النقاب عن وجه جديد من أوجه الدور السياسي للبابوية، وكيف كانت تتلاعب بالملوك والأمراء في سبيل إتمام أهدافها التي كانت ترمى إلى السيطرة والسيادة، بل وتوكيد سمو سلطانها على كل سلطان.

ويأتي الفصل الرابع في هذا الكتاب ليكشف النقاب عن نموذج من نماذج الحكم في أوروبا في العصور الوسطى، أعنى الأنموذج الألماني، الذي كان يتأرجح بين الانتخاب والوراثة؛ والذي لم يكن بمنأى عن أيدي البابوية أيضاً.

على هذا النحو مضى مؤلف الكتاب في رحلة تزيد على ثلاثة قرون من عمر الزمان، محاولاً أن يكشف الحقيقة بجلوها ومرهاً، وأن يثبت من خلال هذا

السفر الجليل أن البابوية، بوجهها المليح أو القبيح، قد ساهمت إلى حد كبير في تشكيل الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى.

وقى الخاتمة لا يسعنى إلا أن أذكر حديث رسول الله (ﷺ) القائل فيه "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". ونأمل من الله تعالى أن يصبح هذا السفر الجليل علم تنتفع به الأمة العربية.

وعلى الله قصد السبيل

د. طارق منصور

م. نصر - القاهرة

٢٠٠١/١/٢

الفصل الأول

السمو البابوي بين النظرية والتطبيق

ذات يوم .. رسم بعض زعماء يهود على وجوههم ابتساماً، ظاهرها فيه المودة وباطنها من قبلها الغيظ، وقدموا على المسيح يحملون بين أيديهم تحية، وقلوبهم بخبث الأفاعي ملآنة، وسألوه: "يا معلم .. نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق، ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن نعطي الجزية لقيصر أم لا؟ لعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربونني يا مراعون^(١)!"

فقد أدرك المسيح يقينا أن الإجابة بإحدى الكلمتين .. نعم .. أو .. لا، تحقق مآربى اليهود، فإن كانت الأولى، ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بالادعاء، وصاحوا في وجهه، كيف تكون ملكنا وتأمرونا بالمذلة لغيرنا؟ فاليهود كانوا يريدون مسيحا دنيويا، يعيد إليهم مملكة داود وسليمان، أو مسيحا ملكا .. لما جاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم بالآخرة وعدا حسنا، آذوه وناسه، ونالوا منه ومن دعوته. وإن كانت الثانية، أعنى الإجابة بلا أسلموه بها للرومان، الذين سوف يعدونه محرضا لبني قومه على عدم دفع الجزية، وتحدى سلطان الحكومة الرومانية.

لذا راح المسيح يتفحص وجوه الحيات وأولاد الأفاعي - كما كان يدعوهم - وقال: "أروني معاملة الجزية .. فقدموا له ديناراً. فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. قال: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!"^(٢).

(١) متى ٢٢/١٥-٢١

(٢) نفس المصدر والصفحة.

ومر على هذا القول ثلاثمائة سنين وبنيف، وإذا بالأسقف القرطبي العجوز هوسوس Hosios يكتب إلى الإمبراطور الروماني قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) قائلاً: "الله وضع في يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة. مكتوب: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. إذن .. ليس من حقنا أن نمارس أمور الدنيا .. وليس من حقه أيها الأمير أن تحرق البخور!!"^(٣).

ولما آذنت شمس القرن الرابع بالمغيب، تضمنت رسائل وعظات أمبروز Ambrosius أسقف ميلانو، عن علاقته بالإمبراطور فالنتينيان Valentinianus نفس العبارات، وأضاف: "الجزية لقيصر .. ذلك شيء لا ننكره، والكنيسة لله .. ومن ثم فلا تخضع لقيصر .. الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"^(٤).

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

ويشد الأسقف الميلاني أوتار دعواه، فتعلو نغمة الخطاب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius (٣٧٩-٣٩٥) صاحب الفضل الأول في جعل المسيحية، العقيدة الرسمية للإمبراطورية الرومانية؛ "أيها الإمبراطور .. عليك أن تصغي إلى في قصرك طائعا، حتى لا تصغي إلى في الكنيسة كارها .. لست إلا بشرا استولت عليك الضلالة، فامحها .. فالخطيئة لا يحوها إلا الدموع والتوبة"^(٥).

فندع ذلك الآن .. ولنعد أراجنا ثانية إلى المسيح ...

لقد سأل يوما حواربييه .. تروا من أكون أنا عند الناس؟ فأجابوه يقولون: يوحنا المعمدان، وإيليا، وإرميا .. أو واحد من الأنبياء. فسألهم المسيح "وأنتم؟ فأجاب سمعان .. أنت هو المسيح ابن الله الحي! فرد عليه .. طوبى لك يا سمعان بن يونا .. أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى

(3) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian 44).

(4) AMB. Ep. Ad Theodosium. 33.

(5) AMB. Sermo contra Auxentium, 36.

عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات"^(٧).

وتمضى القرون على أثر القرون، وبيئ عام ١٠٧٦، فإذا بالبابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) يصدر ضد الملك الألمانى هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦) قرار الحرمان الكنسى، فى رسالة أشاح فيها بوجهه عن الملك المحروم، ورفعها مباشرة إلى بطرس أمير الرسل، وقال بالحرف الواحد: "بمقتضى السلطة المخولة لك من الله، بحق الربط والحل فى السماء وعلى الأرض، وباعتبارى ممثلاً لك .. أجرد هنرى الملك بن هنرى الإمبراطور، من سيادته على مملكة الألمان، والأراضى الإيطالية، وأحل رعيته المسيحية من كل إيمان اللولاء التى قدموها، أو سوف يقدمونها له، وأحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك، وبسلطانك أوتقه بوثاق اللعنة، وما ذلك إلا ليعلم الجميع ويوقنوا، أنك بطرس، وعلى صخرتك بنى ابن الله الحى كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"^(٧).

وفى عام ١٢٣٩، استخدم البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) نفس العبارات، بل إن شئنا الدقة نفس السلطة، وهو يحرم الإمبراطور فردريك الثانى Frederick II (١٢١٢-١٢٥٠) ولكنه أضاف قوله: "وبمقتضى سلطانى"^(٨)، مما زاد القضية بعداً جديداً، سوف نعود إليه فى حينه.

تلك رحلة فى الزمان .. طويلة طويلة .. قطعها للبابوية عبر تسعة قرون، واصططرت فيها على السلطة الزمنية، وتداولت وإياها جولات من النصر، ومن الهزيمة جولات، وراحت تستيق والإمبراطورية، تاركة وراءها مهمتها الأساسية، ورسالتها الروحية، حتى أضحت فى القرن الثالث عشر تمثل البعد البورى فى

(٦) متى ١٣/١٦-٢٠

(7) GREG. VII First dep. and ban. Of Henry IV, Feb.22, 1076

(8) GREG. IX, excommunication of Frederick II, 1239.

السياسة الأوروبية^(٩)، متناسية تماما أن المسيح لم يأت ملكا، ولم يكن صاحب نظرية سياسية، وأن ما ورد على لسانه عن حق لله، وحق لقيصر، لا يعدو الموقف فقط الذى قيل فيه، والفريسيون يحاورونه حول الجزية، أو ضريبة الرأس، التى كانت تحمل فى جوهرها المذلة لليهود فى الإمبراطورية الرومانية. وأن ما قاله لبطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس .. فإذا أضفنا إلى ذلك، أن الجزء الأخير من الحوار، أعنى السلطة المخولة لبطرس من المسيح، بمقتضى إعطائه مفاتيح ملكوت السماوات، لم تزد إلا فى إنجيل متى فقط، دون بقية الأناجيل^(١٠) وأن يوحنا لم يضمن إنجيله الرواية بالمرّة .. أضاف هذا إلى قضية السمو البابوى علامات استفهام لها دلالاتها الكثيرة!!

والآن .. فلنرتد على آثار البابوية والإمبراطورية قصصا، لنعلم أى الحزبين كان أوسع خطوا، وأوفر على طريق السيادة والسمو قدرا.

فالفكر السياسى الرومانى لم يكن يقبل مطلقا بوجود كيان مستقل عن سلطة الإمبراطور، أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة، فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم Pontifex Maximus وهو صاحب السلطة المطلقة فى دولته^(١١)، والكنيسة تنأى بنفسها عن هذا السلطان، وشعب الكنيسة يجلب أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم، ويزدرى عبادة الإمبراطور المؤله والربة روما، ويستبدلها بالمسيح والعذراء، ولما كانت العبادة الإمبراطورية تمثل رمز الولاء للدولة والحاكم، كان اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحيين، اضطهادا سياسيا فى جوهره، سواء عندما كان اضطهادا

(9) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 208

(١٠) متى ١٣/١٦-٢٠ وقارن مرقس ٢٧/٨-٣٠ ولوقا ٩/١٨-٢٢

(١١) سباين، تطور الفكر السياسى، الجزء الثانى، ص ٢٤٠-٢٥٣ وأيضا، تشارلز وورث، الإمبراطورية الرومانية، ص ١٨-٢٦ وكذلك، محمد معروف الدواليبى: الوجيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها الجزء الأول، ص ٢٧١-٢٧٥

محليا، حتى منتصف القرن الثالث، أو بعدما أصبح عاما بمقتضى أول مرسوم إمبراطورى، زمن الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) ومن أتوا بعده^(١٢).

حتى إذا جاء قسطنطين Costantinus (٣٠٦-٣٣٧) وأعلن عن سياسته التسامحية مع المسيحية، وبسط للكنيسة راحتيه لتعلو بهما لا عليهما، رفعته هذه مكانا عليا، وجعلته الحواري الثالث عشر للمسيح^(١٣) ولم يكن قسطنطين فى سياسته هذه إلا مطبقا للفكر السياسى الرومانى، فيما يتعلق بسلطة الإمبراطور، وإن كان بأسلوب يختلف عما أنتهجه أسلافه، تشهد بذلك رسالته إلى إسكندر أسقف الإسكندرية وآريوس قسيسها، فى أولى مراحل النزاع العقيدى بين الرجلين حول المسيح^(١٤)، وإلى شعب أنطاكية عقب عزل أسقفها يوستاثيوس Eustathius النيقى المتحمس، وإلى أساقفة مجمع صور عام ٣٣٥ بعد تلكؤ أثناسيوس Athanasius الأسقف السكندرى فى الحضور^(١٥). ووجد فى النظرية التى حاك خيوطها مؤرخه ومداحه، يوسابيوس Eusebius أسقف قيسارية فلسطين، وشيخ مؤرخى الكنيسة، ما يتفق وسيادته؛ إذ أعلن الأسقف القيسارى ابتهاجه بهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة، وراح يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان، على غرار الهالة التى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة فى الشرق. ويخاطبه على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر. وإذا كان من الصعب أن يظل الإمبراطور حتى الآن .. "الكاهن الأعظم"^(١٦)، وأن يبيت مؤلها، فلا ضير أن يصبح "الأسقف الأعلى"، وأن يغدو إنسانا مقدسا، اختير من الله، ليكون ممثلا له على الأرض.

(١٢) رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص ٣٨-٥٣.

(١٣) وضع شيخ مؤرخى الكنيسة يوسابيوس القيسارى كتابا أسماه "حياة قسطنطين" Vita Constantini بعد قصيدة مدح نظمها فى فضائل قسطنطين على الكنيسة بالإضافة إلى الكتاب العاشر من مؤلفه تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica والتى بسط فيها نظرية التزاوج بين الدولة والكنيسة.

(14) EVSEB., Vita Const., II, 65-72

(15) Ibid, III, 60; IV 42,

(١٦) ظل قسطنطين وخلفاؤه يحملون اللقب الوثقى الكاهن الأعظم حتى إلغاء الإمبراطور جراتيان.

وكما أن الإله واحد، فلا بد أن يكون هناك إمبراطور واحد، يصبح له بمرور الزمن السيادة على العالم، وحكما عالميا^(١٧).

وهكذا وضع قسطنطين لخلفائه، سنة "القيصرية البابوية" Caesaropapism، وجرى بها لسان ابنه قسطنطيوس في مواجهة أساقفة مجمع ميلانو عام ٣٥٥، عندما راح النيقيون يحاجون بأنه ليس من حق الإمبراطور أن يتهم أحدا في غيبته، يعنون بذلك أثناسيوس السكندري، فقطع قسطنطيوس كل حديث ليعلن في صراحة: "إرادتي هي القانون"^(١٨)، oper ego boulomai outo kanon وثبت دعائمها في القرن السادس الإمبراطور جوستيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) في تشريعاته، حيث كانت حكومته تمثل النموذج الكلاسيكي للحاكم المسيحي في مجتمع مسيحي، والذي يرى من واجبه ليس فقط إقرار الإيمان الحق لرعاياه، بل أيضا التشريع والتنظيم الأساسى للكنيسة، وعبر عن ذلك في إحدى تشريعاته بقوله: "حيث أن الإمبراطورية Imperium والكهانة Sacerdotium تتبعان من مصدر واحد، فليس هناك ما يهيم الإمبراطور في المقام الأول، إلا خيرية الكنيسة وسمعتها"^(١٩).

وفي القرن الثامن الميلادي، بلغت "القيصرية البابوية" مداها على يد أباطرة الأسرة الأيزورية؛ فقد جاء في ديباجة الأكلوجا Ecloga (المختارات) التي صدرت باسم الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) تشبيه المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التي تتعلق بالقدّيس بطرس؛ تشبيه

(١٧) هسى : للعالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص ٢٣٠

(18) ATHANAS Hist, Arian 33.

(١٩) Novella VI prae. وقد تمثلت هذه الناحية في سياسة جوستيان العقيدية، التي كانت تسير في ركاب العلم، أعنى الجيش، أى محاولة إظهار نفسه مواليا للمنافزة عند محاربهته للفرس فى الشرق، ومناصرة لأصحاب الطبيعتين عند حربه مع الجرمان فى الغرب. ولعل موقفه من البابا فيجيليوس Vigilius (٥٣٨-٥٥٥) يتفق والقيصرية البابوية تماما، إذ قبض سنين، ليقر ما أرتأه جوستيان. راجع :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298

Holmes, The Age of Justinian and Theodora, II, pp. 681-686, 702

المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التي تتعلق بالقدّيس بطرس؛ "حيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية، كما قضت بذلك مشيئته، فقد أمرنا أيضا - كما أمر بطرس - أن نطعم شعبه المؤمن" ثم أفصحت عنها دون مواربة، تلك الرسالة التي بعث بها ليو الثالث هذا إلى البابا جريجورى الثانى، أثناء العداء السافر بينهما بسبب إعلان أباطرة القسطنطينية للحرب ضد الإيقونات، ووصف فيها ليو نفسه بأنه "إمبراطور وقس"^(٢٠). على هذا النحو أمست الكنيسة فى الإمبراطورية، دائرة من دوائرها الحكومية، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، الذى يعين الأساقفة ويعزلهم، ويدعو إلى عقد المجمع الدينية، وهو وحده المسئول عن الدعوة لعقد المجمع المسكونية، بل رفضها^(٢١). وهو الذى يترأس جلسات هذه المجمع المسكونية، حتى وإن لم يكن قد تلقى المعمودية، شأن قسطنطين فى مجمع نيقية عام ٣٢٥، ويدير دفة مناقشاتها، ويصدق على قراراتها، ويتدخل فى أمر العقيدة، ويضيف إلى قوانين الإيمان فيها، بوازع من نفسه، أو بوحى من غيره، علم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم، ومعظمهم لم يكن يعلم!.

وطوال ألف ومائة من السنين، عمر الإمبراطورية الرومانية فى ثيابها البيزنطية، لم ترفع الكنيسة رأسها معارضة الإمبراطور وإذا كانت قد آنست من نفسها قوة، حيناً أو بعض حين، فقد كان لها الإمبراطور بالمرصاد؛ ذلك أن أباطرة

(٢٠) هذا اللقب نفسه كان التحية التى يقابل بها الإمبراطور فى المجمع الكنسية، وثبتت مضبوطة جلسات مجمع خلقيدونية، المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ ذلك، بكلمة Pontifex أو Sacerdos وقد استخدم ليو الثالث هذا اللقب فى رسالته، لكن البابوية رفضت أن تخلعه عليه لحربه ضد الأيقونات.

(٢١) تدلنا الرسالة التى بعث بها أساقفة مجمع ريميني Ariminum المنعقد سنة ٣٥٩، إلى الإمبراطور قسطنطوس، وهم أساقفة النيقية، على أن الإمبراطور لم يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم رغم انتهاء أعمال المجمع، وذلك ليطوعهم لإرادته وعقيدته الأريوسية. راجع :

ATHANAS., De Syn., 55.

القسطنطينية لم يفرقوا مطلقا بين ما هو الله وما هو لقيصر، فالإمبراطور كان يعتبر نائب المسيح على الأرض^(٢٢).

غير أن هذا لم يكن حال الكنيسة في النصف الغربي من الإمبراطورية، أوبتعبير أدق، ما غدا أوروبا العصور الوسطى، وذلك بعد أن ولاه الأباطرة دبرهم منحرفين إلى الشرق، وهجروا روما القديمة على ضفاف التيبر، ليقيموا في روماهم الجديدة على شطآن البسفور، منذ أسس قسطنطين مدينته، التي حملت اسمه، على أطلال المدينة الإغريقية القديمة .. بيزنطة.

وكانت هذه الخطوة ذات أثر بعيد في قيام عالمين متباعدين تماما، فقد أضحت القسطنطينية البوتقة التي انصهرت فيها عوامل عدة، في مقدمتها التراث اليوناني للروماني وتراث حضارات الشرق القديم، والمسيحية، لتخلق عالما جديدا عرف بالعالم البيزنطي^(٢٣)، بينما اختلط الغرب الإمبراطوري بتراته اللاتيني، وبالغزوات الجرمانية ثم غزوات الشماليين من بعد، طريقا آخر متباعدا به في فكره وثقافته وحضارته واتجاهه العقيدى، عن العالم البيزنطي.

فبانتهال العاصمة الإمبراطورية والأباطرة إلى النصف الشرقى، نيقوميديا Nicomedia أولا على عهد نقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) ثم روما الجديدة أو القسطنطينية، ابتداء بمؤسسها قسطنطين في عام ٣٣٠، بهذا الانتقال احتل الغرب الروماني، المرتبة الثانية من اهتمام الأباطرة، بينما حظى الشرق

(٢٢) من أهم الأدلة على ذلك الفسيفساء الموجودة من القرن السادس في كنيسة سان فيتالي في رافنا Ravenna وهي تمثل جوستينيان في صورة نائب المسيح، الأوتوقراطور، امتدادا لشخصية ملكي صادق، ملك أورشليم، الملك الكاهن. راجع: أرنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، الجزء الأول. ص ١٥٥ ونضيف إلى ذلك أن قاعة العرش الإمبراطوري، كان يقوم إلى جوار كرسي العرش عن يسار، كرسي يظل شاغرا باعتباره خاصا بالمسيح، ويحتل الإمبراطور الكرسي الأيمن باعتباره نائبا عن المسيح.

(٢٣) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع - راجع : التقديم الذي كتبه المؤلف في ترجمته لكتاب العالم البيزنطي، تأليف ج.م. هسي، ص ٢٧-٤٤

بالمكانة الأولى لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية وبشرية^(٢٤). نتيجة لذلك، خلعت الساحة في الغرب من شخصية سياسية قوية قادرة على ضبط الأمور هناك، خاصة إبان الفوضى التي منيت بها الإمبراطورية عند أدريانوبل Adrianople عام ٣٧٨ على يد قبيلة القوط الغربيين الجرمان. وخلال ثلاثة وعشرين عاما بعد وفاة الإمبراطور فالنتينيان الأول (٣٧٥)، لم يعرف النصف الغربي الخضوع لحاكم واحد إلا خلال تسعة شهور فقط، وعلى فترتين، ما بين ٩ أغسطس ٣٧٨ و ١٩ يناير ٣٧٩ تحت سيادة جراتيان و ٦ سبتمبر ٣٩٤ حتى ٧ يناير ٣٩٥ تحت زعامة ثيودوسيوس Theodosius.

بل حتى في ثلاثينيات القرن الرابع نفسه، عندما أقدم قسطنطين قبيل وفاته على تقسيم إدارة الحكم في الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، مما أعطى الفرصة للكنيسة، كى تستأثر بهذا الإمبراطور أو ذاك، إلى الحد الذى دفع قسطنطاز Constane عاهل الغرب (٣٣٧-٣٥٠) إلى أن يهدده أخاه قسطنطيوس، حاكم الشرق، من أجل الأسقف السكندرى أناسيوس^(٢٥).

وفى عام ٣٩٥ تكرر نفس التقسيم لإدارة الحكم في الإمبراطورية بين ولدى ثيودوسيوس أركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius . ولا شك أن وجود عاهلين أو ثلاثة عواهل على عرش الإمبراطورية، يختلف كثيرا عن وجود شخصية واحدة مقتردة على العرش.

(٢٤) فى الحكومة الرباعية Tetrachia التى أقامها دقلديانوس، ليتغلب بها على أزمة القرن الثالث الميلادى، والفوضى السياسية فى الإمبراطورية، احتل هو مكانة السيد الأول فى النصف الشرقى، يليه ماكسيميانوس Maximianus أوغسطس الغرب، ثم جاليريوس Galerius قيصر الشرق فى المرتبة الثالثة، وقسطنطيوس قيصر الغرب فى المرتبة الرابعة. وكان مجئ الشرق فى المرتبة الأولى واضحا لأعين المعاصرين، حتى أن لكتانتىوس، البلاغى الأفريقى الشهير آنذاك، كتب يقول بعد أن قبل قسطنطين ابن قسطنطيوس، نصيحة جاليريوس بالتخلى عن لقب الأوغسطس وقبول لقب القيصر، أنه هبط من الدرجة الثانية إلى الرابعة. انظر : LACT., De mort pers., 25 كما أن الإمبراطور زينون Zeno أهدى روما وإيطاليا إلى ثيوديريوس ملك القوط الشرقيين، ليعيد أذاه عن القسطنطينية.

(25) SOCRAT, Hist. EccI., II, 22

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد ابتلى الغرب خلال ثمانين عاما (٣٩٥-٤٧٦) بأباطرة على قدر كبير من ضعف الشخصية، التقوا جميعا على شئ واحد، هو أنهم خلفوا فقط للتاريخ أسماءهم، وارتبطت في صفحاته ذكراهم بأنهم كانوا ألعوبة في أيدي قادة الجرمان حتى أن ريكيمار Ricimer الجرمانى راح يعين خلال ستة عشر عاما (٤٥٦-٤٧٢) أربعة أباطرة، ويقوم على شئ أحدهم! بل كانت هناك سنوات بعينها قبل عام ٤٧٦، حين سقطت روما في يد أدواكر Odovacar، خلا فيها عرش الغرب من وجود امبراطور^(٣٦).

وقد أدرك أباطرة النصف الغربى أنفسهم، أن روما لم تعد العاصمة الساحرة القديمة، مدينة الخلود، ومن ثم انصرفوا عنها إلى ميلانو أو رافنا المدينة المحصنة فى الشمال الإيطالى. وأصبحت الأخيرة بالذات مستقرا لهم ومقاما، بينما أمست روما عندهم مدينة من الدرجة الثانية، استباحها القوط الغربيون عام ٤١٠، والوندال سنة ٤٥٥، والإمبراطور قابع فى قصره فى رافنا، وكان الأمر لا يعنيه فى شئ، مما أتاح الفرصة للبابوية فى روما، أن تساهم بنصيب ما فى التفاوض مع زعماء هذه القبائل الجرمانية للجلاء عن روما، وإن كانت الروايات الأسطورية قد أضفت على هذا الدور الشئ الكثير.

لكن الشئ الذى لا يمكن انكاره، أن الزخوف الجرمانية التى هطلت على الإمبراطورية عقب أدريانو، وراحت الولايات الغربية تساقط فى أيديها، تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف، كانت قد تحولت إلى المسيحية، لكنها المسيحية الأريوسية، للقاتلة بخلق المسيح، عدا للفرنجة الذين اعتنقوا الكاثوليكية، والانجلوسكسون الذين ظلوا على وثنتيتهم. هؤلاء الجرمان كانوا يحملون قدرا معينا من الاحترام لرجال الدين، حتى أن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين وملكهم فى إيطاليا، أرسل وفدا إلى الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية، جوستين Justinus (٥١٨-٥٢٧) يطلب إليه أن يرفع يد الاضطهاد عن الأريوسيين فى بلاده، حتى لا يضطر إلى

(36) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395-1500, pp. 39-40

معاملة الكاثوليك في إيطاليا بالأسلوب نفسه، وكان على رأس هذا الوفد، البابا، زعيم الكنيسة الكاثوليكية في الغرب، بل أن ثيودوريك رفض أكثر من مرة التدخل في الخلافات الحادثة بين المتنازعين على العرش البطرسي في روما.

هنا .. لا بد لنا من وقفة قصيرة، نتابع بعدها المسير ..

فرغم كل هذه الظروف، إلا أن التحدى الكنسى في الغرب لسultan الأباطرة، لم يأت من أساقفة روما، بل من كنائس أخرى، وعلى وجه التحديد قرطبة وميلانو وبواتيه زمن أساقفتها .. هوسوس وأمبروز وهيلارى على التوالي؛ ذلك أن الصراع طالما فى هذه الفترة من حول كرسى القديس بطرس بين المتنافسين، بهدف الحصول على لقب خليفة أمير الرسل. على أن السبب الجوهرى يتمثل فى أن كنيسة روما كانت مشغولة تماما قرابة قرن ونصف من الزمان، بقضية خطيرة هى إثبات علو كعبها على بقية الأسقفيات الأخرى، فى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم .. والقسطنطينية.

وتشهد بذلك قوانين المجامع المسكونية الثلاثة فى نيقة ٣٢٥، والقسطنطينية ٣٨١ وخلقيدونية ٤٥١. وتلك كانت الخطوة الأولى فى سبيل الزعامة^(٢٧).

هذا إلى أن إيطاليا حظيت فى أخريات القرن الخامس وأوائل السادس (٤٩٣-٥٢٦) بحكومة مركزية قوية، متمثلة فى مملكة القوط الشرقيين، فلما قضت عليها جيوش جوستينيان بعد حرب دامت ثلاثة وعشرين عاما (٥٣٣-٥٥٥) ولم يعد يمثل السلطة الإمبراطورية فى الغرب إلا النائب الإمبراطورى فى رافنا؛ راحت البابوية ترقى درج السمو غير هيابة، يساعدها على ذلك عوامل عدة.

فالصراع بين روما والقسطنطينية من أجل زعامة الكنيسة، أكسب البابوية عطف الحزب الرومانى فى العاصمة القديمة بصفة خاصة، والغرب بشكل عام؛

(٢٧) للوقوف على تفاصيل هذا الصراع حول لزعامة للكنيسة، راجع للمؤلف، للدولة والكنيسة، الجزء الخامس (تحت الطبع).

فقد وجدت إيطاليا نفسها تهبط إلى المرتبة الثانية، وروما فقدت مكانتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية، وأمست مجرد عاصمة ولاية رومانية، بل حتى هذه تخلت عنها كارهة لرافنا. ومن ثم راحت تعوض في الزعامة الكنسية وتحدى سلطان الأباطرة من بعد - خسارتها السياسية.

ووسط الخراب الاقتصادي والتفسخ السياسى، الذى أمسى عليه الغرب الإمبراطورى، بعد سقوطه فى يد الجرمان، لم يجد الناس بين هذا الحطام ملاذا يلتفتون حوله إلا الكنيسة، فهى الشئ الوحيد الذى بقى له نظامه فى هذه الفوضى. بل لقد تولت فى كثير من الأحيان، عن الدولة عبء إقامة العديد من المشروعات الزراعية، لما توفر لها من الثروة الطائلة التى أعدت عليها من جانب الأباطرة من قبل.

وبينما كانت روما فى القرن الخامس تمثل جزيرة الكاثوليكية وسط محيط الأريوسية فى الغرب، وقد دان بها القوط الشرقيون فى إيطاليا، والقوط الغربيون فى أسبانيا، والوندال فى أفريقيا، شهد القرن السادس انحسارا لهذا المد وعلو شأن لروما، عندما تهاوت معاقل الأريوسية هذه، بتحول الفرنجة فى غالة إلى الكاثوليكية مباشرة، وتحول القوط الغربيين لها فى عام ٥٨٩، وسقوط كل من مملكتى الوندال والقوط الشرقيين على يد جوستيان.

وكان وجود عناصر آفارية وصقلبية وتركية فى البلقان، كلها على الوثنية، ميدانا فسيحا ألقت البابوية فيه بكل ثقلها، متحديا سلطان كنيسة القسطنطينية التى تعتبر هذه المنطقة امتيازاً خاصاً لها، باعتبارها جزءاً من ممتلكات الإمبراطورية وكان هذا يحمل فى طياته أيضاً تحدياً للسلطة الإمبراطورية فى القسطنطينية.

ونتيجة لإطراد للعداء بين البابوية والقسطنطينية، كنيسة وحكومة، ولمصالح دنيوية خاصة بالبابوية، متمثلة فى الخوف من الزحف اللومباردى للسائر قدما من شمال إيطاليا إلى وسطها، مهددا الممتلكات البابوية، وعداء نبلاء روما للبابا، ورغبة البابوية فى التخلص من السيادة القانونية لأباطرة القسطنطينية - باعتبار البابا مواطناً

رومانيا^(٢٨)، والكنيسة الرومانية باعتبارها واقعة ضمن مناطق سيادة الإمبراطور، نتيجة لهذا كله أقدم البابا ليو الثالث، في ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠، أعنى ٢٥ ديسمبر ٧٩٩، على تتويج ملك الفرنجة شارل العظيم .. إمبراطورا في الغرب!

وكانت الكنيسة آنذ، كما عبرت عن ذلك الوثائق الرسمية الموجودة بين أيدينا، والتي وضعها آباء الكنيسة في الغرب وزعمائها، لا تطلب من الإمبراطور أكثر من الوقوف عند سلطانه الدنيوي، دون التدخل في الشؤون الكنسية، حملت ذلك كتابات هوسيوس القرطبي، وأمبروز الميلاني - كما أشرنا من قبل - والقديس أوغسطين^(٢٩) والبابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ - ٤٦١)، وإن كان البابا جلازيوس Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦) يعد صاحب الفضل الأول، في وضع أسس نظرية السمو البابوي في مرحلتها الأولى، أي الفصل بين ما لقيصر وما لله؛ فقد كتب يقول: "ميز المسيح بمقدمه بين وظيفة كل من السلطتين، بطبيعة نشاط كل منهما، ومكانتيهما المتميزتين .. يعتمد الأباطرة المسيحيون على رجال الدين في خلاص أرواحهم، بينما يستخدم رجال الاكليروس، الامكانيات الإمبراطورية لممارسة أمورهم الزمنية .. من هنا يجب أن يظل العمل الروحي بعيدا عن الدنيوي، وأن يظل "رجال الله" بعيدين عن المسائل الدنيوية، وبالمقابل، فإن من ينخرط في سلك العمل الزماني، لا يحق له أن يمارس نشاطا روحيا"^(٣٠).

ويزيد جلازيوس المسألة وضوحا، وهو يخاطب الإمبراطور البيزنطي انسطاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١-٥١٨) بقوله: "أيها الإمبراطور المعظم- هناك حقيقتان هامتان يسير عالمنا هذا بمقتضاهما: السلطة المقدسة للاكليروس،

(٢٨) حتى القرن الثامن كان البابوات رعيا الإمبراطور في القسطنطينية. راجع :

Barry, The Papal Monarchy, P. 5

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن آراء القديس أوغسطين، راجع كتابه "مدينة الله" Civitas Dei وقد نقلها إلى الإنجليزية في جزئين Marcus Dods وراجع أيضا في ذلك:

The Political writings of St. Augustine, edited by, H. paolucci.

(٣٠) GELAS. Letter to Anastasius. وينكر جلازيوس أن الأباطرة حملوا لقب الكاهن الأعظم، ولكن

بمجيء المسيح لم يعد الإمبراطور يستخدم هذا اللقب وهذه مغالطة تاريخية راجع حاشية رقم ١٦، ٢٠.

والسلطة الملكية، أكثرهما عبئا وثقلا فى الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينونة، حتى عن الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينونة، حتى عن الملوك أنفسهم ولتعلم أيها الابن الرحيم .. أنك رغم علو سلطانك على الناس، فإنك يجب أن تخلى هامتك اجلالا لرجال الدين، وأن تتظر إليهم باعتبارهم وسيلة خلاصك. عندما تقدم على تناول الأسرار المقدسة، ليكن معلوما لديك، أن من واجبك الطاعة للقائمين بها، لا السيادة عليهم.. والرجوع إليهم، لا محاولة اخضاعهم لرغباتك".

ثم يعلنها صراحة بنيابة البابا عن بطرس أمير الرسل وسمو مكانته على الحاكم الزمنى، بقوله: "... ومع أن مكانتك مرموقة أيها الإمبراطور، فإن أحدا لا يمكن أن يعلو بنفسه، بأساليب بشرية، ليقارب تلك المكانة السامية لذلك الذى خاطبه صوت المسيح، وفضله على الآخرين، والكنيسة الموقرة باعتباره مؤسسها.

إن الأمور التى أقرتها الإدارة السماوية، لا يمكن أن تنتهك بعجرفة بنى البشر، ولا يمكن أن تمحى بأية سلطة⁽³¹⁾.

وعلى نفس الدرب سار البابا جريجورى الأول العظيم (590-604)، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس (582-602) يقول: "أجب سيدك أيها الإمبراطور، فالمسيح على لسانى يسألك .. لقد أخذت بيدك وأنت بعد جندى، وجعلت منك قائدا للحرس الإمبراطورى، ثم ارتقيت بك فصنعتك قيصرا، ثم رفعتك مكانا عليا فغدوت إمبراطورا وأتممت عليك نعمتى فرزقتك بنين أباطرة، وأمنتك على رجالى .. عجباً .. أتأتى الآن لتمنع جندك أن يعملوا فى خدمتى!؟ بالله كيف ستجيب سيدك إذا جاء فى مجده ليدين الأحياء والأموات؟"⁽³²⁾.

وفى عام 729، كتب البابا جريجورى الثانى (715-731) إلى الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى يقول: "نحن نستمد سلطتنا وسلطاننا من أمير الرسل بطرس،

(31) نفس المصدر.

(32) GREG. I, Letter to Maurice.

ونحن قادرون - إذا شئنا - أن نصدر حكماً ضدك .. اصنع إلينا أيها الإمبراطور، فلتكف عن القيام بأعمال الكهانة ... إن القوانين الكنسية شئ وإدارة الإمبراطورية شئ آخر .. وكما أنه ليس من حق البابا أن يتدخل في أمور القصر الإمبراطوري، أو يعتدى على الامتيازات الملكية، فليس من حق الإمبراطور بالتالي أن يتدخل في شئون الكنيسة .. مكتوب "الدعوة التي دعى فيها كل واحد فليلبث فيها" (اكورنث ٢٠/٧) (٣٣). غير أن هذه الرسائل إلى الأباطرة البيزنطيين في القسطنطينية، لم يكن لها أدنى تأثير على سياسة "القيصرية البابوية" التي اتبعوها، ولا على التمثيل بـ "الملك الكاهن" ملكى صادق، إلى الحد الذى دفع البابا جلازيروس أن يشير إلى هذه الناحية فى رسالته التى عرضنا لجانب منها، بل إن الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى أقدم رداً على رسالة جريجورى الثانى، على فصل مناطق جنوب إيطاليا وصقلية عن السيادة البابوية، وجعلهما تحت الرعاية الأسقفية لبطريك القسطنطينية.

والكنيسة الرومانية نفسها كانت تدرك حقيقة هذا الأمر، وأنه لا غنى عن السيادة الإمبراطورية لحماية مركزها فى روما ضد أعدائها من اللومبارد والنبل الرومان وبعض العائلات الأرستقراطية فى روما، التى كانت تسعى للحصول على كرسي القديس بطرس. وليس أدل على ذلك من الرسالة التى بعث بها الأكليروس الرومانى، إلى الإمبراطور فى القرن السابع، حول الموافقة على اختيار البابا، وجاء فيها : "... من أجل هذا، فإننا معشر أتباعك أيها الإمبراطور، نتوسل إليك بكل الدموع، أن تتفضل بقبول التماسنا، وتحقيق رغبتنا، بتقليد ... الذى اخترناه، ولمجد المملكة نرجو أن تتعطف بالموافقة. فما أن تقررون ذلك، حتى نبدأ على الفور فى الصلاة من أجل سيدنا الإمبراطور" (٣٤).

(33) GREG. II, Letter to Leo III. .

(34) A Letter from the Church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confirm the election of their Bishop .

ولقد ذهب الأباطرة خطوة أبعد من ذلك، عندما فوضوا أرخون رامتا في القيام بدور الإمبراطور، في التصديق على اختيار البابا، نظرا لما قد يستغرقه عرض الأمر على الإمبراطور من زمن طويل، وما قد يحدث إبان ذلك في روما من جانب النبلاء الرومان، المتحفزين للوثوب على العرش البابوي، الذي أمسى نهبا لهم خلال القرن السابع الميلادي. ولدينا رسالة بعث بها الأكليروس الروماني إلى أرخون رافنا حول هذه المسألة^(٣٥).

بهذه الخلفية، وباطراد حدة العداء بين روما والقسطنطينية، والتباعد الواسع بينهما فكرا وثقافة، ومن بعد بقليل في الناحية العقيدية، والذي بلغ مداه في الصراع حول مشكلة الأيقونات، ورغبة من البابوية في التحرر من السلطان السياسي لأباطرة القسطنطينية، وتعويضا عن فقدان المكانة السياسية الموموقة - كما قدمنا - كل هذا دفع البابا ليو الثالث إلى تتويج شارلمان إمبراطورا في الغرب.

كانت حادثة التتويج هذه نقطة فاصلة على طريق السمو البابوي، فقد اعتبرت من أهم العمد الرئيسية التي بنيت عليها النظرية تطبيقا فيما بعد، بل ومحور الارتكاز في هذا التطبيق. ورغم أن هذه الحادثة أثارت الكثير من المشكلات في زمانها بين أباطرة القسطنطينية وملوك الفرنجة، وحيرت فقهاء القانون في حينها ومن بعد، وحول شرعية ما أقدمت عليه البابوية^(٣٦)، إلا أن هذه تمسكت بما قدمته يداها، واعتبرته انتصارا كبيرا لها، ولم تتخل عنه مطلقا، وراحت تؤكد ثانيته عام ٩٦٢ عندما أقدم البابا الغر العاشر، يوحنا الثاني عشر،

(25) A Letter from the Church at Rome to the Exarch at Ravenna asking him to confirm the election of their Bishop. .

(٣٦) ناقش Barraclough هذه القضية باستفاضة في بحثه المنع The Mediaeval Empire, Idea and Reality وقد قام الأستاذ الدكتور جوزيف نعيم يوسف بنقله إلى العربية ضمن كتابه "الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى" وقدم له تقديمًا واقفيا .. راجع الكتاب المذكور ص ٢٨-٤٤ و ١٦٩-١٨٩

على تتويج الملك الألماني أوتو الأول، امبراطورا، بسبب الدوافع نفسها التي حدث بسلفه ليو الثالث إلى تتويج شارلمان، قبل ذلك بمائة واثنتين وستين سنة.

ولا شك أن البابوية كانت تترك تماما خطورة العمل الذي أقدمت عليه، فمن يملك حق منح التاج، يملك بالتالي حق سحبه. بتعبير آخر، من يملك سلطة اختيار الإمبراطور، يملك سلطة عزله وكان شارلمان نفسه يدرك أبعاد هذا العمل، ولذا فإنه رغم اغتباطه المعتدل بحمل اللقب الإمبراطوري، إلا أنه اغتم للأسلوب الذي جرى به، فقد كان يأمل لو أنه هو الذي وضع التاج بيديه على مفرقه، ولهذا ولأسباب أخرى .. كتب مادحه اينهارد Einhard يقول، لو أن شارل كان يعلم ذلك، لما ذهب إلى كنيسة القديس بطرس!!⁽³⁷⁾.

وإذا كانت البابوية قد وجدت في شارلمان الحماية السياسية ضد أعدائها البيزنطيين واللومبارد ونبلاء الرومان على السواء، فإنها افتقدت فيه الأداة الطبيعية التي كانت تؤلمها عندما خلعت عليه تاج أباطرة الرومان. بل غدا شارلمان القاضي الذي راح يفصل في النزاع بين البابا وخصومه في روما⁽³⁸⁾ ووقف ليو الثالث في حضرة الإمبراطور ليعلن: "... أنا ليو، أسقف الكنيسة الرومانية المقدسة، والذي لم يقاضني من قبل أحد ولم يقهر إرادتي، أبرئ نفسي في حضرتك؛ من أجل الله، من كل هذه الاتهامات"⁽³⁹⁾. وكتب شارل العظيم إليه، محمدا عمل البابا في الواجبات الروحية فقط .. قال: "من واجبنا أن ندفع عن كنيسة المسيح أعداءها، وعليك أيها الأب العظيم أن تقدم لنا يد العون في نضالنا الصادق، بأن ترفع إلى السماء أكف الضراعة، كما كان موسى من قبل يفعل"⁽⁴⁰⁾.

وفي عام ٨٩٨، أقر المجمع المنعقد في روما تحت رئاسة البابا يوحنا التاسع (٨٩٨-٩٠٠) عدم شرعية اختيار البابا إلا بحضور الإمبراطور أو ممثله⁽⁴¹⁾، وفي

(37) EINHARD, vita Caroli, III, 28

(38) EINHARD, vita Caroli, III, 28.

(39) LEO III, The oath before Karl the Great.

(40) KARL. MAGN., Letter to Leo III.

(41) JOHN IX, Enactment of a Roman Synod, 898.

عام ٩٦٣، وعن المجمع الذي التأم في روما عقده، صدرت الوثيقة التالية: "... اتباعا للسنة التي وضعها البابا مبارك الذكر، الذي أعطى شارل ملك الفرنجة واللومبارد، مرتبة البطريرق، والحق في اختيار البابا وتعيين الأساقفة، أمنح أنا الأسقف ليو (الثامن) خادم خدام الرب، وكل أكليروس وشعب روما - بمقتضى السلطة الرسولية، أوتو الأول ملك الألمان، وخلفاءه، إلى الأبد، الحق في اختيار خليفة البابا ورسمه، وكذا رؤساء الأساقفة والأساقفة. وليس من حق أحد مهما كانت مرتبته الكنسية أو مكانته، أن يمتلك سلطة اختيار أو رسم البابا أو أى أسقف، دون موافقة الإمبراطور. ويمارس الإمبراطور ذلك باعتباره ملكا (لإيطاليا) وبطريقا (لروما). وإذا ما تم اختيار أسقف من جانب الأكليروس والجموع، فلن تتم رسامته حتى يوافق الملك على ذلك، ويتسلم منه تقليده"^(٤٢).

وقد وردت نفس العبارات في الوثيقة التي تصور مقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) الملك الألماني وإمبراطور الرومان، في النصف الأول من القرن الحادى عشر إلى روما، وعزله لثلاثة بابوات، وتعيينه لخمس متتابعين^(٤٣).

وقد يبدو الأمر على هذا النحو غريبا، ونتيجة مخالفة تماما للمقدمة التي ذكرناها، والقائلة أن سلطة التعيين والعزل أصبحت في يد البابوية، منذ حادثة شارلمان، فكيف تصبح المسألة على العكس تماما، حتى منتصف القرن الحادى عشر، إذ أن الذى لا مراء فيه، أنه خلال حكم الأسرتين السكسونية (٩١٨-١٠٢٤) والفرنكونية (١٠٢٤-١١٢٥) فى ألمانيا، كان اختيار الباب مسألة إمبراطورية بحتة، هذا باستثناء الفترة التي بدأت بعهد هنرى الرابع منذ عام ١٠٥٦. وبلغت السلطة الزمنية قمة شأنها وعلوها، عندما أقم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) على إجبار ثلاثة من مدعى العرش البطرسي على الاعتزال فى سوتري Sutri وروما،

(42) LEO VIII, Grants the Emperor the right to choose the pope and invest all bishops, 963

(43) HENRY III., The Emperor deposes and Creates Popes, 1048

وتلقى الساج على يد البابا الألماني، الذي عينه من قبل وهو سويدجار Suidger أسقف بامبرج Bamberg⁽⁴⁴⁾.

الحقيقة أن البابوية دخلت منذ القرن التاسع، وعلى امتداد قرنين تالين، في حالة من انعدام الوزن، وفقدت مكانتها التي كانت لها من قبل، وابتليت بمرضين خبيثين هما السيمونية، أي بيع الوظائف الكنسية، وزواج رجال الدين، خلافا لما استقر عليه الرأي في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ وأصبح منصب البابوية العوبة في أيدي بعض العائلات الأرستقراطية في روما، وحكراً عليها، ولعبت بعض الشخصيات النسائية دوراً كبيراً في تعيين عدد من البابوات، واعلى كرسى بطرس صبية في سن اللهو والعبث، بل وبيع منصب البابوية في كثير من الأحيان⁽⁴⁵⁾.

وغرقت الكنيسة الرومانية في الثراء، نتيجة الهبات التي أهدقت عليها من جانب ملوك أوروبا منذ أيام شارلمان، وحرص رجال الدين، وقد تزوجوا الآن وكونوا لهم عائلات، على توريث أبنائهم مناصبهم، ليرثوا بالتالي ثروتهم، حتى غدا رجال الأكليروس "أمراء" يشكلون طبقة أرستقراطية ضخمة، تعادل أن لم تكن تفوق الأمراء العلمانيين، واشتغلوا بكل الأعمال المدنية والحياة العامة، إلى الحد الذي وصف فيه أحد المعاصرين، لإكليروس الألمانى في القرن العاشر، بقوله: "إذا كانت هناك حقيقة واحدة في ألمانيا، فهي أنه ليس هناك رجل دين تقى!!"⁽⁴⁶⁾.

غير أن موجة من الإفاقة بدأت تدب في أوصالها وهي كارهة! وسرت حركة الإصلاح الداخلى فيها، بتأثير رهبان دير كلونى، الذى ارتبطت به محاولات إخراج الكنيسة من التردى الذى انحدرت إليه.

(44) Joachimsen, Investiture Contest, p. 103

(٤٥) للوقوف على المزيد من تفصيلات هذه الفترة راجع:

Barry, The Papal Monarchy, pp. 144-162

(46) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 360

وكان بمقدور هؤلاء الرهبان، الذين وصل نفر منهم إلى كرسى القديس بطرس، أن يتزعموا الحركة الإصلاحية للقضاء على السيمونية وزواج رجال الدين، وذلك عن طريق عقد المجامع الكنسية، وإصدار المراسيم التى تحرم على شعب الكنيسة التعامل مع مثل هؤلاء الأساقفة المرتشين أو المارقين.

ولكن إذا كان من السهل نسبيا نجاح البابوية فى هذا السبيل، باعتباره مسألة داخلية، رغم المقاومة العنيفة التى أبدتها عدد ليس بالقليل من الأكليروس المنتفعين بمثل هذه الأوضاع المتردية، وبعض ملوك أوروبا وفى مقدمتهم فيليب الأول Philip I ملك فرنسا (١٠٦٠-١١٠٨)، فإن داء عضالا كان قد استشرى فى الكنيسة، لم يكن من الميسور أبدا معالجته على هذا النحو، أعنى مشكلة التقليد العلماني، وهى قيام العلمانيين من الأمراء والملوك بتعيين رجال الدين. وهنا .. ولأن الأمر لا يخص الكنيسة وحدها، كان لابد أن تصطدم البابوية بالسلطة الزمنية. ومن ثم أضحت التقليد العلماني يمثل حجر الزاوية فى حركة الإصلاح الكنسى فى العصور الوسطى، أو بتعبير أدق، بصفة مرحلية، حتى القرن الثانى عشر. عندما كان يمثل القناع الذى غطت به البابوية وجهها، حيث كانت الإمبراطورية فى الغرب صاحبة اليد الطولى فى شئون الكنيسة، فلما انتهى الأمر بين الطرفين إلى الاتفاق على حل وسط، تمثل فى اتفاقية وورمز^(٤٧) Worms عام ١١٢٢، بين الإمبراطور هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٤) والبابا كالكستس الثانى Calixtus II (١١١٨-١١٢٤)، وأنست الكنيسة من نفسها قوة، ورأت فى الإمبراطورية ضعفا^(٤٨)، أسقطت قناعها، وكشفت عن وجهها سافرة، وأعلنت أنها صاحبة الحق فى السيادة على العالم دنيا ودينا!!

(٤٧) راجع نص الاتفاقية Concordat of Worms فى :

Historical Documents of the Middle Ages, trans and ed. by Ernest Henderson. PP. 408-409

(٤٨) كان ذلك واضحا على عهدى لوثر (١١٢٥-١١٣٧) وكونراد الثالث (١١٣٧-١١٥٢) ورغم أن خلفاء كونراد كانوا على قدر كبير من القوة، إلا أن البابوية كانت قد صممت على تحقيق السمو كاملا.

وقد يتبادر إلى الذهن، أن الإمبراطورية كانت تتحدى حركة الإصلاح هذه أو تعارضها، ومن هنا جاء عداؤ البابوية لها. لكن الحقيقة أن الإمبراطورية كانت هي الأخرى تبغى الإصلاح الكنسى، وإن كان من وجهة نظر مخالفة، بمعنى أنه لا مانع من أن يتولى أمر البابوية والكنيسة أساقفة مصلحون، شريطة أن يتم اختيارهم عن طريق الأباطرة، ولقد مارس كل من أوتو الأول وحفيده الثالث، وهنرى الثالث هذه الناحية إلى أقصى حد، بهدف الارتقاء بالبابوية من التردى الذى هوت إليه فى القرن التاسع وأنه لمن سخرية الأقدار حقا، أن يكون الأباطرة الألمان هم الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، ولكنهم فى النهاية كانوا أكثر الناس خسرانا من برنامج هذا الإصلاح.

كان الإصلاح من وجهة نظر البابوية هو إقرار العدالة فوق رؤوس الخطاة والعدالة أو الإصلاح تعنى الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا، والخروج عليه يعد ضربا من الشرك، ووثنية^(٤٩). لأن البابا ليس فقط مجرد خليفة للقديس بطرس، أول البابوات ورأس الكنيسة المسيحية على الأرض، ولكنه خليفة بطرس، تلميذ المسيح، باعتباره أداة الرب الذى اختارته السماء، ليقر العدالة فوق رؤوس الخطاة^(٥٠).

وأى شئ أكبر شهادة مما تضمنته المراسيم البابوية، التى تتسبب إلى جريجورى السابع، الذى يعد مع إنوست الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) ويونيفاس الثامن Boniface VII (١٢٩٤-١٣٠٣) أشهر بابوات العصور الوسطى على الإطلاق؛ فقد تضمنت سبعة وعشرين مرسوما، تسمو بالبابوية على عليين، جاء فيها، أن الكنيسة الرومانية رفع القواعد منها الله وحده، وأنها لم تقارف البتة الخطأ، ولن تخطئ طيلة عمرها الآتى، وأن البابا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون،

(٤٩) عبر جريجورى السابع عن ذلك بقوله قبيل وفاته: "أحببت العدل وكرهت الظلم، من أجل ذلك أموت فى المنفى".

Delexi Justiciam et odivi iniquitatem, propterea quod morior in exilio.

(50) Thompson & Johnson, op. cit., p. 378

وأنه لا راد لقضائه، وأن أى مجمع لا يمكن أن يحوز الصفة المسكونية إلا برضائه، وأن مندوبيه فى أى مجمع عام، مهما صغرت مرتبتهم الكهنوتية، فوق كل الأساقفة، وبمقدورهم أن يصدروا ضد هؤلاء قرار العزل، وأن من حقه أن يعزل من الأساقفة من يشاء، ويولى من يشاء، دون الحاجة إلى رأى مجمع.

إلى هنا يبدو الأمر معقولا ما دام فى دائرة اختصاص الكنيسة، لكن المراسيم أفصحت عما راحت البابوية تسعى الآن إليه وتدعمه، فتضمنت أن البابا يمكن أن يسمح للأمرء بتقبيل قدمه، ثم ازدادت النعمة علوا فأضافت أنه يمكن للبابا عزل الأباطرة، وأن يحل الرعية من يمين الولاء لمن يعصاه وكانت خاتمة المطاف أن من حق البابا وحده استخدام الأشعرة الإمبراطورية⁽⁵¹⁾.

هكذا جاءت المراسيم البابوية، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن يغدو حكم العالم ثيوقراطيا محضا، وأن تبتلع الكنيسة الدولة، وأن تصبح الأرض كلها ولا شئ غير "مدينة الله" عند القديس أوغسطين، وقديما تصور شارلمان إمبراطوريته دولة ثيوقراطية، الإمبراطور فيها يمثل الله على الأرض، والكنيسة فيها إحدى دوائر الدولة، شأن أباطرة القسطنطينية.

لقد كان مفهوم البابوية عن الحكومة العالمية إقطاعيا، الله فيها هو السيد الأعظم للجميع، وهذا الذى يحكم العالم من خلال المسيح، الذى يحكم هو الآخر عن طريق بطرس، الذى يمارس سلطانه بواسطة البابا. أما الأباطرة والملوك والأمرء فليسوا إلا أفضالا تابعين للبابا ويمتلكون أراضيهم إقطاعا منه⁽⁵²⁾.

تجسدت هذه الأفكار بصورة واضحة فى ذهن البابا جريجورى السابع، الذى كان يصور نفسه - كما تدل على ذلك رسائله إلى الإمبراطور هنرى الرابع، على أنه القناة التى من خلالها تنفذ إرادة بطرس أمير الرسل إلى بنى البشر، فكل كلمة تكتب أو تقال للبابا، فالذى يتلقاها هو بطرس نفسه، وإذا كان البابا يقرأ فقط أو

(51) Dictatus papae.

(52) C. M. H. Vol. V, p. 56. Thompson & Johnson, op. cit., p. 379.

يسمع ظاهر الكلمة المكتوبة أو المسموعة، فإن بطرس يطلع على خبيئ نوايا كاتبها أو قائلها، وكل ضرر يقع بالبابوية، حتى ولو كان حبيس الفكر، فإنه موجه إلى أمير الرسل مباشرة، فالبابا هو الناطق بلسان القديس بطرس، ومنه يستمد سلطانه الفائق بالربط والحل في السماء وعلى الأرض. ولقد خاطب جريجورى السابع إكليروسه في مجمع عقد سنة ١٠٨٠ بقوله: "ألا فليدرك العالم أجمع، أنه إذا كان بمقدوركم الربط والحل في السماء، فإنكم على الأرض قادرين على أن تعطوا الملك من تشاءون، وتزعونه ممن تشاءون، فى الإمبراطوريات والممالك، فى الإمارات والدوقيات، فى الماركيات والكونتيات، بل إن شئتم فى كل ما يمتلكه بنو البشر". وكتب إلى ملك المجر عام ١٠٧٤ يقول: "نما إلى علمنا أنكم تلقيتم مملكتكم كإقطاع من الملك الألمانى، وهذا يعد انتهاكا لحقوق وكرامة القديس بطرس، ويعد تصرفا لا يليق بملك فإن ما أردت أن تتعم برعاية القديس بطرس، ورضائنا، فعليك أن تصحح على الفور خطيئتك؛ فلعلك تعلم يقينا أنه لا أمل لك فى الخلاص، ولن تحظى بعهد طويل على العرش، ما لم تبادر إلى الإعراف أنك تلقيت صولجان مملكتك من البابا وليس من الملك"^(٥٣).

على خيوط هذه النظرية البطرسية^(٥٤) باعتبار بطرس أمير الرسل، وصاحب الربط والحل فى السماء وعلى الأرض، نسجت البابوية خيوط سموها وعلو مكانتها- فى النواحي الروحية والزمنية سواء. دعمتها بنظرية السيفين، الروحية والزمنية، وتفوق الأول على الثانى، وهى النظرية التى تعود فى جذورها إلى البابا جلازيوس الأول، فى القرن الخامس؛ على النحو الذى أسلفنا من قبل^(٥٥).

(٥٣) GREG. VII, Letter to Solomon, King of Hungary, 1074 والعديد من رسائل جريجورى السابع كلها تدور حول هذا المعنى، الذى ورد فى رسالته إلى ملك المجر، من ذلك مثلا رسالته إلى فراتسلاف ودوق بوهيميا Bohemia (١٠٧٣) وسانشو ملك أرغونه Aragon (١٠٧٤) والأمير الروسى ديمتريوس Demetrius (١٠٧٥).
(٥٤) وللمزيد من التفاصيل عن هذه النظرية، راجع :

Ozment, The Age of Reform, pp. 138-140

(٥٥) راجع قبله وانظر أيضا :

Brackmann, The national state, p. 282

ولم تجد البابوية حرجا في أن تزيف بعض الأمور أيضا، وصولا إلى تدعيم موقفها، وكانت هبة قسطنطين^(٥٦) Donatio Constantini التي زيفت في البلاط البيابوي حوالي عام ٧٦٠ للميلاد، أوضح الأمثلة على الوسائل التي لجأت إليها البابوية في هذا السبيل^(٥٧). وإن كان البابا جريجوري السابع، والكاردينال همبرت Humbert قد رأوا في الهبة شيئا ينتقص من قيمة البابوية، إذ تبين أن الإمبراطور هو الذي وضع على رأس البابا، التاج الإمبراطوري وهذا بالطبع عكس ما كان يراه جريجوري السابع تماما، فبالنسبة له ولخلفائه، كانت الأولوية لهبة المسيح نفسه، وأن السيادة البابوية على الملوك والأباطرة، لم تأت من السلطة الإمبراطورية بل من الله وحده. ومع ذلك فقد استمرت النظرية لعدة قرون، ثم راحت في القرن الحادي عشر تتوارى بالحجاب^(٥٨).

اعتمادا على ذلك، هذا كل شيء، راح البابوات يروجون لسيطرتهم، ويتصرفون باعتبارهم كهنة وقضاة، ويكتبون إلى الحكام، كما لو كانوا يكتبون إلى من هم أدنى مكانة من مرتبة، فممن ذلك من الصليبية المفضلة لدواعي البابوات، التهنئة ملكة ألماني جديد، فقد كانت تقول: "إن الأمم تستمتع بتحدثها الغامرة من امتيازها وليتها، ولا شيء يسبب الأيوبيين أكثر من أن يبروا، حكمه البنين وأمانتهم"^(٥٩). وتوجت كلمات الكاردينال همبرت، راهب اللورين الكلوني، وعضد جريجوري السابع، جبهة نظرية السمو البيابوي، حين قال: "مثل البابوية والإمبراطورية يكمل الروح والجسد، كالسماء بالنسبة للأرض".

(٥٦) انظر نص الهبة :

Historical Documents of the Middle Ages, pp. 319-329

(٥٧) عن الأراء التي ناقشت زيف الهبة راجع :

Barry, The papal Monarch, p.27.

Ullmann The Growth of papal Government, pp. 74-86

وأيضا

Ozment, op. Cit., p. 140

وذلك

(58) Southern, Western Society and the church in the Middle Ages, p. 101.

Bryce. Holy Roman Empire, p. 157

وأيضا :

(59) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp, 322-323. .

ولم يكن من السهل على ملوك أوروبا عامة، وألمانيا بصفة خاصة، بعد أن حملوا لقب "أباطرة الرومان" وارتبطت مصالحهم بإيطاليا والبابوية ارتباطا وثيقا، أن يقبلوا بسهولة هذا التعالي. ومن ثم كان ملوك ألمانيا هم أكثر الحكام تأثرا بنظرية السمو البابوي، وأكثرهم معاناة من ناحية التطبيق.

ولقد قدمنا أن الإمبراطورية كانت هي الأخرى راغبة في الإصلاح الكنسي، وإن كان من وجهة نظرها، أى أن يتم اختيار البابوات المصلحين على أيدي الأباطرة. وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية من يعين من؟! ومن يعزل صاحبه!؟

وكان لا بد أن ينشط فقهاء القانون، المؤيدون للحق الإمبراطوري بصورة لا تقل عما ذهب إليه الحزب البابوي. ومن الطريف أن الحزب الإمبراطوري أقام دعواه على نفس القواعد - تقريبا - التي بنت عليها البابوية حججها، وفند بعض دعواها، وأضاف إليها أسانيد جوهرية؛ فالفصل بين ما لقيصر وما لله، يعنى سلطة زمنية مستقلة، لها حقوقها الكاملة على رعايا بما فيهم البابا، باعتباره مواطنا رومانيا. والنظرية البطرسية القائمة على تفويض السماء لبطرس في الربط والحل على الأرض، لا تتعدى في مفهوم السلطة الزمنية - المسائل الروحية فقط ونظرية السيقين تعطى للإمبراطور نفس الحق الذى تعطيه للبابا، ويقدم الحزب الإمبراطوري دليلا من الكتاب المقدس على ذلك، ويتساعل - ألم يقل بولس في رسالته إلى أهل روما: "لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة، فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة ... لأنه خادم الله للصالح ... لذلك يلزم أن يخضع لله ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا.. فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الحياة لمن له الحياة" (١٣/١-٧) ومن ثم يضع المؤيدون للحق الإمبراطوري في السيادة علامة استفهام كبيرة. إذا كان هذا قول بولس، فبأى حق تدعى البابوية السيادة!؟

أما عن "هبة قسطنطين" فبغض النظر عن ثبوت زيفها - كما أشرنا - فإن الواقع والمنطق لم يكن يقرأها حتى في حينها. فالرجل أمضى ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) يناضل من أجل توحيد الإمبراطورية، والفكر السياسي الروماني لم يكن يقبل بالتنازل طواعية أو غصبا عن جزء من الإمبراطورية. وحتى عندما ضاع النصف الغربي من الإمبراطورية حقيقة على يد الجرمان، ظل الرومان - على الأقل - من الناحية النظرية، يعتبرون الإمبراطورية الواحدة قائمة. وإلا فيم تفسر جهود جوستينيان وحروبه الاستردادية في القرن السادس، وسياسة الأيزوريين في القرن الثامن، واتجاهات المقدونيين في القرن العاشر، وطموحات آل كومنين، خاصة مانويل، في القرن الثاني عشر؟ وهؤلاء هم أنصار جمهورية أرنولد البريشي Arnold of Brescia الذين أعلنوا الثورة في روما في القرن الثاني عشر، وتحذوا سلطان البابا، مما دفعه إلى الاستتجاد بالملك الألماني فردريك برباروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠)، يعلنون "هذه الأسطورة الزائفة والمضللة، والتي تدعى أن قسطنطين قد أعطى الإمبراطورية إلى سيلفستر، قد ساد زيفها في روما، حتى ألجم أفواه رجل الشارع، والنسوة، وصفوة المتقنين.

ولم يجرؤ البابا وكرادته على الظهور في المدينة خشية الفضيحة"^(٦٠). ورغم أن البابوية قد غضت للطرف عن هذه "الهبة" المزعومة، منذ القرن الحادي عشر، إلا أن كتاب الإمبراطورية ومؤيديها، راحوا يناقشونها إلى وقت متأخر، بهدف التشهير بالبابوية، لتزييفها مثل هذه الأسانيد؛ فقد لاحظ أكورسيوس Accursius أحد رجال القانون في القرن الثالث عشر، إنه إذا كان قد حدث فعلا، فإنه يعد أمرا باطلا، لأن الإمبراطور قد أعطى شيئا لا يملكه. لقد كان حاكما للإمبراطورية، ولم يكن مالكا لها^(٦١).

ومالنا نذهب بعيدا، والملك الألماني هنري الرابع يحسم القضية بعبارة واضحة جاءت في رسالة إلى البابا جريجوري السابع، عام ١٠٧٦ يقول فيها: "من

(60) Mundy, op. cit. P.321

(61) Id.

هنرى الملك، ليس عن طريق الاغتصاب، بل برسامة مقدسة بيد الله، إلى هليديبراند الراهب الزائف، وليس البابا .. أخطأت إذ تصورت أن تواضعنا يعد ضعفا، وتجاسرت على مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التي تسلمناها من الله .. وهددت بتجريدنا منها، كما لو كنا قد تسلمناها منك، وكما لو كانت الإمبراطورية والمملكة معقودة بإرادتك وليس بإرادتك وليس بإرادة الله .. ألا فلتعلم .. أن الرب يسوع المسيح قد دعانا لحكم الإمبراطورية، لكنه لم يدعك أبدا لتتسلط على الكنيسة⁽⁶²⁾.

هذان خصمان اختصموا فى مصدر سلطانهم، والتقوا على طرفى نقيض، وكان لابد أن يبدأ النزال.

فى عام ١٠٥٩ كان هنرى الرابع ملك ألمانيا، يعانى غض العمر وسن القصور، ويقاسى ويلات وصاية فرضها عليه الداھية أنو Anno رئيس أساقفة كولونى Cologne طمعا فى دخل أراضى التاج، بعد أن اختطفه وأكليروسه من بين أحضان أمه الوصية الشرعية. فى هذا العام، وبعد مضى ثلاث سنوات فقط على وفاة هنرى الثالث، الذى مارس - بهدف الإصلاح - مهمة عزل ثلاثة من البابوات وتعيين خمسة آخرين. تم عقد مجمع فى روما تحت رعاية البابا نيقولا الثانى Nicholas II (١٠٥٩-١٠٦١)، كان القرار الرئيسى الذى صدر عنه، هو أن يتم اختيار البابا عن طريق كرادلة روما السبعة، دون تدخل من السلطة العلمانية، ممثلة فى الإمبراطور⁽⁶³⁾. ويتم تطبيق ذلك فعلا عند اختيار البابا اسكندر الثانى Alexander (١٠٦١-١٠٧٣). وكان هذا يعنى إغفال تعهدات البابوية من قبل فى هذا السبيل، والتي صدرت عن البابا ليو الثالث إلى شارلمان، والبابا ليو الثامن إلى أوتو الأول، والمجمع المنعقد فى روما عام ٨٩٨⁽⁶⁴⁾. وكان ذلك أيضا يمثل أول تطبيق عملى لنظرية سمو للبابوى، أحرزت به البابوية نقطة فى حلبة

(62) HENRY IV, The deposition of Gregory VII, 1076

(63) NICHOLAS II, The papal election decree, 1059

(64) راجع قبله.

الصراع الدامي الآتي، وعرفت البابوية كيف تستغل الظروف السياسية المهيأة لها تماما آنذاك.

فعلى الساحة الدولية، كانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني أوجاع الانحلال، فى الفترة التى أعقبت وفاة باسيل الثانى Basil II سنة ١٠٢٥ فالسلاجقة يجرحون كبرياءها فى آسيا الصغرى، والنورمان يوارون التراب جسدها المسجى فى إيطاليا. والملكية الفرنسية على عرشها ملك هو فيليب الأول، سرى تهتكه مسرى الفضيحة، يمارس السيمونية علنا، ويستجلب على نفسه بكل الرضى، سخط الناس والبابوية. وفى إنجلترا، كان جدار آخر ملوك السكسون يريد أن ينقض، فلما أقام وليم النورمانى الفاتح، بديلا، كان عليه حتما مقضيا أن يشغل نفسه ويصرف جهده أيضا لبناء دولة جديدة. أما ألمانيا، بيت القصيد، فحالتها كما علمنا، لا يخفى على أحد، وملكها لا حول له ولا قوة إلا بالاكليروس!!

والبابوية تمكن لنفسها فى الأرض، فتعقد المحالفات السياسية هنا وهناك، بعد أن أصبحت هى الأخرى ضمن عداد القوى السياسية فى أوروبا، سعيًا لأن تملوها جميعًا. فها هى تمد يد الصداقة للكونتيسة ماتيلدا Matilda -دوقة تسكانيا Tuscany، وتوقع معاهدة مع زعماء النورمان جنوبى إيطاليا وصفالنية، التزم فيها هؤلاء بيمين الولاء للبابوية باعتبارهم أفضلًا إقطاعيين، فغدت الأراضى التى يسيطرون عليها إقطاعا بابويا^(١٥). هذه النقطة الأخيرة بالذات، عدت خطوة أوسع من البابوية نحو السيادة الزمنية، وفى الوقت ذاته إهانة بالغة وجهت إلى الملكية الألمانية، وذلك لأن البابوية نقلت إدعاءات الأباطرة الألمان فى جنوبى إيطاليا، باعتبارها جزءا من الإمبراطورية، إلى سادة جدد هم النورمان، وإن كانت حقيقة الأمر تعنى السيادة البابوية نفسها باعتبار البابا الآن (١٠٥٩) قد غدا سيدا إقطاعيا

(65) R. GUISCARD, The oaths of R. Guiscard to Nicholas II. 1059

بهذه التحالفات السياسية والعسكرية، وبقوة الارتكاز إلى النظرية البطرسية، والحجج والأسانيد التي سقناها، أعلنت البابوية صراحة تحديها للسلطة الزمنية، ممثلة في ملوك أوروبا، فعقد جريجوري السابع عام ١٠٧٤، ١٠٧٥ عدداً من المجامع^(٦٦)، أعلن فيها الحرب على السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني، وأرسل مندوبيه ورجاله إلى كل أنحاء أوروبا، ليمارسوا سياسة التطهر الجديدة التي أعلنها جريجوري السابع، أو "الشيطان المقدس" Holy Satan كما وصفه الراهب بطرس الدمياني Peter Damian^(٦٧). وكتب إلى هنري الرابع، الملك الألماني، رسالة في ديسمبر ١٠٧٥، تنبه إلى ضرورة مراعاة ما جاء بقرارات المجامع التي عقدها البابا، خاصة فيما يتعلق بالتقليد العلماني. والتي قوبلت بعاصفة هوجاء من الاحتجاج، بين الكليروس الألماني، الذي كان قد بلغ حداً من الثراء والنفوذ، خشى معه من قرارات الإصلاح البابوية، وهذا ما يفسر لنا وقوف نفر ليس بالقليل من رجال الدين في ألمانيا إلى جانب السلطة الزمنية ضد البابوية في أول الأمر. وكان ما أثار غيظ هنري الرابع في هذه الرسالة، ما طلبه إليه جريجوري من عزل خمسة من المستشارين كان جريجوري السابع قد أصدر قراراً بجرمانهم من رحمة الكنيسة. ومن الطبيعي أن يرفض الملك الألماني ما عده تدخلاً سافراً من البابا في الشؤون الداخلية لدولته، وتطاولاً على حقوق السلطة الزمنية. ولما كان هنري هو الآخر، يعتمد على وجهة نظر الأباطرة في السيادة، ويهتدي بخطى أبيه فقد راح يمارس حقه في تعيين الأساقفة في الأسقفيات الشاغرة، على أن ما أثار حق جريجوري السابع، إقدام هنري على تقليد أساقفة ثلاثة أسقفيات ميلانو وفيرمو Ferme وسبوليتو Spolito، والأخيرتان تابعتان مباشرة لسلطان كنيسة روما.

(66): Lhatcher & McNeal, A source book for Mediaeval History, pp. 134-135.

Thompson & Johnson, op. cit. p. 377, (٦٧) ولمزيد من التفاصيل عن الراهب بطرس الدمياني،

انظر: كانتور: التاريخ الوسيط، القسم الثاني، ترجمة دكتور كامل، ودار قاسم، ص ٤١٩-٤٢٢،

ولما أبلغ مندوبو البابا، الملك، الجانب الشفهي من الرسالة، والذي يعنى للتهديد بوضع هنرى تحت طائلة الحرمان الكنسى، فى حالة رفضه الامتثال لمطالب البابا، أقدم هنرى بكل الغضب على دعوة الاكليروس الألمانى ومستشاريه، إلى عقد مجمع فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١٠٧٦، فى مدينة وورمز Worms، انتهى إلى إصدار قرار بعزل جريجورى السابع من منصبه، وتضمنت ذلك رسالة هنرى الرابع إلى البابا، مخاطبا إياه فيها باسمه الرهبانى "هليدبراند"، والتي أشرنا إلى طرف منها، وجاء فيها.

".. خبرنى .. من من الناس لم تعقد لسانه لدهشة ويتميز من الغيظ، وهو يراك تدعى الأفراد بالسلطة؟! .. إن من يعرف الكتب المقدسة يدرك يقينا مدى جنون هذا الإدعاء وحيث إن كنيسة الله، بسبب فعالك، قد بات يتهددها الخطر من جراء عجزفك، .. فقد قررنا أن نخرج عن صمتنا الذى التزمناه، وأن نكشف للجميع عن الأسباب التى تجعلك غير أهل للبابوية"^(٦٨).

ويمضى هنرى الرابع فى رسالته مبينا الأسباب التى دفعت المجمع إلى اتخاذ قراره، إلى أن يصل فى النهاية إلى قوله: " .. لكل هذا صدر قرار بإدانتك على يد أساقفتنا وبموافقتنا، فلتنتح إذن عن الكرسي الرسولى الذى اغتصبته، لتدع غيرك يعلى عرش القديس بطرس، فلن يمارس العنف تحت رداء الدين، بل سوف يعلم العقيدة الحقبة للقديس بطرس. أنا هنرى .. الملك بإرادة الرب أقول لك، ومعى كل أساقفتى: تتح .. تتح .. وتكن ملعونا على مر الدهور"^(٦٩).

وتلقف جريجورى السابع الكرة بدوره، وكتب رسالة وجهها إلى القديس بطرس^(٧٠)، أبلغه فيها أنه بناءً على السلطة المخولة له منه، فقد حرم هنرى الرابع من رحمة الكنيسة، ووضعه تحت قيود اللعنة، وجرده من مملكته فى ألمانيا

(68) HENRY IV, The deposition of Gregory VII. 1076

(٦٩) نفس المرجع السابق.

(٧٠) جاء فى المراسيم البابوية، "إذا ما تم رسم بابا على نحو شرعى، فإنه يغدو دون ريب قديسا .. بركة القديس بطرس. ومن هذا المنطلق وجه البابا رسالته هذه إلى القديس بطرس انظر Dictatus papae

وراجع أيضا p. 1045 Southern, Western Society,

ومساعدته على إيطاليا، وأحل رعاياه من إيمان الولاء التي قدموها أو سوف يقدمونها له، وحرّم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك^(٧١).

هكذا خلع كل من الرجلين صاحبه، وبقيت مرحلة التنفيذ، وتساءل الناس ساعتها، من تراه أقوى باعا وأطول ذراعا؟!

وبنظرة فاحصة على الساحة الدولية كما عرضنا لها منذ قليل كانت البابوية هي الأقوى، لكن العامل الحاسم فى صالحها جاء من داخل ألمانيا نفسها؛ فالنظام السياسى الألمانى القائم على الملكية الانتخابية^(٧٢)، والسمات البارزة لنظام حكم إقطاعى بمفهوم العصور الوسطى، جعل الأمراء الألمان أصحاب الحول والطول فى شئون ألمانيا، ولما كانوا يحملون كل العداء لمليكنهم، فقد انتهزوا الفرصة وأعلنوا عزله، إلى أن يحصل على الغفران. وليس هنا مجال الحديث تفصيلا عن الصراع بين الملك والأمراء^(٧٣)، لكن الذى يعيننا أنه فى سبيل هذا الغفران، سعى هنرى الرابع متجردا من أشعرته الملكية، متوجها لتلقاء روما. ولما كان البابا قد اتخذ سبيله هو الآخر، موليا وجهه شطر ألمانيا، بناء على دعوة الأمراء الألمان، ليقف قاضيا بينهم وبين ملكيهم، فإنه قد آوى إلى تسكانيا عند حليفته ماتيلدا، حالة سماعه بنبا خروج هنرى فى طريقه إلى روما، مخافة أن يكون الملك قد أعد كميناً يتصيد به البابا واحتفى البابا بقلعة كانوسا Canossa فى أعلى جبال تسكانيا. وتقطعت أنفاس هنرى، وتصيب عرقه كأنما يصعد السماء، رغم الشتاء القارص وهو يحاول وزوجته المخلصة، الوصول إلى القلعة وهناك على أبوابها وقف ثلاث ليال سويا، يطرق باب رحمة البابا، الذى كان قلبه كحجارة جبال تسكانيا أو أشد قسوة!! حتى إذا سمح له بالدخول، خر الملك على قدمى البابا

(٧١) راجع قبله.

(٧٢) راجع فى هذا المجال الفصل الرابع.

(٧٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع : Z. Brook, A history of Europe, pp. 177-202

سجدا، ويكيا، يغسلها بدموع التوبة والندامة! وتعطف خليفة بطرس، وزعيم المسيحية الكاثوليكية، وأعلن أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، دون ما تأخر! (٧٤).

هكذا تسنمت البابوية قمة الجبل .. وتدنت الإمبراطورية .. وذهب إذلال كانوسا في التاريخ مثلا (٧٥). وكانت سابقة لم تتدخل عنه البابوية. ولا نسيتهما الإمبراطورية، وراحت البابوية بعدها تدس أنفها وأصابعها كلها في شئون ألمانيا، بل وأوروبا كلها إلى حد بعيد .. وكيف لا وقد جاءت أوروبا طائعة، تلبى نداء الخروج لحمل الصليب، الذي أذاعه البابا الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) مرردة جموعها إنها إرادة الله!!

وأملت البابوية في هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٥)، الذى سعت لرفعه إلى عرش ألمانيا، خيرا كى يصبح فى يدها أداة طيعة، لكن هنرى الخامس لم يكن أقل من أبيه وأسلافه الفرنكونيين والسكسون، حرصا على حقوق السيادة الملكية، فيما يتعلق بمشكلة التقليد العلماني، التى دار من حولها الصراع على النحو الذى رأينا، ومن ثم دارت المفاوضات بينه وبين البابا باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩-١١١٨)، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة (٧٦)، غير أن هذه المفاوضات استمرت حتى عهد البابا كالكستس الثانى Calixtus II (١١١٩-١١٢٤) ليتم الاتفاق بين الطرفين فى معاهدة وورمز Worms سنة ١١٢٢ (٧٧) والتى بمقتضاها تم التوصل إلى حل وسط يرضى الطرفين مؤقتا، وقبل كل منهما اقتسام الرغيف. على أن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها، أن البابوية خرجت من هذا الصراع قوية الجانب مرهوبة السلطان، وعلى الرغم من أنه لا يمكن القول إنها قد نجحت تماما فى فرض برنامجها الإصلاحى، فيما يتعلق بالسيمونية وزواج رجال الدين، إلا أنها

(٧٤) راجع تفاصيل "إذلال كانوسا" فى : GREG. VII, Letter to the German princes 1077

(٧٥) اتخذت الأجيال التالية فى ألمانيا، من حادثة كانوسا رمزا لخضوع الدولة للكنيسة، وأوضح الأمثلة على ذلك ما قاله المستشار الألمانى بسمارك فى القرن التاسع عشر، فى معرض نزاعه مع الكنيسة الكاثوليكية، "أنا لن نذهب إلى كانوسا".

(76) PASCHAL. II, The first and second privileges to Henry V, 1111.

(77) Concordat of Worms, 1122.

خطت فى ذلك السبيل خطوات بعيدة، على حين نجدها أنها قد أفلحت نسيا فى التوصل إلى حل لمشكلة التقليد العلمانى. وإذا كانت البابوية لم تستطع أن تحرر الكنيسة من سلطان الدولة، فإنها من ناحية أخرى قد حققت سيادتها على الكنيسة. على أنه لا يزال هناك أمامها طريق طويل وشاق من أجل تحقيق سموها بصورة فعالة، بعد أن أعلنت الآن بكل الإصرار، ادعاءاتها بالسيادة الزمنية⁽⁷⁸⁾.

ومن هنا كانت اتفاقية وورمز تمثل نهاية مرحلة وبداية طريق .. مرحلة اضطرت فيها البابوية والسلطة الزمنية حول مشكلة التقليد العلمانى، وحققت خلالها ليس بالقليل، بعد إذلالها للإمبراطورية فى كانوسا. حتى إذا كانت الاتفاقية، تخول للصراع وجهة أبعد، ليدور حول السيادة العالمية. لمن تكون؟ للبابا أم للإمبراطور؟

ولم يكن ملوك ألمانيا، الأباطرة، هم الآخرون، خاصة على زمن أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen ، أقل طموحا إلى هذه السيادة من الباباوات، ولم يذهب من مخيلتهم أبدا صورة إذلال كانوسا، ولا غاب عن ذهنهم - رغم ما فى هذا الزعم من مغالطة تاريخية - أنهم خلفاء الأباطرة الرومان، وما ارتبط بهذا الادعاء من مفهوم السيادة العالمية، والسيطرة على البحر المتوسط، البحيرة الرومانية قديما جدا .. وغذى هذا المفهوم لديهم أساتذة وفقهاء فى جامعة بولونيا⁽⁷⁹⁾. كانت خطة الأباطرة لتحقيق ذلك محاولة إخضاع القسطنطينية لسيادتهم، والسيادة على إيطاليا وصقلية. وهذه الأخيرة بالذات كانت تعنى العداء لملوك النورمان، وازدياد حمى الصراع مع البابوية، باعتبار البابا السيد الإقطاعى لهذه المنطقة، منذ توقيع معاهدة 1059، وتجديدها بعد ذلك فى عام 1106.

كانت النقطة الجوهرية تدور حول ما قر فى أذهان أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن بصفة خاصة، من أنهم الورثة الحقيقيون للقيصرة الرومان، وما وعته - أو بتعبير أدق - ما أرادته البابوية ل "مهمة" الإمبراطور، الذى منحه

(78) Thompson & Johnson, op. cit., p. 390

(79) Tout, The Empire and the Papacy, p. 247

البابا التاج منذ ميلاد القرن التاسع، والتي لا تزيد عن كونه مجرد قائد، عمله الأساسي أن يستل سيفه من غمده ليدفع به عن البابوية^(٨٠) غير أن هذا المفهوم كان يتعارض تماما مع ما يراه وما يؤمن به ملوك الهوهنشتاوفن، خاصة فرديريك بربروسا، الذي لم تعد الإمبراطورية بالنسبة له، هي الإمبراطورية المسيحية التي ولدت بيدي خليفة القديس بطرس عام ٨٠٠، تدين بالولاء الكامل للكنيسة البطرسيّة، بل غدت الإمبراطورية في مفهومه، بكل ما تعنيه الكلمة، هي الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوغسطس. من هنا استخدم حقه في حكم العالم، واستمد أقدميته من وجودها قبل المسيح. فكيف يمكن إذن أن تكون متوافقة مع البابوية؟! إنها أقدم منها، مستقلة عنها .. الإمبراطورية ليست داخل الكنيسة، بل هذه داخل تلك، والبابا ليس إلا أحد رعايا الإمبراطور.

وهكذا ما كان شيئا غامضا في خيال أوتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) أصبح نظرية محددة المعالم في فكر فرديريك بربروسا^(٨١). لقد راح يخاطب يوما نبلاء الرومان بقوله : "فلنقلب أذهاننا جيدا في أعمال أباطرة هذا الزمان، واضعين في اعتبارنا بكل العناية، ما أقدم عليه أسلافنا المقدسون، شارل وأوتو، اللذان انتزعا مدينتكم والأراضي الإيطالية من يد اليونان (البيزنطيين)، واللومبارد، وجعلوها ضمن حدود المملكة الفرنجية، ليس هبة من يد أجنبي، بل عنوة وكسبا بانتصاراتهما.. أنا إذن الملك الشرعي^(٨٢)."

بل لقد ذهب الأمر بفرديريك أبعد من ذلك، عندما آمن أنه ليس فقط خليفة شارلمان وأوتو، بل قسطنطين وثيودوسيوس وجوستتيان. وعندما أصدر قرار تنظيم جامعة بولونيا، أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستتيان^(٨٣). ووجد ضالته في القانون للرومان، باعتباره إمبراطورا رومانيا

(٨٠) ناقش W. Ullmann هذه الرسالة باستفاضة وتحليل رائع في كتاب :

A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 185-188

(81) Pirenne, A history of Europe, p. 275

(82) Barraclough, The origins of Modern Germany, pp. 170-171 n. 1.

(83) Davis, Medieval Europe., p.322; Bryce, op. cit. p. 169

ووجد فى الديقستا Digesta الإجابة الفلسفية التى ترد على مراسيم السيادة البابوية، فهى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شئ - لما هو سماوى ولما هو إنسانى .. إنه يجب أن يكون الضابط، والحاكم، والقائد للخير والشر" وتاه عجباً بمركزه الإمبراطورى، بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانو، أن إرادته هى القانون^(٨٤). بكل هذا لم يكن غريباً أن يوصف فردريك برباروسا بأنه هليديبراند الإمبراطورية^(٨٥).

ومن وقع إيمانه بأنه الإمبراطور الرومانى حقاً، دون أن يلقى بالا لأباطرة الرومان الشرعيين فى القسطنطينية، كتب إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هزيمة الأخير أمام سلطان قونية السلجوقى عام ١١٧٦، رسالة تقطر لزرء وسخرية، تتضمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للإمبراطور الرومانى، وانتهاز الفرصة ليعان له أنه وريث الأباطرة للرومان، وأن ذلك يتضمن السيادة على "المملكة اليونانية"^(٨٦) Regnum Greciaie ولما جاء مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة، ولم يلقه الإمبراطور البيزنطى قبولا حسنا، بعث إلى ابنه هنرى السادس رسالة يأمره فيها بتجهيز حملة ضخمة جديدة، هدفها القسطنطينية.

أما بالنسبة لإيطاليا، فقد اقتضاه الأمر القديوم إليها فى ست حملات عسكرية^(٨٧)، استنفذت جهود ألمانيا وطاقاتها وخزانتها وأضعفت بصفة رئيسية سلطة الساج فيها أمام ازدياد نفوذ أمراء الإقطاع^(٨٨) فى الوقت الذى تلاحقت فيه انتصارات البابوية واحدا فى أثر الآخر؛ وفى عام ١١٥٥ كان عليه أن يأخذ بعنان فرس البابا حتى يمنحه هذا قبلة السلام ويعلنه إمبراطورا، ورغم امتعاضه فقد جرت المراسيم بذلك باعتباره مسألة تقليدية^(٨٩). وفى عام ١١٥٦ وجهت إليه

(84) Davis, op. cit., p.325

(85) Tout., op.cit., p. 247

(٨٦) هسى، العالم البيزنطى، ١٩٦

(٨٧) للوقوف على تفاصيل هذه الحملات، راجع :

Strayer & Munro, The Middle Ages, pp. 219-225

(٨٨) انظر الفصل الثالث.

(89) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 189

البابوية صفة قوية عندما وقعت معاهدة أمالفي Amalfi مع النورمان في صقلية، منحتهم بمقتضاها الحقوق التي رفضت الاعتراف بها لملوك ألمانيا، أعنى مسألة التقليد العلماني، في مقابل أن يتسلم ملوك النورمان مملكتهم إقطاعاً من البابوية^(٩٠) وكان هذا يعنى وأد اتفاقية كونستانس^(٩١) Constance التي وقعت بين البابوية والإمبراطورية سنة ١١٥٣، والتي كانت موجهة أصلاً ضد الإمبراطور البيزنطي، وتقضى بعدم التنازل عن أى أرض في إيطاليا، وطرده منها إذا ما حاول القدوم إليها^(٩٢).

وفى العام التالى ١١٥٧ وقف المندوب البابوي فى بيزانسون Besancon يقرأ للإمبراطور رسالة البابا^(٩٣)، والتي ورد ضمنها كلمة Beneficium والتي نقلت إلى فردريك بما يعنى أنه تلقى مملكته "إقطاعاً" من البابا فلما احتج الحضور على ذلك، وكاد المندوب البابوي يفقد حياته، لولا أن تدخل فردريك نفسه فى الوقت المناسب، راح ممثل البابا هذا يتساعل فى جرأة .. ممن يتسلم الإمبراطور إذن إمبراطوريته، إذا لم يتسلمها من البابا؟ وجاء رد فردريك برباروسا على المندوب البابوي فى رسالة شديدة اللهجة^(٩٤)، بعث بها إلى البابا هادريان الرابع Adrian IV (١١٤٥-١١٥٩) جاء فيها: "إن الله، الذى منه يستمد كل سلطان فى السماء وعلى الأرض، قد عهد إلينا بحكم المملكة، وللإمبراطورية اصطفانا، أن سلام الكنيسة تحفظه الجيوش الإمبراطورية. وإنه لمن المؤسف أن نضطر إلى أن نشكو لرأس الكنيسة، طالبين أن يبقى على روح الخيرية والمحبة والسلام؛ ذلك أن أعمال البابا تهدد بإظهار الشرور والشقاق الذى سوف يفسد الكنيسة كلها، ويدمر وحدتها، ويعود إلى الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ما لم يتدخل الله .. لقد تملكنا هذه المملكة والإمبراطورية من الله، عن طريق اختيار

(90) ADRIAN IV & WILLIAM of Sicily, Treaty of Amalfi, 1156

(91) FRED. BARB., Treaty of Constance., 1153

(92) C.M.H. Vol. V, p. 396

(93) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 157

(94) FRED. BARB., Manifesto of Frederick I, 1157

الأمراء، فالله وحده هو الذى من خلال آلام ابنه، وضع العالم تحت رعاية سيفين، وفوق هذا فإن بطرس الرسول قال: "أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة، خافوا الله أكرموا الملك" (رسالة بطرس الأولى ١٧/٢) - ومن ثم فإن من يقول، بأننا قد تلقينا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا، يتحدى القانون الإلهى، ويدعى على بطرس، ولا يعدو أن يكون كذابا".

وكانت رسالة هادريان قد أدت إلى توحيد أمراء ألمانيا خلف ملكهم، وجاء ذلك نتيجة طبيعية للسياسة المرنة التى اتبعها فردريك فى بداية عهده، من التقرب إلى الأمراء، والتودد إلى خصوم الهوهنشتاوفن التقليديين، أعنى عائلة الولفيين. ومن ثم لم يعد الأمر كما كان عليه من قبل زمن هنرى الرابع، الذى أثار حفيظة الأمراء ضده بسياسته العنيفة تجاههم بعد بلوغه سن الرشد مباشرة، خاصة فيما يتعلق بمحاولاته لاسترداد أراضى التاج، التى كان الأمراء أنفسهم قد اغتصبوها وهو تحت الوصاية. لذلك أدرك هادريان الرابع أن سهمه جاء طائشا، وأن الوقت لم يكن ملائما، بالإضافة إلى أن شخصية البابا نفسه، لم تكن لها جوانب شخصية سلفه جريجورى السابع ولا خلفه إسكندر الثالث، الذى لم يكن سوى المنذوب رولان Roland إلى الإمبراطور فى بيزانسون. لهذا كتب هادريان الرابع رسالة ثانية إلى الإمبراطور، تعد فى حد ذاتها اعتذارا رقيقا عما جاء فى رسالته الأولى، وقدم له تفسيراً حول ما يعنيه فى رسالته الأولى، قال: "علمنا أنك غضبت لاستخدام كلمة *beneficium*، غير أننا استخدمنا هذه الكلمة فى معنى يختلف تماما عن مفهومها السائد، بل بما تعنيه فى مفهومها الأساسى، إذ تتكون من مقطعين، *bonum & factum* بمعنى، شئ طيب أو جميل أو معروف (*bonum factum*) ولم نستخدمها على أنها تعنى *fief* (*fief*) إقطاعا. فإذا ما قلنا *beneficium* من الله لا تعنى إقطاعا، بل نعنى عطايا من الله. ولعلك تعلم يقينا أن وضع التاج على رأسك، يجب أن ينظر إليه باعتباره "عملا طيبا"^(٩٥).

(95) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 1158

ومرت الأزمة بسلام .. أو هكذا بدا. لكن فردريك خرج منها باستنتاج له أهميته، إذ أيقن أنه ما دام قد تلقى الإمبراطورية من الله، فلا بد أن تكون لها قداستها، ومن هنا خلع عليها لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة Sacrum imperium فى مقابل الكنيسة المقدسة، Sancta ecclesia^(٩٦). ولا شك أن هذا قد لقى الامتعاظ من جانب البابا الجديد إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) الذى تمثل على الفور فى استنتاج عهده بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور عام ١١٥٩، وأحل رعيته من يمين الولاة له، وجدد ذلك ثانية سنة ١١٦٣ من مهربه فى فرنسا. ولم يكن غريبا أن تلقى سياسة الهوهنشتاوفن الرفض من جانب ملوك أوروبا، وكلما ازداد ضغط وعداء الأباطرة للبابا، كلما وجد هذا عند الملوك الآخرين عونا له^(٩٧)؛ ذلك أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبا القرن الحادى عشر، فالبابوية ازداد سلطانها بسبب زعامتها للعالم المسيحى الغربى فى الحروب الصليبية، وملوك إنجلترا الأنجويين، وفرنسا. والأخرون بالذات لم يكن من السهل عليهم أن يقبلوا الأفكار الهوهنشتاوفنية عن الإمبراطورية "الرومانية" وما يستتبعها من فكرة السيادة العالمية. هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الداخلية فى ألمانيا، وازدياد نفوذ أمراء الإقطاع، وتحالفهم مع البابوية فى كثير من الأحيان ضد السلطة الشرعية فى ألمانيا، كل هذا جعل الصراع بين البابا والإمبراطور يسير فى صالح الأول.

وقد راحت البابوية تضع العراقيل فى وجه الإمبراطور الألمانى، وتثير ضده مدن العصبة اللومباردية فى شمال إيطاليا، وتحرك فى داخل ألمانيا ذاتها كوامن البغضاء والتمرد من جانب الأمراء ضد التاج، ووجدت فرصتها سانحة بين عائلة الولفيين، الأعداء التقليديين للهوهنشتاوفن، ووصلت حبال تأمرها مع هنرى الأسد زعيم البيت الولفى، الذى رفض الالتزام بواجبات الفصل الإقطاعى تجاه سيده، وأبى مشاركة فردريك فى حملته الخامسة إلى إيطاليا عام ١١٧٤، مما أدى

(96) Barraclough, The origins of Modern Germany. P. 170

(97) Pirenne, op. cit. P. 273

إلى هزيمة مروعة فى عام ١١٧٦ عند لينانو Legnano على يد العصبة اللومباردية، وراح ذليلا يطلب الصفح والغفران من البابا الذى أملى شروطه وحقق الآن سيادته كاملة^(٩٨) .. فى البندقية، وفى كنيسة القديس مرقس عام ١١٧٧، جاء الإمبراطور إلى البابا منكس الرأس، تائبًا، خر راکعًا وأناب، وسجلت لوحة السمو البابوى كانوسا جديدة!!

. وتمثل انتصار البابوية وسموها فى مجمع اللاتيران الثالث الذى عقد تحت رئاسة إسكندر الثالث عام ١١٧٩، ووضع لأول مرة فى العصور الوسطى، الأغلبية العديدة فى الصورة، فقد اعتبر الكرادلة جميعا مهما اختلفت درجاتهم ناخبين، لهم حق الإدلاء بصوتهم إذا ما حدث اختلاف حول اختيار البابا الجديد، واشترط أغلبية الثلثين كضرورة لصحة الاختيار، واستبعد الإمبراطور والاكليروس الرومانى والجموع من عملية الانتخاب^(٩٩). ومن ثم عوض هذا القانون النقص الذى كان يعتور قانون اختيار البابا، الصادر عن مجمع روما عام ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثانى، الذى كان يقيم لموافقة الإمبراطور قدرا من الاحترام، وأن لم يكن بصورة عملية^(١٠٠).

غير أن الإمبراطور العجوز الذى قبل كارها، عاد إلى ألمانيا ليصفى حسابيه مع غريمه هنرى الأسد، فلما تم له ما أراد، دخل فى مفاوضات مع ملك صقلية، أسفرت فى النهاية عن زواج ولى العهد الألمانى هنرى السادس، من وريثه عرش النورمان فى صقلية، الأميرة كونستانس^(١٠١)، وكان هذا فى حد ذاته نصرا دبلوماسيا رائعا، حققته الإمبراطورية فى مواجهة الحصار البابوى. وما لبثت البابوية أن لقيت صفة أخرى، أشد وأنكى، بعد ذلك بعام واحد (١١٨٧)، عندما استرد المسلمون تحت زعامة صلاح الدين الأيوبى، بيت المقدس من يد الصليبيين.

(98) Z. Brooke, op. cit. pp. 453-457

(99) ALEX. III., Papal election decree, 1170

(100) NICHOLAS II, Papal election decree, 1059

(101) FRED. BARB., Peace of Constance, 1183

... والواقع أن تلك الزيجة عوضت جميع ما نقى فرديريك من مذلة على أيدي أهبل روما ولمبارديا والبندقية، فضلا عن البابوية، وكيف لا، وقد أصبحت ألمانيا وصقلية بغناها دولة واحدة، وفكى كماشة حول روما والبابوية، مما سيجعل الجالس على عرش ألمانيا، يملئ إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية.

لكن البواعث التي جعلت من اجتماع هذه النعم صورا زاهية الألوان في أعين الهوهنشتاوفن كانت هي بعينها البواعث التي حملت البابوية أخيرا على إبادة تلك الأسرة، حتى إذا بدأ الصراع بينهما مرة أخرى، لم يستطع ذلك الصراع إلا أن يكون طويلا ومريرا.

فقد كان هنري السادس أشد عنفا من أبيه في تطبيق السياسة الهوهنشتاوفنية، فبعد أن توج إمبراطورا بيد البابا كلستين الثالث Celestine (1191-1198) في عيد القيامة، الخامس عشر من إبريل عام 1191، رفض البابا تتويجه ملكا على صقلية، ولم تغلح الجهود التي بذلها هنري في ذلك، أو المفاوضات التي دارت في هذا الشأن، لأن ذلك كان يتعارض معارضة تامة مع السياسة البابوية، ولكن هنري لم يقف عاجزا أمام عناد البابوية، فتوج ملكا على صقلية - رغم أنف البابا - على يد رئيس أساقفة مسينا Messina في ليلة عيد الميلاد لعام 1194، أعنى ٢٥ ديسمبر 1193. وفي اليوم التالي ولد له ولده من زوجته النورمانية، فرديريك الثاني، الذي أصبح فيما بعد أعجوبة الدنيا Stupor Mundi وفي الدايت الذي عقد في فيرتزبرج Wurzburg سنة 1196، وافق الأمراء الألمان على اقتراح هنري السادس بتتويج ابنه فرديريك ملكا، وله من العمر عامان. وكان هذا يعنى أن ملك الرومان rex Romanorum من وجهة النظر الألمانية، كان له حق ممارسة سيادته تلقائيا على الأقاليم الإيطالية، حتى قبل أن يتوج إمبراطورا بيد البابا^(١٠٢).

غير أن الموت المفاجئ لهنري السادس عام 1197، قلب خطط الهوهنشتاوفن كلها رأسا على عقب، وكانت فرصة العمر التي لن تجد للبابوية لها مثيلا، لتطبيق نظرية السمو بكل ما تعنيه. أما في الداخل فكان يعنى إشارة البدء للخصمين اللادوين،

(102) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 205

الوفيين والهوهنشتاوفن، ليشعلا من جديد نيران الصراع العنيف بينهما، فتجاهل الفريقان مسألة لختيار فردريك الثانى ملكا، ونادوا بملكين جديدين متناقسين، أوتو الرابع Otto IV دوق برنسويك Brunswick ابن هنرى الأسد، للوفى وفيليب السولى Philip of Swabia، أخ الملك الراحل، الهوهنشتاوفنى. بينما جاهدت كونستانس للاحتفاظ بصقلية لابنها الطفل. غير أنها لم تثبت أن ماتت فى نوفمبر ١١٩٨، وتركت طفلها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت Innocent III، الذى أصبح بمقتضى هذه الوصية والوصاية، للسيد الإقطاعى للمملكة للصقلية فى الجنوب، والذى وجد فى الحرب الأهلية الألمانية سعادته وسمو البابوية، فراح ينفخ فيها من روحه، ليزيدها ضراما، وأهمل شأن الطفل الذى ترك لينمو دون رعاية، شأن أى غلام يتخبط فى شوارع بالرمو وأسواقها العامة.

وإذا كان هناك سبب رئيسى يعزى إليه استمرار الحرب الأهلية هذه، قرابة ثمانية عشر عاما (١١٩٨-١٢١٤)، فهو أنوسنت الثالث، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما بدأ فيه فى القرن الحادى عشر جريجورى السابع، أعنى ترجمة الأيديولوجية البابوية عن سمو، إلى حقيقة واقعة. فخلال عهده أوضحت البابوية بؤرة السياسة الدولية فى أوروبا، وخارجها، لقد عهد الآن بإدارة حكومة المجتمع المسيحى لواحد من أكفأ خلفاء القديس بطرس وأكثرهم اقتدارا، والذى استخدم سلطانه الموروث باعتباره "نائب المسيح" على الأرض^(١٠٣).

وهذا المصطلح الأخير يعد يقظة الارتكاز الرئيسية فى الأيديولوجية البابوية خلال هذه المرحلة. ففي القرون الأولى كان المصطلح الشائع عن البابا - كما علمنا - والذى خلعه البابوات على أنفسهم، هو "نائب بطرس" Vicarius Petri، لكن هذا المصطلح بدأ يختفى تدريجيا مع ازدياد السلطة البابوية، ليحل محله لقب آخر، يواجه "قداسة" الإمبراطورية الرومانية، التى خلعها فردريك برباروسا على إمبراطوريته، ويعبر عن سمو السلطة البابوية وفعالية تأثيرها، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر فأصبح البابا "نائب المسيح" Vicarius Christi.

(103) Kantorowicz., Frederick the Socend., pp. 39-40.

وكان أنوسنت الثالث خير من يعبر عن هذه المرحلة الجديدة من مراحل السمور، فقد كتب يقول: "نحن خلفاء أمير الرسل إلينا ولستنا نوابا عنه، بل ولستنا نوابا لأحد من بنى البشر .. حتى الرسل .. ولكننا نواب يسوع المسيح نفسه"^(١٠٤) وخاطب مندوبى فيليب السوابى الذين جاءوه عام ١١٩٩ أو ١٢٠٠ بقوله، تعبيراً عن فكره "أن ملكى صادق Melchisedech باعتباره ملكاً لأورشليم، وكاهناً أعلى، إنما كان يمثل الكهانة فى علاقتها بالعالم، وتفقو السلطة الروحية على الزمنية Praeinentiam quam Sacerdotium habet ad rgenum لأن الاثنتين كانتا متحدتين فى شخص الملك الكاهن. وكان ملكى صادق هو للشخصية التى استخدمها فى أولى رسائله إلى الأمراء الألمان الكليروس والعلمانيين حوالى الثالث من مايو عام ١١٩٨، ليوضح سمو المسيح باعتباره ملك الملوك وسيد السادات"^(١٠٥). لقد كان الكاهن الملكى الأعلى للكنيسة المسيحية، والإمبراطورية الحق Verus Imperator للإمبراطورية المسيحية، والقاضى الأول فى عالم المسيحية، الثلاثة فى واحد، والواحد هنا هو البابا"^(١٠٦).

وفى رسالة بعث بها إلى رئيس أساقفة رافنا فى عام ١١٩٨، قال: "الحرية الكنسية لا يمكن أن ترعى إلا إذا تملك الكنيسة الرومانية السيادة الكاملة على الشئون الزمنية والروحية على السواء"^(١٠٧). وكتب إلى ملك أرمينيا سنة ١١٩٩ يقول: ".يجب أن تكون بمجامع قلبك وبقيا للكرسى الرسولى، وأن تلجأ إلى عون الكنيسة الرومانية، ليس فقط فى الأمور الروحية، بل فى المسائل الدنيوية"^(١٠٨).

ويدون أنوسنت الثالث فكره عن سمو البابوى فى عبارات صريحة، بعث بها إلى حاكم تسكانيا ونبلائها، فى أول سنى اعتلائه عرش البابوية، جاء فيها: "حيث أن مبدع الكون قد حباه فى القبة الزرقاء بمصدرين أحدهما للضياء والآخر

(104) Souyhrtn, op. cit. pp. 104-105

Kantorowicz, op. cit., p. 40

(١٠٥) انظر

(106) Ibid., pp. 40-41

(107) INNOCENT III, Letter to the Archbishop of Ravenna.

(108) INNOCENT III, Letter to the King of Armenia, 1199.

للنور، الأول للنهار والثاني في الليل - فإنه في سماء الكنيسة الجامعة، وضع مرتبتين .. للعظمى لرعاية الأرواح كالشمس للنهار، والدنيا لرعاية الأجساد كالقمر في الليل .. هاتان هما السيادة الكنسية والسلطة الملكية.

والآن فكما أن القمر يستمد نوره من الشمس، وهو دونها في الحكم والكيفية، في المكانة والسيادة، السلطة الملكية بالمثل تستمد بها مجدها من السيادة الأسقفية⁽¹⁰⁹⁾. وحتى يدعم أيديولوجيته بأسانيد لا تجد تحديا لدى مؤيدي الحق الأمبراطوري في السيادة، لجأ إلى الكتاب المقدس، وراح في إحدى عظاته عن التكريس يقول: لقد قيل لى في شخص النبي: "قد وكلتك على الشعوب وعلى الملك لتفعل وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس" (ارميا ١٠/١) وقيل لى أيضا في شخص الرسول. "وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات"، وهكذا عهد للبعض بشئ من الأمر، بينما خول بطرس السلطة كاملة.. أنا بحق إذن نائب يسوع المسيح، خليفة بطرس، المصطفى من قبل الرب، والقائم بين الله والناس. أدنى من الله .. وأعلى من بنى البشر، يدين ولا يدان!!"⁽¹¹⁰⁾.

ولم تكن فكرة "ملك الرومان" أو مجرد المصطلح نفسه، أو حتى الـ"مهمة" التي أرادت لها البابوية، واردة على الإطلاق في البناء الأساسي للبرنامج البابوي عند أنوسنت، ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد كان هناك فقد بالنسبة له ملك ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا، وليس "ملك الرومان" الذي أصبح من حقه ممارسة سلطة شرعية على الأقاليم الإيطالية، وفوق هذا الادعاء بـ"حق" فى أن يصبح إمبراطورا رومانيا ومن ثم ارتبطت هذه السياسة الخاصة بتحقيق السمو البابوي، بصورة قاطعة بالرفض الأنوسنتى لفكرة "ملك الرومان"⁽¹¹¹⁾. وكان هذا بالطبع يتعارض مع إصرار الهوهنشتاوفن على أن اختيار ملك ألماني، يعطى الحق فى التاج الإمبراطوري باعتباره "ملك الرومان"؛ ولذا كان من الطبيعي أن يرفض أنوسنت الثالث ذلك، وأن يعلن صراحة أن تمام التصديق على المنصب الإمبراطوري،

(109) INNOCENT III, Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscany, 1198.

(110) INNOCENT III, Sermon on the Consecration

(111) Ullmann., A short history of the Papacy, p. 209

مسألة رسولية بحتة. وأن التاريخ يدعم رأيه هذا^(١١٢).

لقد كان دائما يصر على أن يصبح "صانع الأباطرة" فالبابا باعتباره "نائب المسيح"، له وحده الحق في خلق "المدافع" عن العالم المسيحي، الذي لا يعدو كونه مجرد "مساعد" للبابوية في تحقيق أغراضها وأهدافها^(١١٣). وهكذا أضحت كلمة beneficium التي أثارَت ثائرة فردريك برباروسا في بيزانسون عام ١١٥٧، واعتذر عنها هادريان الرابع، حقيقة واقعة على يد أنوسنت الثالث، إذ الأمير عنده يتسلم مملكته كـ "إقطاع" beneficium^(١١٤).

وقد وجدت البابوية لها مؤيدين كثيرين من رجال الفكر، وإن كان معظمهم ينتمى إلى الرهبان المتحمسين لحركة الإصلاح، أو الاكليروسيين المدافعين عن السيادة البابوية، فهذا سوجر Suger (+١١٥٠) رئيس رهبان دير سانت دوني St. Denis، والوزير الفرنسي الأشهر لملكى فرنسا لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧) ولويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، يعلن عن تأييده للسياسة البابوية وسمو سلطانها، برغبته في أن يضع ملوك فرنسا وإنجلترا أنفسهم عند قدمي الحبر الأعظم، ويحث الإمبراطور على التفانى في الخدمة كسائس Strator من أجل أمير الأمراء، يعنى البابا ويشاركه الرأى جون السالزبورى John of Salisbury (+١١٨٠) الأسقف الإنجليزي المتضلع من الثقافة الكلاسيكية فى أصولها اللاتينية، وشريك ورفيق توماس بيكيت Thomas Becket (+١١٧١) رئيس أساقفة كانتربورى Canterbury، فى تحديه ومنفاه، حين يعتبر الأمراء مجرد وزراء للكنيسة، وأن كل قانون لا يحمل طابع القانون السماوى، يصبح خواء لا غنى فيه ولا نفع، وكل نظام علمانى لا يتفق والنظام الكنسى يجب اعتباره شرا مستطير^(١١٥). كما أن توماس بيكيت نفسه يعتبر الملوك أفضالا للكنيسة^(١١٦).

(١١٢) يشير بذلك إلى تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث، وتتويج أوتو الأول على يد يوحنا الثانى عشر.

Ch. Brooke, the structure of Medieval Society, p.60. وأيضا Ullmann, The growth of Papal Government, pp. 28-31 (113)

(114) Kantorowicz, op. cit., p. 44.

(115) Mundy, op. cit., p. 320.

(116) Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 290-303.

وهذا هو بونكامبانو Buncompagno من Signa، الذي كان يعلم أن البابا يحب أن يخاطب ب"أمير الأمراء"، اقترح على رجال القانون أن يجعلوا الالتباسات المقدمة في المجامع الكنسية تأتي ديباجتها على هذا النحو: "إني لأقف بين يدي أب الآباء الذي بال السلطان الكامل على الأرض، خلفا لسمعان بطرس"، أو "إني لأقف بين يديه .. ذلك الذي دانت له أعناق الملوك والأباطرة، الذي يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء"، بل إن أعداء البابوات أنفسهم، قبلوا عظمتهم، فها هو إسكندر الروي Alexander of Roes أحد رجال القانون الشهيرين، والمعروف بولائته للإمبراطورية، يعترف أنه في مجمع ليون Lyons الثاني المنعقد سنة ١٢٧٤، "لم تكن الجموع المسيحية والاكليروس وحدهم عند موطن قدم الحيز الروماني، بل ملوك الدنيا بأسرها، واليهود واليونان والتتار .. سواء يعترفون جميعا أن ملك العالم يتعلق بقوائم عرش الأسقف الروماني"^(١١٧). ويرى بطليموس اللوقى Ptolemy of Lucca تلميذ توماس الأكويني Tnomas Aquinas فيلسوف المسيحية الشهير في القرن الثالث عشر، أن الإمبراطور خادم الكنيسة، وأنه تسلم الإمبراطورية من الكنيسة بمقتضى يمين يشبه يمين الولاة، من أحد أقفال الكنيسة وهو يحصل على إقطاع. وهذا هو السبب الذي يجعل الكنيسة قادرة على عزل الإمبراطور^(١١٨).

لقد كانت البابوية تصر دائما على أنها الوحيدة القادرة على معرفة "قانون الحياة المسيحية"، على اعتبار أن البابا يمتلك قوة "الإبداع" auctoritas التي تمنحه سلطة الربط والحل والتوجيه. والبابا في ممارسته لسلطانه هذا باعتباره حاكما، لا يقف داخل الكنيسة، بل خارجها وفوقها .. وفي هذا الإطار فليس من حق أحد أن يقاضيه^(١١٩).

(117) Mundy, op. cit., p.323

(118) Ibid., p. 324

(119) Ullmann, Law and politics in the Middle Ages. pp.121-123, 141.

ولم تعد الإمبراطورية من يتصدى للرد على الادعاءات البابوية، فقد كتب هوجوشيو Huguccio البيزى يقول: لا أعتقد أن الإمبراطور قد تلقى سيفه الزمنى وبالتالي السلطة الإمبراطورية من البابا وحده، ولكن بالمثل أيضا من اختيار الأمراء والرعية^(١٢٠). وعلى نهجه نهج جون الباريزى John of Paris ليقوض الأسس التى بنى عليها البابا ادعاءه، فيما يتعلق بمسألة "تتويج" الإمبراطور، فذكر أن هذا العمل قد تم أيضا بمساعدة الشعب الرومانى، ذلك لأن الأباطرة تولوا حماية الكنيسة ضد الوثنيين والمارقين، وهذا العمل فى حد ذاته كفيل بأن يفضى الدور الرئيسى على الناس، فهم الذين يصنعون الملوك، ويكونون الجيوش، ويقومون بالإمبراطور^(١٢١) أما كينو من بستويا Cino of Pistoia فيتعجب فى دهشة .. ليس مما ينافى العقل أن تكون الإمبراطورية قد وجدت من الله والناس.. لكن الذى لا شك فيه، أن الإمبراطور قد اختير من قبل الناس، والإمبراطورية دعيت "مقدسة من الله"^(١٢٢).

وقد تبدو المسألة على هذا النحو متكافئة، لكن الأحداث الداخلية فى ألمانيا، وقد أعقبت وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ - كما بينا - هى التى أدت إلى أن تضرب البابوية ضربتها والحديده محماة فى هذه القصة المرضوضة، أعنى ألمانيا. وبفس الأسلوب الذى اتبعه البابا جريجورى السابع فى سبعينات القرن الحادى عشر، عندما ظل يراوغ ثلاث سنوات تباعا (١٠٧٧-١٠٨٠) فى إصدار قراره بأحقية أى من الملكين المتنافسين، هنرى الرابع، الملك الشرعى، والذى عفا عنه البابا منذ أيام قلائل، ورودلف السوابى Rudolph of Swabia الذى اختاره الأمراء ملكا منافسا، اکتوت خلالها ألمانيا بنيران الحرب الأهلية، سار أيضا أنوسنت الثالث، وراح يماطل خمس سنوات (١١٩٧-١٢٠١) فى إصدار قراره بشرعية اختيار أى الملكين، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، أو أوتو الرابع الولى. وأخذ ينفخ فى آتون الصراع لتعلو ناره. ودفعت ألمانيا الثمن فادحا فى حرب أهلية

(120) Mundy, op. cit., p. 332

(121) Ibid, p. 332

(122) Ibid, p.331

طاحنة، بينما كانت خسارة السلطة الإمبراطورية أكثر فداحة؛ تمثلت في تلك التنازلات المهيمنة التي قدمها المرشح الولفي، أوتو الرابع؛ لأنه لم يكن صاحب الحق الشرعي في العرش. فاعترف باستقلال الدولة البابوية في إيطاليا، وتحرير الكنيسة الألمانية من السيادة الملكية⁽¹²³⁾. وهكذا خسرت الإمبراطورية كل ما جاهد أباطرتها في سبيله قرابة قرنين ونصف من الزمان .. وكانت سعادة البابوية غامرة لانفصال صقلية عن ألمانيا، وفوق هذا وذاك، تربع البابا على عرش السيادة الروحية والزمنية، باعتباره الحكم الفصل والقاضي الأول. وخلال السنوات التالية عمل أنوسنت بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، على تحويل أنظار الاكليروس الألماني تجاه روما ما لم يحدث من قبل أبدا.

وما أن تحقق لانوسنت ما أراد، أصدر على الفور في عام ١٢٠١ وثيقة على جانب كبير من الأهمية، تلخص في وضوح كامل فكرة السمو البابوي بأجلى معانيها، وتجسد بما لا يدع مجالاً للشك، التطبيق العملي لهذه الأيديولوجية البابوية.

جاءت ديباجة الوثيقة على هذا النحو:

"إن عمل البابا للرئيسي، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية، حيث أن الإمبراطورية تعود بأصولها إلى البابوية، ومنها تستمد سلطانها؛ أما أصولها فلأنها نقلت أصلاً من اليونان (البيزنطيين) بواسطة البابوية ولمصلحتها (يعنى تتويج شارلمان) .. ولقد أقدم البابوات على هذا العمل لضمان أقوى للكنيسة. وأما سلطانها، فلأن الإمبراطور اعتلى العرش بيد البابا الذي باركه وتوجه وعهد إليه بالإمبراطورية"⁽¹²⁴⁾.

ولعلنا نلاحظ أن أول عبارة استهل بها البابا قرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة، "أن عمل البابا للرئيسي، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية" وكلمة "الرئيسي" بصفة خاصة تحدد مهمة البابا في القرن الثالث عشر .. إذ غدا سيد

(123) Thompson & Johnson, op. cit. p.413

(124) INNOCENT III, Decision of Innocent III in nregard to the disputed election, 1201

العالم الزمنى الإمبراطور الأوحده والكاهن الملكى الأعلى، والقاضى الأول والديباجة مليئة بالمغالطات وتزييف الحقائق، فالبابوية تعتبر شارلمان ابتداء الإمبراطورية الرومانية التى صنعتها بيديها. على الرغم من أن الملك الفرنجى توج إمبراطورا فى إمبراطورية رومانية قائمة ووضع فى الترتيب "البابوى" خليفة لقسطنطين السادس بعد اعتبار العرش شاغرا لوجود ايرين عليه وهو ما لم يسبق بسنه التقليد الرومانى هذا مع العلم أن للكنيسة شأن أصيلا فى أحضان الإمبراطورية الرومانية، وعلى غرار تنظيمها الإدارى وضمنت الكنيسة نظمها ورغم كل ذلك لم يسترد المتحمسون للسوم البابوى فى أن يتخذوا من هذه الوثيقة مصدر إلهام لكتاباتهم ونشر آراء البابوية عن السيادة العالمية، ومكانة البابا المتميزة روحيا وزمنا فقد كتب ألبرت Albert Beham رئيس شامسة Passau فى عام ١٢٤٠ يقول : "ليس بمقدور البابوات أن ينقلوا الإمبراطورية ثانية إلى الفرنسيين أو النورمان، إذا كان الألمان عاجزين عن أن يجدوا بينهم من يحمى الكنيسة بصورة فعالة".

وعلى الرغم من أن انوسنت الثالث اعترف فى قراره هذا، بأحقية كل من فيرنريك الثانى أولا، ثم فيليب السوابى ثانيا فى العرش، واعترف بعدم أحقية أوتو الرابع الالوفى، وكراهية الأبرار الألمان له، إلا أنه أعلنه ملكا ووقف إلى جواره، متجديا شعور الألمان بحق الناخبين، ومفضلا الشرعية والصلاحيه، التى وضعها فى يد اية وثيقته هذه معيارا للاختيار، ليؤكد سلطان البابوية على الدنيا وبهذا الاختيار وقف البابا ضد الهوهنشتوفن، لعدة أسباب ..

أولها: أنه ليس هناك بابا - يحمل المودة لهذه العائلة، وثانيها أن الإمبراطور الهوهنشتوفن يمثل الخطر الدايم للبابوية، بينما الالوفيون لا ضير منهم، خاصة وأنهم ليس لهم أتباع كثيرون فى ألمانيا، ومن ثم يمكن أن يصبحوا أداة طيعة فى يد البابوية التى أعطتهم عرشا لا يستحقونه، فيصبح إمبراطور الالوفى بذلك صنيعة البابا ويضحى البابا "صانع الأباطرة".

(١٢٥) Mundy, op. cit. p. 322. وقد ناقشنا هذه الوثيقة البابوية تفصيلا فى الفصل الرابع.

ومع التأييد الكبير من البابوية لأوتو، إلا أن قضيته أمست خاسرة، وبعين المصلحة أبصر انوسنت ذلك، فراح يغري فيليب السوابي على تقديم تنازلات جديدة تفوق ما أقدمه خصمه ومنافسه أوتو الرابع من قبل، فأقدم فيليب على ذلك فى وثيقة رسمية عام ١٢٠٣ تعهد فيها بحمل الصليب إلى الأراضى المقدسة، وإعادة كل الأراضى التى ضمها أسلافه أو هو ثانية إلى الكنيسة، وعدم التدخل فى اختيار رجال الاكليروس، بما يعنى القضاء على مشكلة التقليد العلمانى تماما، والإذعان للبابا فى المسائل الروحية، على أن أغرب ما فى هذه التعهدات، السعى لإسقاط القسطنطينية واخضاع كنيستها للكنيسة الرومانية^(١٢٦). ولعل هذه النقطة الأخيرة بالذات تضع أمام أعيننا أبعاد السمو البابوي نظرية وتطبيقا، وهو ما تحقق لانوسنت فى العام التالى مباشرة وإن لم تكن على يد فيليب السوابي.

هكذا تحققت البابوية أو كادت طموحاتها وحسمت القضية لصالحها، وخسرت الإمبراطورية كل شئ ورغم أن الصراع استمر عنيقا طيلة نصف قرن آت، إلا أن نظرية السمو البابوي أصبحت واقعا عمليا لا مراء فيه؛ ذلك أن فيليب السوابي لم يلبث أن اغتيل عام ١٢٠٨ ولم يجد البابا غضاضة فى أن يدعم موقف أوتو الرابع ثانية^{١١} فالمسألة أمست لعبة سياسية تحركها البابوية بأطراف أصابعها، وتتيه بعروضها إعجابا بمجامع قلبها^{١١} فطوال ست سنوات آتية، أدرك الملك الولى بعد فوات الأوان - أن كوارث الحرب الأهلية الطاحنة هذه والتى جأقت بألمانيا تعود فى جذتها إلى التدخل البابوي فى السفر، فانقلب على الفور هونشتاوفنيا فى سياسته ولم يكن من الصعب على البابوية أن تتكرر له من جديد، وأن يبدو لعينها وإضحائها الآن، فردريك الثانى ذلك الطفل الذى ظل ستة عشر عاما نسيا منسيا، والذى غدا الآن فى باكورة شبابه فناداه إنوسنت من روما وأعلنه ملكا على ألمانيا عام ١٢١٢، وأيده بجيوشه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣) لينتصر على التحالف الولى الإنجليزى فى موقعه بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ والتى تعد من أشهر المعارك فى التاريخ، إذ غدت فرنسا فى أعقابها أقوى دولة فى أوروبا ولتبيت البابوية صاحبة السيادة على الجميع.

(126) PHILIP of SWBIA, concessions of Philip of Swabia to Innocent III, 1203

هكذا .. فى عام ١٢١٤ اعطى فرديريك الثانى عرش ألمانيا ملكا فردا، بعد أن قدم للبابا، إنوسنت الثالث، الذى تذكر بعد طول غياب، أنه الوصى على الأمير فرديريك، تنازلات جمعت فى جوهرها كل ما قدمه أوتو الرابع وفيليب السوابى من قبل، بالإضافة إلى تنازله رسميا عن حكم صقلية، أو بتعبير آخر التعهد بعدم الجمع بين ألمانيا وصقلية تحت سيادة ملك واحد^(١٢٧).

على هذا النحو تسنمت البابوية فى عهد إنوسنت الثالث، عرش السموى، ولم يكن ما فعله بونيفاس الثامن Boniface VIII من بعد فى القرن الرابع عشر، إلا تدعيما لما أرسى القواعد منه سلفه إنوسنت هذا وكيف لا، وقد تربع إنوسنت على عرش السيادة المطلقة، فالقسطنطينية أمست عند قدميه، بعد أن فض حصانتها للمرة الأولى منذ بناها قسطنطين جنود الصليب فى الحملة الرابعة، وصليبية أخرى تحقق فوزا ضخما على الموحدين فى الأندلس عام ١٢١٢، والملك الألمانى الجديد يبدى الطاعة، وإن كان ممتعضا وقرارات الحرمان من تحت كرسى "تائب المسيح" تترى فوق رأسى ملكى فرنسا وإنجلترا، إذ هو يجبر فيليب أوغسطس على أن يرتضى زوجة معينة، ويكره جون الإنجليزى على تعيين أسقف بعينه وها هو يرغم ألفونسو Alfonso صاحب ليون على أن يفسخ زواجه من ابنة عمه، ويلعب دورا بارزا فى حسم مسألة الصراع على العرش الهنغارى، ويصبح ملوك إنجلترا وأرغونة والبرتغال تحت السيادة البابوية، بينما أمست صقلية إقطاعا بابويا ويبدى نصائحه لحكام بوهيميا وبولندا والدانمرك؛ ويتدخل فى كل المشكلات السياسية الكبرى فى أوروبا، ويغرق الكنيسة فى الشؤون السياسية لأوروبا إلى الحد الذى يصبح ذلك "عمله الرئيسى" وهو المسئول عن اختيار الأباطرة وإقرار سيادة الدولة البابوية!!

ولكى يغدو التطبيق أكثر عملية، بقيت هناك صفحة أخيرة، كان على البابوية أن تطويها، لتودع الإمبراطورية كارهة إلى مئواها الأخير؛ ذلك أن فرديريك الثانى

(127) FREDERICK II, Promise to Innocent III, 1213 وأيضاً Promise to resign Sicily, 1216

الذى توج إمبراطورا عام ١٢٢٠ لم يكن أقل حرصا من أسلافه الهوهنشتاوفن على فكرة السيادة الإمبراطورية وإن كان قد قبل مرغما شروط البابوية وصولا إلى عرش آبائه، فراح يسعى لبناء دولة قوية^(١٢٨)، وينقض كل ما عده انتقاصا لمكانة الإمبراطور وسلطان التاج تجاه البابوية، فأصدر البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) فى أول عهده بالبابوية قرار الحرمان ضد فردريك الثانى فى التاسع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧، بحجة مماطلته فى الخروج بحملة صليبية، كان قد تعهد بها من قبل عند تتويجه إمبراطورا وأحل رعيته من يمين الولاء له. ورغم أن الملك فى العام التالى بالحملة إلى الشرق، وحقق خلالها بالاتفاق مع سلطان مصر، الملك الكامل الأيوبي، ما فشل فيه قواد الحملة الثالثة، جده فردريك الأول، و فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا، إلا أن البابوية لم ترض عنه، واتهمته بالإلحاد وانتهزت فرصة غيابه فى الأراضى المقدسة، لتشجيع بين الناس نبأ وفاته، ولتدفع بجيوشها للاستيلاء على أملاكه فى إيطاليا فلما عاد فردريك من الشرق، طرد على الفور القوات البابوية، ثم دارت المفاوضات بين الطرفين، لتنتهى بمعاهدة سان جرمانو عام ١٢٣٠، على أساس إلغاء قرار الحرمان، فى مقابل وضع بعض القيود على سيادته على كنيسة صقلية^(١٢٩).

غير أن هذه المعاهدة لم يكتب لها البقاء طويلا وكل ما يمكن قوله بشأنها، أنها كانت فرصة للطرفين لالتقاط الأنفاس، ولأن جوهر القضية أعنى السيادة العالمية، هو الذى كان يعنى البابوية فى المقام الأول، والذى لم تبغ عنه حولا. ولذا فقد سمرت نيران الحرب بينهما ثانية، وأمر البابا جريجورى التاسع بعض رجال اكليروسه، بتدبير مجموعة من الاتهامات ضد فردريك ففعلوا. وتناولها فردريك بالرد والتفنيد^(١٣٠). ولم يقتنع البابا بذلك .. ولم يقتنع

(١٢٨) للمزيد من التفاصيل عن جهود فردريك الثانى فى هذا السبيل، راجع:

Kantorowicz, Frederick the second., pp.77-163; 215-368

(129) TREATY OF SAN GERMANO 1230.

(130) GREG IX & FRED. II, Papal Charges and Imperial defence, 1238.

الإمبراطور أيضا بقبول فكرة البابوية عن الإمبراطور، باعتباره مجرد "مساعد" لها فغزا على الفور شمالي إيطاليا، وأوقع بالمدن اللومباردية والفيالق البابوية المرتزقة، هزيمة عند كورتونوفو Cortenuovo عام ١٢٣٧، وأن لم تكن ساحقة^(١٣١) إلا أنه تاه عجا بانتصاره، وباعتباره إمبراطورا رومانيا منتضرا، فقد أرسل بالأسرى من أعدائه وأعلامهم وأبواقهم، كأسلاب للحرب، إلى الرومان وأعلن في الوقت نفسه عن مشروعات تعد بعيدة المنال، ظن أنه يستطيع بها استثارة ولاء الرومان له وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان الأقدمين، وبعث الحياة من جديد في رومولوس Romulus مؤسس روما واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان، حتى يعيدوا لها بهاءها المندثر^(١٣٢). ولما كان هذا يعد شيئا مخيفا للبابوية ومفزعاً، فقد أصدرت من جديد عام ١٢٣٩ قرار الحرمان ضد الإمبراطور^(١٣٣)، خاصة وأن فردريك قد عمد إلى إغاطة البابا، فزوج ابنه انزيو Enzo من وريثة عرش سردينيا، وأعلنه ملكاً عليها مقتنياً في ذلك أثر جده فردريك الأول، عندما زوج ابنه هنري السادس من وريثة عرش النورمان في صقلية. ومن ثم لم يقف الأمر عند حد الحرمان الكنسي، بل تخطاه إلى قيام جريجوري التاسع الذي كان يؤمن إيماناً كاملاً بأن البابا يجب أن يكون حاكماً أوتوقراطياً^(١٣٤)، بالدعوة لعقد مجمع كنسي في روما عام ١٢٤١ لعزل فردريك غير أن بيزا، حليفة الإمبراطور، دفعت بأسطولها لتصيد الأساقفة الوافدين إلى روما، مما أدى إلى غرق بعضهم وأسر بعض ثان، وجال دون انعقاد المجمع، بينما نجح الإمبراطور في فرض سلطانه على إيطاليا، فزهقت روح جريجوري التاسع كمداء، في الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٢٤١.

(131) Kantorowicz, op. cit., 435-438.

(132) Thompson & Johnson, Op. Cit., p. 423

(133) GREG, IX Excommunication of Frederick II, 1239

(134) Ch. Brooke, The Structure of Medieval Society, p.6

إلا أن هذه الخطوة من جانب فردريك الثاني، كانت خطأ فادحا، إذ نقلت العداوة الشخصية ما بينه والبابوية، إلى عداوة الإمبراطور مع الكنيسة بصفة عامة، بالإضافة إلى أنه فقد عطف ملوك أوروبا الذين رأوا في الاعتداء على أساقفتهم، عدوانا موجها لأشخاصهم، وجعل من السهل على البابوية تعبئة الرأي العام الأوروبي ضد الإمبراطور⁽¹³⁵⁾. خاصة وأن البابا الجديد، إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)⁽¹³⁶⁾ كان مصمما على أن يكون كسبيته الثالث، وعلى تطبيق نظرية السمو البابوي بكل معاييرها، باعتبار الإمبراطور "مدافعا" عن البابا فحسب، تسلم الإمبراطورية من يده، وهي نفس آراء سلفه (الأسبق) إنوسنت الثالث⁽¹³⁷⁾.

ومن الطريف أن إنوسنت الرابع كان صديقا للإمبراطور فردريك الثاني، قبل أن يحتل كرسي القديس بطرس ولهذا أصيب الإمبراطور بخيبة أمل بالغة بسلوك صديقه القديم، الذي كان يحبل بين ضلوعه قلبا من تلج! ويتصرف بتجاهل تام لكل الأداب ومظاهر اللياقة الروحية التي تتفق ومقتضيه⁽¹³⁸⁾.

وقد سخر كل موارد الكنيسة، وكل مهارة أوتيتها ليحطم الإمبراطورية فخر إلى فرنسا، وعقد مجمعا في ليون عام ١٢٤٥، فزح حرمنا وعزل فردريك الثاني، ودعوة الناخبين الألمان لاختيار ملك جديد⁽¹³⁹⁾. فحقق بذلك أمل البابا الزاحل جريجوري التاسع واستخدم في قرار العزل سلطة نائب المسيح وليس نائب بطرس كما كان جريجوري السابع وأطلق إنوسنت الرابع فتويته وجموع الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، للعمل ضد الإمبراطور، وأعلنت صراحة حربا صليبية ضد أسرة الهوهنتاوفن على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان⁽¹⁴⁰⁾.

(135) Strayer & Munro, op. cit., p. 333.

(136) بعد وفاة جريجوري التاسع، تم اختيار البابا كلستين الرابع Celestine IV في ٢٥ أكتوبر ١٢٤١ لكنه لم يلبث أن مات بعد سبعة عشر يوما وظل كرسي البابوية شاغرا طيلة عامين، حتى اعتلاء إنوسنت الرابع.

(137) Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 153-156

(138) Thompson & Johnson, op. cit., p. 427

(139) INNOCENT IV., The Second deposition of Frederick II.

(140) Heer, The Medieval World, p. 141.

هكذا قاد البابا بنفسه الحرب ضد الإمبراطور والتي أصبحت دون شك حرباً أيديولوجية في المقام الأول^(١٤١) وراح يمارس استراتيجيات البابوية القديمة بتعيين ملك آخر، رغم أن فردريك لم يلجأ مطلقاً لاختيار بابا منافس، فقام إنوسنت بدفع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنري أمير ثورنجيا، ليقبل تلقى التاج الألماني من يد شرذمة من الأمراء وانتشر مندوبو البابا في كل مكان ليشتروا أصوات النصر لهنري هذا ضد كونراد ابن فردريك، ودفعوا في سبيل ذلك ستة آلاف مارك وينيف حتى إذا مات هنري، اختار ملكاً آخر، هو وليم كونت هولندا، بينما تعرض الاكليروس الألماني الموالي للإمبراطور، للقهر والحرمان الكنسي واللعنة من جانب البابا، للتخلي عن مناصرة الإمبراطور، الذي دبرت مؤامرة لاغتياله في إيطاليا^(١٤٢).

وفي عام ١٢٥٠ أنقذ الموت فردريك من الاغتيال!! فتتفتت البابوية الصاعدة إذ تحقق حلمها الكامل بموت خصمها العنيد، وبانقسام الإمبراطورية بين ولديه، كونراد في ألمانيا، لمدة أربع سنوات فقط، ومانفرد الابن غير الشرعي، في صقلية وأيقنت البابوية أن فرصتها لتحطيم الهوهنشتاوفن والإمبراطورية، مواتية ورغم أن إنوسنت الرابع كان متردداً بين أن يبقى على مملكة صقلية تحت السيادة المباشرة للبابوية، أو تعيين حاكم زمني من قبله عليها يكون فصلاً إقطاعياً له، إلا أن غزو كونراد الرابع للأراضي الإيطالية عام ١٢٥٢ حسم هذا التردد فبدأ البابا مفاوضاته لاختيار حاكم زمني وراح يفاضل بين شارل كونت أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، واثنين من العائلة المالكة في إنجلترا.. ريتشارد أمير كورنوال Richard of Cornwall أخى هنري الثالث الملك وأدموند Edmund ابن الأخير، وظلت المفاوضات دائرة حتى سنة ١٢٥٤ عندما توفي كونراد الرابع^(١٤٣).

(141) Ullmann, A short history of the Papacy, p.261.

(١٤٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع:

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 427-428

(143) Waley, Later Medieval Europe, pp. 35-36.

وقد حاول إنوسنت الرابع التوصل إلى اتفاق مع مانفرد Manfred، لكن دون جدوى ولم تلبث القوات البابوية أن لقيت الهزيمة على يد قوات مانفرد الذي أعلن نفسه حاكما لمملكة صقلية، وتلقى البابا خبر الهزيمة وهو على فراش الموت فى ديسمبر ١٢٥٤ واستفتح خلفه إسكندر الأكبر (١٢٥٤-١٢٦١) عهده بهزيمة أيضا فى أبوليا Apulia صيف ١٢٥٥، ليصبح مانفرد صاحب الشخصية القوية فى الجنوب، وليتوج فى بالرمو عام ١٢٥٨ وفى عام ١٢٦١ وصل خليفته الفرنسى أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المفاوضات التى كانت قد انقطعت بين سلفه الأسبق، وأمراء أوروبا لحكم مملكة صقلية، وتوصل إلى اتفاق مع شارل كونت أنجو، يدفع الأخير للبابا بمقتضاه خمسين ألف مارك فور غزو المملكة وجزية إقطاعية سنوية مقدارها عشرة آلاف أونصة Ounces ذهبية^(١٤٤) ونجح الأمير الفرنسى الطموح فى هزيمة مانفرد وقتله عند بنفنتو Benvento عام ١٢٦٦.

لم يبق من أسرة الهوهنشتاوفن إلا صبي فى الخامسة عشرة من عمره هو كونرادينو Conradino ابن كونراد الرابع، الذى أقدم بناء على نصائح مستشاريه على غزو إيطاليا عام ١٢٦٧ ليحكم عرش أجداده ومن الغريب أن روما رحبت به كراهية فى البابا الفرنسى كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨) الذى كان أشد ولاء لفرنسيته من عرشه الأسقى^(١٤٥) وفر البابا إلى فيتربو Viterbo لكن الجيش الإمبراطورى لقي هزيمة ثانية على يد القوات الفرنسية، ووقع كونرادينو أسيرا وحتى يتم التأكد من القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن خصم البابوية للددود تم اقتياد هذا الأسير إلى نابلى، حيث احتزرت رأسه عام ١٢٦٨ تحت سمع البابوية وبصرها!

هكذا أسدل ستار أسود كثيف .. كقطع الليل البهيم، على إمبراطورية قبرت بيد البابوية، بينما لبث البوابات ثلاثة مائة سنين وازدادوا سقا، منذ توج أوتو الأول

(144) Ibid. p.38.

(145) Ibid., p.37.

عام ٩٦٢، حتى ارتحل كونرادينو عن الدنيا كارهاً سنة ١٢٦٨، يصعدون إلى قمة السمو البابوي، ولا هم لهم طوالها إلا ممارسة لعبة السياسة، كما لو كانوا من بنيتها، تاركين وراء ظهورهم مهمتهم الروحية، بعد أن أصبح "عملهم الرئيسي" - كما عبر عنه إنوسنت الثالث، رعاية الإمبراطورية! حتى إذا أدركوا قمة الجبل على أشلاء ضحاياهم من الأباطرة والمثمل، تربعوا على امتداد ثلاثة قرون آتية، كمنت فيها الأفواه، وصفدت عقول المفكرين، وسبق كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو وغيرهم من العلماء، إلى العذاب زمراً، مما دفع العلماء الإنسابيين في القرن السادس عشر، إلى أن يلصقوا بهذه القرون صفة العصور المظلمة. وامتهنت عقول الناس، امتلأت جيوب الكنيسة ببيع الغفران في صكوك! حتى أن ادوارد الثالث ملك إنجلترا، لفت نظر البابا كلمنت السادس بقوله: "إن خليفة الحواريين قد وكل إليه أن يرعى خراف الرب لا أن يجز صوفها!".

ورفع الأسقف الأسباني الفارو بلايو عقيرته ساخطاً: "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحي!!"

لقد حققت البابوية الآن سموها وسيادتها بصورة تكاد تكون كاملة، إلى الحد الذي دفع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) إلى مخاطبة فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) بقوله: "اسمع أي بني إلى وصايا أبيك .. ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذي يحتل على الأرض مكان الرب .. الذي هو وحده السيد والرب!! ولم لا.. وقد خلت الساحة من منافس سياسي، بعد أن تحطمت الإمبراطورية على يد البابوات وإنه لمن سخرية الأقدار حقاً، أن يكون الأباطرة الألمان، الذين جعلوا الإصلاح الكنسي حقيقة واقعة، هم أكثر الناس خسراناً من هذا الإصلاح لقد كانوا بحق كمن يحفرون قبورهم بأيديهم!!"

الفصل الثامن

الفكر البابوي الصليبي

ماذا لو قلنا مباشرة ودون أية مقدمات، إن البابوية كانت السبب الرئيسي في فشل كثير من الحملات الصليبية؟! بل ما الذي سيكون عليه الأمر لو ذهبنا إلى حد القول إن البابوية سعت بكل ما وسعها الجهد إلى أن يكون الإخفاق حليف هذا العدد من تلك الحملات؟!

ولكن ماذا لو كنا أكثر دقة وأشدّ تشييتا وقررنا من البداية دون تردد أن البابوية وقفت موقف المناوئ للحملات الصليبية مذ تحولت قيادة الحركة من يد الأمراء إلى يد الملوك، ولما كان هذا للتحويل قد حدث مع الحملة الثانية حتى السابعة - مع استثناء الرابعة، فإن هذا يعنى أن المناوأة بدأت مبكرا منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى آخر سنى النصف الأول من القرن لثالث عشر. ولم يكن هذا الموقف البابوي للعدائى تجاه حملات الملوك، جامدا بلا حراك، بل كان ديناميكيًا مؤثرا إلى حد بعيد جدا، استخدم فيه الحبر الرومانى كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وكانت الأخيرة هي الغالبة، للقضاء على أى أمل فى النجاح قد يداعب ملكا من ملوك أوروبا، وحمل الصليب وخرج متجها إلى الشرق!!

وقد تكون الحملة السابعة - مع التحفظ - هي الاستثناء الوحيد فى العداء البابوي تجاه حملات الملوك؛ ذلك أن لويس التاسع كان عند البابوية قديسا، خرج وفاء لنذر نذره، وإيمانا بكفرة "الحرب المقدسة" ضد أعداء المسيح، وهي اللافتة العريضة التى علقها البابوية، وفعلت تحت ظلها الأفاعيل ضد المسلمين فى الشرق، بل والمسيحيين فى الغرب وللذين كانت عذاباتهم بيد راعيهم، خليفة بطرس ثم نائب المسيح على الأرض، أشد وأنكى!!

وحتى لا يكون حديثنا هذا ضرباً من ضروب التتظير، أو دربا من دروب للجدل العقيم ومثاهاته، فمن الأجدى أن نرتد على آثارنا قصصاً، لنجلو حقيقة الأمر، ونناقش الوقائع من مظانها الأصلية، ونرى إلى أى مدى تصدق هذه المقدمات.

ففى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات المجمع الذى شهدته المدينة على امتداد تسعة أيام سلفت، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة للجميع حاضرهم وغائبهم، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم هناك من ويلات العذاب التى يتعرضون لها - بزعمه - واستخلاص القبر المقدس من الانتهاكات التى لحقت به - فى تصوره - على يد المسلمين قال: "يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم من خلال أعمالكم الكثيرة، يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكية والشرف الذى أوليتموه للكنيسة .. إليكم نتوجه بخطابنا نستحثكم، ولتعلموا أن دافعاً محزناً جاء بنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين"^(١).

ويدخل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والاضطهادات الوحشية التى يتعرض لها - على حد قوله - المسيحيون الشرقيون، فى أسلوب يمس شغاف قلوب سامعيه وينزع بهم إلى القتال، ثم يتساءل فجأة وهو يرمى إلى ما وراء تساؤله ببعيد: "على من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص منه، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم، والقدرة على التحدى؟ لتكن قصص أسلافكم العظام حافزاً لكم يحرك أرواحكم صوب القوة؛ فما هو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم وقد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البيعة المقدسة داخلها .. أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتتحدرون من صلب

(١) رواية روبرت الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم. الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة بدون تاريخ، ص ٧٧.

آباء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهرا أقل من أسلافكم، وتذكروا على الدوام قوتهم، وإذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم، تذكروا ما يقوله سيدنا في الإنجيل "من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابنه أكثر منى فلا يستحقنى" (متى ٢٧/١٠-٢٨) وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أو زوجه أو أطفال في سبيل اسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة"^(٢).

ثم يعرج إليهم حاملا بلسانه طبقا شهيا يسيل له لعاب السامعين الذين يعانون من وطأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقدان، وأفسد سلام النبلاء بحروب أهلية طاحنة، ومغامرات تنافسية إقطاعية لانهاية لها، فشلت معها كل جهود "هدنة الرب" و"سلام الرب" ويعددهم البابا وعدا حسنا فيقول: "هذى الأرض التى يعيشون عليها يحوطها البحر من كل جانب، وتحفها سلاسل الجبال من كل ناحية، وتضيق بكثرتكم، وتشح بالثروة، ولا تكاد تغل من الطعام ما يكفى الزارعين، ولذا فأنتم تشنون الحروب ضد بعضهم بعضا، وتقتلون أنفسكم بأيديكم. الآن أوقفوا هذه الكراهية، وكفوا عن النزاع، وأطفئوا نيران الحرب بينكم وانطلقوا إلى طريق القبر المقدس لتتقدوا تلك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفوس، ولتكن لكم الأرض خالصة من دونهم، فهى الأرض التى حدثنا عنها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل"^(٣).

ورجع الفضاء الصدى الناجم عن صيحات الجمع المحتشد وهو يصرخ "إنها" إرادة الله" "والله يريدنا" Deus Vult .. Deus Vult وسرت الدعوة مسرى النار فى الهشيم، وكأنما كان يتلهم المجتمع بأسره لسماع مثلها، الأمراء والفرسان والأقدان والزناة والخطاة، واللصوص والسفاكون، والمتهربون من الضرائب، والهاربون من الديون، والفارون من السجون .. المجتمع كله، عليته وحثالته، أو أضلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك انجلترا فى

(٢) نفسه، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) نفسه.

القرن التاسع، ضلعه الذى يصلى .. رجال الاكليروس، وضلعه الذى يحكم الأمراء
العلمانيون، وضلعه الذى يقوم بخدمة هذين الضلعين - الفلاحون الأفنان وتناول
الشعراء للدعوة ففتحوا بها وترنموا:

ألا أيها المحبون العاشقون أفيقوا

ودعوا النوم .. وكفى

فالقبرة المغرمة تردد أن النهار

قد جاء .. وصفا

وتشدو بأن السلام آت قريب

يعطيه الرب واسع للمغفرة .. المجيب

لأولئك الذين فى حبه يحملون الصليب

يعانون الآلام بالحب .. وصبر عجيب⁽⁴⁾.

أما الملوك فقد وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا
واستكبروا استكبارا نيفا وخمسين سنة بعد الدعوة، إلى أن قرروا تلبية النداء بحمل
الصليب وعلى مسؤوليتهم الخاصة، ووضعوا على كواهلهم عبء الحملات القادمة
إلى الشرق ابتداء من الثانية فى أخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر،
حتى السابعة فى منتصف القرن الثالث عشر، باستثناء الحملة الرابعة التى كانت
لها ظروفها الخاصة ونتائجها الخاصة أيضا وهذا الموقف الذى اتخذته ملوك أوروبا
آنذاك بلا استثناء، يثير كثيرا من علامات الاستفهام. أتراهم لم يكونوا يؤمنون
بالفكرة فى حد ذاتها؟ أم لم يكن لديهم امتناع بجدواها فى مواجهة عدو لم يكونوا
على علم كامل بقوته العسكرية وتعبئة جيوشه؟ أم تراهم أدركوا المغزى الحقيقى

(4) "Vos qui ameïs de Vraie amour" An Anonymous poet writes of the love of God
expressed (by the Crusader (in Riley – Smith, The Crusades, Idea and reality,
London, 1981, pp. 89-90).

الذى كانت تهدف إليه البابوية من دعوتها هذه، والهدف الكامن وراء عبارات البابا ودعايته الظاهرة؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة إياه لحاجة فى نفس رعيانها من أوربان الثانى فى آخر سنى القرن الحادى عشر حتى إنوسنت الرابع Innocent IV ocent IV فى القرن الثالث عشر الميلادى؟

ولعل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فى سلوك أوربان الثانى، الذى ما أن فرغ من دعوته العامة فى كليرمونت حتى عكف خلال الأشهر التالية التى استغرقتها الاستعدادات العامة لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق، يكتب عددا من أمراء أوروبا من وراء ظهر ملوكهم، سادتهم الإقطاعيين! ويعقد المجمع الكنسية، ويبعث بقسيسيه إلى مناطق متفرقة من أوروبا - وإن كانت فرنسا مركز نشاطه - حاثا إياهم على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على التضامن جميعا فى سبيل نجاح دعوته. وقد تضمنت رسائله جميعا النغمة التى عزف على أوتارها فى كليرمونت، والخاصة بويلات العذاب التى يلقاها إخوانهم مسيحيو الشرق، وانتهاك الحرمات فى الأراضى المقدسة.

ففى رسالة بعث بها إلى "كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥، أى فى أعقاب مجمع كليرمونت يقول: "لقد زرنا بلاد الغال (فرنسا) وحرصنا السادة والرعايا بحمية فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كائنة خطاياهم، وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة، هو ابننا العزيز أديمار Adhemar أسقف لى بوى Le-Puy ومن ثم فإن كل من يقرر الذهاب فى هذه الرحلة فعليه أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله"^(٥).

وواضح من هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا للحملة فى الوقت نفسه هو أسقف لى بوى، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا

(٥) URBAN II, to all the faithful in flanders, December 1095 وراجع أيضا الترجمة العربية

عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ص ٩.

بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جوزفروى دى بوايون Gogfrey de Bouillon دوق اللورين، وبوهيمند Bohemond النورمانى، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois، وريموند Raymond الصنجيلى Sanit-Giles أمير تولوز Toulouse، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب للبابوى له مما أوحى بأنه من المقربين!

وفى التاسع عشر من سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية: "... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم، وذلك شىء أثلج صدورنا، وليكن معلوما لديكم أن كل من يمضى إلى هناك، لا من أجل مكاسب دنيوية، بل فى سبيل تحرير الكنيسة وخلص أرواحهم، فإننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثولوليكية، نغفيم من التكفير المفروض عليهم بسبب خطاياهم التى اعترفوا بها، وذلك لأنهم قدموا أموالهم وحياتهم فى حب الرب والجيران، أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم، ويجب أن يوضع فى الاعتبار أن الشباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم، وليساعدكم الرب العظيم"^(١).

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦، أرسل إلى جماعة دير "فالومبروسا" Vallombrosa يقول: "لقد نما إلى علمنا أن بعضا منكم يريد الانطلاق مع الفرسان الذاهبين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المسيحية، وهذا النوع من التضحية الحقّة، غير أنها جاءت من أفراد غير مؤهلين لذلك، فحسن نستنفر أفئدة الفرسان للقيام بهذه الحملة لأنهم هم القادرون على كبح جماح المسلمين بأسلحتهم، وإعادة الحرية للمسيحيين ونحن لا نريد لأولئك الذين هجروا دنيا الناس، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح، أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الحملة"^(٢).

(٦) URBAN II, to his Partisans in Bologna 19 September 1096، وراجع الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٩١ .

(7) URBAN II, to the religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096 وراجع الترجمة العربية عند، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٩٢.

واضح تماما من هذه الرسائل التي جئنا على طرف منها هنا، وتلك التي أوردتها المصادر ولم نذكرها، ومن خطاب أوربان الثاني فى كليرمونت، أن البابوية قد وضعت نفسها من البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصليبية، أما الأولى فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها، وأما الثانية - وقد خاطبت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ودون موارد. فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو من الناحية النظرية فقط، لملوكهم باعتبارهم أقصاهم الإقطاعيين، وقد أقسموا لهم بمقتضى أعراف النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية، وهو اليمين الذى حاج به زعماء الحملة الأولى الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنينوس Alexius Comnenos وهم ممثل فى حضرته قبل عبورهم البسفور فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة. ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية، إلا أن مخاطبتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين، حتى ولو كان من جانب خليفة القديس بطرس الآن، ونائب المسيح Vicarius Christi من بعد، يعد اعتداء على حقوق السيادة الزمنية، وانتهاكا لفرضيات النظام الإقطاعى الباسط كفيه على أوروبا آنذاك، والقاضية "برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الإقطاعى"^(٨)، رغم أن هذه "القمة" كانت طيلة العصر الوسيط تمثل المكانة وتخلو من السلطة!!

ولما كانت البابوية تدرك ذلك تماما، فقد سعت حثيثا لتضع نفسها فى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين، وسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى البابا بدوره سيدا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك، وبدا هذا الاتجاه واضحا حتى قبل أن تتسع الهوة بين البابوية والسلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية. ففى عام ١٠٧٣ كتب جريجورى السابع Gregory VII فى أول عهده بالعرش البابوى، رسالة "إلى كل الأمراء الراغبين فى الذهاب إلى إسبانيا"^(٩)

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جزءان القاهرة ١٩٨٣، الجزء الثانى ١٩٨٦ ص ٤٢٢، محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٤٢٢.

(9) GREGORY VII, to Princes wishing to reconquest Spain, 1073

جاء فيها: "ها هو كونت إفلوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشهرة الفائقة، رغب في مهاجمة تلك الأراضي لاستخلاصها من أيدي الوثنيين (يعنى المسلمين فى الأندلس)، ومن ثم أعطيناها الحق فى امتلاك كل الأراضي التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه، وكان ذلك بموافقاتنا نحن ممثلى القديس بطرس، فإذا حذرتم حذوه وسعيتم سعيه، كان سعيكم مشكورا، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضي منفردا أو لحسابه الخاص .. فليكن معلوما لديكم جميعا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضي، فتمسون بذلك شأن الوثنيين".

وإذا كان جريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعية تجاه الأمراء، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الادعاء إزاء الملوك؛ فقد كتب إلى "سولومون" Solomon ملك المجر^(١٠) يقول فى لهجة متغطسة تتم عن شخصيته: .. تستطيع أن تقف من أمرائك على أن مملكة المجر ترتبط بالكنيسة الرومانية المقدسة، وهذا يستتبع بالضرورة خضوعها وتبعيتها للقديس بطرس .. غير أنه نما إلى علمنا أنك وافقت على قبول المملكة كإقطاع من الملك الألمانى (لم يكن هنرى الرابع قد توج حتى ذلك الحين إمبراطورا)، وهذا يعد انتهاكا لحقوق القديس بطرس، وهو سلوك لا يتفق وأخلاق الملوك وفضائلهم. فإن أردت أن تنال بركة القديس بطرس ورضانا، فعليك أن تبادر إلى إصلاح هذه الخطايا التى أثمها يداك، ولا شك أنك تعلم جيدا أنه ليس لك أمل فى أن تحظى بالعدالة، أو تضمن لنفسك على عرشك عمرا مديدا، إلا إذا تلقيت صولجان سلطانك من يد البابا وليس من الملك. ولما كان الله قد منحنا القوة، فإننا لن نسمح أبدا تحت أى تهديد أو خوف أو اعتبارات شخصية بتدنيس مجد وكرامة من نحن على خدمته قائلون. وإذا أردت أن تصوب خطى مسارك وأن تسلك سلوك الملوك، فعليك أن تكتسب محبة الأم .. الكنيسة الرومانية المقدسة .. وصادقتنا فى المسيح".

(10) GREGORY VII, to solomon King of Hungary 1074

والرسالة بكل ما فيها من عجرفة دالة على ملامح العصر الجريجورى، تنبئ عن المكانة الإقطاعية التي عملت البابوية على تحقيقها، حتى تطاول الملوك مكانتهم فى حربها معهم، مضافا إليها مكانتها الروحية التي تدل على الجميع. وقد يدور بخلد بعض أن جريجورى فعل ذلك ضمن برنامج الإصلاحى، وأنه لا علاقة له بالفكرة الصليبية لدى البابوية، وأن هذه الرسائل وأشباهاها سابقة على مجمع كليرمونت. غير أن الحقيقة التاريخية توقفنا على أن الفكر الصليبي البابوي قد قر فى ذهن جريجورى قبل أوربان الثانى بعشرين سنة كاملة، وأن الاتجاه إلى الشرق فى حملة صليبية كان من بنات أفكار جريجورى السابع نفسه؛ فى عام ١٠٧٤ وجه نداء عاما "إلى الراغبين فى الدفاع عن الإيمان المسيحى"^(١١) افتتحها بالحديث عن الولايات التي حلت بالمسيحيين فى الشرق، والاضطهادات التي تعرضوا لها على يد المسلمين، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشرق، والاضطهادات التي تعرضوا لها على يد المسلمين، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشرق من خطر داهم من جانبهم، وهذا هو بعينه ما قاله أوربان الثانى فى كليرمونت، وصدر بها رسائله التي أوردناها من قبل.

وبعد هذا الحديث الذى يفيض حسرة وأسى، يوجه جريجورى السابع الدعوة لحملة صليبية لإنقاذ مسيحي الشرق. يقول "نحن نثق فى رحمة الله. كما نثق فى قدرته وسوف نبذل كل ما فى وسعنا لعمل الاستعدادات اللازمة لتقديم يد العون للإمبراطورية المسيحية (يعنى للبيزنطية) فى أسرع وقت ممكن، ومن ثم فنحن نناشدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح، وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تتحركوا بكل الحنو إزاء جرحات ودماء إخوانكم ... لإنقاذهم مما يعانون، ولتتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهم، ونبئونى بما سيهدىكم الله إلى عمله فى هذا السبيل"^(١٢).

(11) GREGORY VII, calls for a Crusade, 1074

Setton (K.), A history of the Crusades, راجع أيضا Id.1989, Vol. I, pp. 222-223 (١٢) Six Vols, Philadelphia, 1955.

كانت هذه الرسالة في الأول من مارس عام ١٠٧٤، وما أن وافى شهر سبتمبر من العام نفسه، حتى بعث برسالة إلى وليم السابع دوق أكويتين Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقارير تفيد بهدوء الأحوال في الشرق، وأن المسيحيين هناك بدأوا يستردون ثقتهم في أنفسهم ثانية،^(١٣) وأن علينا التريث حتى نرى ما يطالعنا به المستقبل^(١٤). ولم تكذ تمضى على ذلك أشهر ثلاثة، حتى كتب إلى هنري الرابع Henry IV ملك ألمانيا في الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول: "أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح للمسلمين لهم كما تنبج للشيا، وأنهم كتبوا إلى مستجيرين .. وليكن معلوما لديك أن هناك خمسين ألف رجل على أتم استعداد للقتال تحت قيادتي كما أنى أقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح"^(١٥). ولعل هذا ما دعا المؤرخين Edgar H. McNeal, Oliver J. Thatcher إلى الاعتقاد بأن ما حدث في عام ١٠٩٥ لم يكن يختلف كثيرا عما دعى إليه في سنة ١٠٧٤، وأن للبابا أوربان الثالثي عندما وجه الدعوة للحملة للصليبية في كليرمونت، لم يكن فكره يحتوى على شيء أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع الذى كشفت عنه رسائله هذه^(١٦). وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى في تنفيذ برنامجه للصليبي إلى حيث ينبغي، نتيجة للصراع الذى نشب على الفور بينه وبين هنري الرابع مستترا برداء التقليد العلماني، فإنه يعد بلا شك صاحب اللبنة الأولى في بناء صرح الحركة الصليبية، والتي تعدها أوربان الثاني من

(١٣) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى في منتصف عام ١٠٧٤ بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة، مثل أرتق وسليمان بن قطلمش. للقضاء على الحركة التي قام بها 'روسل باليل' Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية في آسيا الصغرى، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسيبا في المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة. راجع، أسد رستم، الروم، جزءان، بيروت ١٩٥٦ الجزء الثاني، ص ١١٢-١١٣؛ سيد أحمد على الناصري، الروم، القاهرة ١٩٩٣، ص ٣٧٩-٣٨١؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور الكسبروس كومنينوس، القاهرة ١٩٨٣، ص ٨٢ - ٨٧.

(14) Setton, Crusades, Vol. I, p. 223

(15) Ibid. p.224

(16) Thatcher (O.) & McNeal (E.), A Source book of Mediaeval History, New Youk, p.512

بعده وبالرعاية الكاملة حتى ليعد بحق هو صاحب الجانب العملى التطبيقى منها دون شك، ودون أن ينازعه فى ذلك أحد.

واستكمالا لمشروعه وجه جريجورى السابع فى السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعوة عامة للمؤمنين عبر الألب للمشاركة فى حملته المقترحة، وكتب إلى حليفته الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها مصاحبة المبراطورة الأم "أجنى" Agnes التى من المتوقع ذهابها إلى الشرق مع الذاهبين - وضمن رسالته إلى هنرى الرابع التى تحدثنا عنها توا - طلبا بأن يقوم الملك الألمانى بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئوننا ويوصيه بها خيرا أثناء غيابه فى الشرق قائدا للحملة؛ ويعتبر "فردريك دونكالف" Frederic Duncalf^(١٧) ما أقدم عليه جريجورى السابع فى وصيته هذه لهنرى الرابع "نوعا من السذاجة". بينما لاترى فيها إلا نوعا من خبث "شيطان مقدس" على حد وصف بطرس الدميانى له^(١٨). فهو قد جعل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المسيحيين الشرقيين فى الإمبراطورية البيزنطية، الذين كان هو نفسه يعتبرهم "خارجين عن عقيدة الكنيسة الجامعة"^(١٩) ونصب نفسه قائدا عسكريا للحملة إلى جانب كونه زعيما روحيا. فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك، الحكام الزمنيين، والإيحاء إلى هنرى برعاية شئون الكنيسة الرومانية فى غيابه، يجعل من هنرى نائبا عنه، أو يعتبر أشد تحديدا، فصلا إقطاعيا تابعا له، وهذا هو جانب "الخبث" فى "الشيطان المقدس" وليس "نوعا من السذاجة" يؤكد قولنا هذا ما يذهب إليه "أولمان"^(٢٠) Ullman من أن هذه الحملة المقترحة لجريجورى كان صاحبها يرمى بها من طرف خفى إلى هدف سياسى آخر، وهو أنه كان يأمل من مجرد إشاعة أن هناك خمسين ألف مقاتل رهن إشارته، وإظهار هذه القوة

(17) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, A history of the Crusades, Vol. I, p.224).

(18) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964, p.46

(19) Setton, Crusades. I, p.224.

(20) Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London, 1974, pp.150.

العسكرية المزعومة، أن تخف أو تتوقف حدة هجمات النورمان غير المستقرين في جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية.

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه، ففي الثاني والعشرين من يناير ١٠٧٥، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلوني ورئيسه السابق، عندما كان راهبا يحمل اسم "هيلد براند" Hildebrand رسالة لم يعرج فيها بشيء أبدا على حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين. وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تسبرمه "لانسلاخهم عن حظيرة الإيمان الكاثولوليكي"^(٢١). وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بينه وبين السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة، عندما أعلن صراحة عن برنامج الإصلاحى بمحاربة "السيمونية"، أى بيع الوظائف الكنسية، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى، مما نكأ جرحا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى، وتحول بعد حين يسير من بدايته إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية^(٢٢).

ومما يوضح بجلاء نيات جريجورى السابع فى صليبية من نوع خاص إزاء السلطة الزمنية، أنه ما إن بدأ الصراع مع هنرى، حتى نحى جانبا السعى لكسب أى صداقة مع بلاط القسطنطينية، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبه جزيرة البلقان، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا. وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور "نقفور الثالث بوتنياتس" Nicephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه^(٢٣). وأنعم على أمير زيتا Zeta، إحدى دويلات البلقان الدائرة

(21) Setton, Crusades, I, p. 224

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع، راجع الفصل الأول.

(23) Setton, Crusades, I, p. 224 وأيضا Runciman, (S.), A history of the Crusades, 3 vols. London 1965, vol, I, pp. 69,99

فى فلك الإمبراطورية البيزنطية، بالتاج هبة منه ليجذبه إلى صف الكاثوليكية، ضاربا هو والأمير عرض الحائط بالإدعاءات البيزنطية. ومع أن الكسيوس كومنزس، فى محاولة منه لإزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما، جدد رغبة ميخائيل السابع فى الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى، إلا أنه لم يجد من جريجورى أذانا صاغية، فأقدم كرد فعل لغيظه على إغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصمة الإمبراطورية، وراح أهلها ينظرون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطئا مع النورمان، وأطلقت النكات الساخرة فى المدينة محدثة باستهزاء عن غطرسة جريجورى وعجرفته⁽²⁴⁾.

هذه الفعال التى مارسها جريجورى السابع لا يمكن أن تتسبب مطلقا إلى زعيم روحى، بقدر ما ترتبط ارتباطا وثيقا بملك اقطاعى يمارس كل شئون السلطة الزمنية، أو على حد تعبير "ستيفن رنسيمان"⁽²⁵⁾ Steven Runciman فإن البابوية أمسكت دفة الحرب "المقدسة" - فى عرفها - وراحت توجهها كيف تشاء، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتطلقها وتعين قائدها، أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهى تحت الحماية الكاملة والسيادة البابوية. ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا من قبل، إن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمراء، هى والدعوة العامة للأمرء دون الملوك، بمثابة إعلان لحرب صليبية تدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطورية من ناحية، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية!

لم يكن غريبا إذن أن يطلق جريجورى السابع فكرة القيام بحملة صليبية لانقاذ مسيحي الشرق طلاقا باتنا لا رجعة فيه، وأن يوجه كل جهده الآن لشن حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العلمانيين وأصحاب السلطة الزمنية من الملوك، طيلة عشر سنوات تالية (١٠٧١-١٠٨٥)، ولم يقلع عنها إلا

(24) ANNA COMNENA, The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A. Sewter
Penguin book 1969, pp.61-65

(25) Crusades, I,P. 92

عندما جاءتة رسل الموت تتوفاه، بحكم الارتباط الحتمى القائم بين ألمانيا وإيطاليا، باعتبار الملك الألماني هو الإمبراطور الرومانى الذى يتلقى التاج من البابوية.

وبغض النظر عن قرار الحرمان الذى أصدره جريجورى السابع ضد هنرى الرابع فى فبراير ١٠٧٦، والذى قاد إلى الإذلال الشهير للملك الألماني فى كانوسا، وراح يضرب به المثل، فإن القرارات والمراسيم البابوية الصادرة عن جريجورى السابع تباعا، حتى قبل صدور قرار الحرمان هذا، كانت تعنى فى جوهرها إعلان الحرب صراحة ضد السلطة الزمنية وممثليها فقد كان من بين ماتضمنته أن للبابا وحده الحق فى أن يقبل الأمراء منه القدم وكان هذا يعنى أمرين : أحدهما أنه لن ينال هذا الشرف إلا أصحاب الحظوة الذين سوف يسمح لهم البابا بذلك من قبيل التبرك. والآخر أن البابا بذلك يوجه ولاء الأمراء له دون الملك، وهذا هو بيت القصيد. ومن ثم كان لا بد أن يتبع هذا المرسوم بآخر يعد تنمة طبيعية له ومقدمة لما هو آت يقول فيه: "من حق البابا عزل الأباطرة"، ثم يعلن الحرب صراحة على كل مخالفه تحت دعوى ماقدم به مراسيمه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ طيلة ما مضى من عمرها ولن تخطئ فيما بقى لها من عمر، "ليس بكاثوليكي كل من يخالف الكنيسة الرومانية، ولن ينعم بالسلام" وكان هذا التحول من حرب صليبية باتجاه الشرق يقودها بنفسه، إلى حرب صليبية أخرى فى الغرب يحركها ويؤجج نيرانها بقداسته ضد الملوك، هى الركيزة الأساسية التى استندت عليها البابوية فى سياستها الآتية، واستغلتها استغلالا كاملا لتحقيق أغراضها الأساسية فى الشرق والغرب على السواء.

لقد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين تعتمد عليهما عروشهم .. أعنى المال والجنود فالملك - فى ظل النظام الإقطاعى - لم يكن يدعو فى كثير من الأحيان "الأول بين أقرانه" Primus inter Pares يمتلك مساحات من الأرض، ربما تزيد ممتلكات بعض أقصاله عنها أحيانا، ويعتمد فى دخل خزائنه على ما يقدمه له أمراؤه فى مناسبات بعينها، دون أن يأخذ فى شكله صفة الضريبة، بل معنى

الهدية. ويرتكز في جيشه على جيوش الأمراء في أي حرب يخوضها، بتعبير آخر كان الأمراء هم مصدر قوة الملك أو مصدر ضعفه في الوقت نفسه، تبعا لشخصية الملك في المقام الأول. ولما كان النظام الإقطاعي، بمسألة الوراثة فيه، والقائمة على توريث الابن الأكبر وحرمان بقية الأبناء تجنباً لتفتت الملكية الزراعية، قد خلق مجموعة من الأمراء المغامرين بلا أرض، لم يفلح ميدان الاسترداد في الأندلس في تعويض خسراتهم، فقد أصبحوا على استعداد لبيع ولائهم لمن يقدم لهم أرضاً أو وعداً بأرض، كما هي الحال مع البابوية، وأدركت الأخيرة في الوقت نفسه أنها إذا نجحت في استقطاب هؤلاء المغامرين، وضم غيرهم من الإقطاعيين، الطامحين، لحقت بذلك هدفها المزدوج بضربة واحدة، السيادة في أوروبا - بالدفاع عن قضية المسيحيين في الشرق، وحياء الحلم القديم الذي يورق جفنها منذ القرن الخامس الميلادي ويلح عليها باستعادة سيطرتها على كنيسة القسطنطينية.

ولا شك أن هذا كله كان ماثلاً في ذهن أوربان الثاني، كما كان ماثلاً أيضاً في ذهن جريجوري السابع من قبل، ومع أن أوربان لم يكن له صلف سلفه، ولم يكن في الوقت نفسه ضعيفاً، إلا أنه كان يفضل دائماً أن يتجنب المواجهة السافرة مع خصومة⁽²⁶⁾ ومن ثم لم يجد حرجاً في أن يشارك بكل ما يستطيع في المؤامرة التي دبرها الأمير الألماني كونراد conrad ضد أبيه الإمبراطور هنري الرابع⁽²⁷⁾. ولم يكن ذلك بدعاً، بل كان سنة وضعها أوربان الثاني وسار عليها خلفاؤه من بعد في علاقتهم بفردريك الثاني وابنه هنري السابع وابني فردريك الثاني أيضاً كونراد ومانفرد Manfred.

ولم تتنازل البابوية أبداً طيلة صراعها مع السلطة الزمنية عن ادعائها بالسيادة الإقطاعية، لتشارك الملوك بذلك حقوقها باعتبارهم قمة الهرم الاجتماعي. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك، تلك المعاهدة التي وقعت بين وليم الأول ملك صقلية والبابا هادريان الرابع، والتي يعترف فيها الملك النورمانى بالتبعية الإقطاعية للبابا،

(26) Brooke (Ch.), Europe in the central Middle Ages, 962-1154, Longman-london 1966, pp. 186-187.

(27) Runciman, Crusades I, p, 101.

وحصوله على مملكته كإقطاع من البابوية^(٢٨) والمحاولة التي قام بها البابا نفسه مع الإمبراطور فردريك الأول Frederick I عندما أعلن في رسالة بعث بها إليه، أن إمبراطوريته لا تعدو أن تكون إقطاعا Beneficium بابويا، وما ترتب على ذلك من حادثة "بيزانسون" Besancon الشهيرة عام ١١٥٧، والتي عرفت الإمبراطورية منذ ساعاتها بـ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"^(٢٩).

وكانت صقلية في الجنوب، وتسكانيا في الشمال هما حزام الأمن للبابوية، ومن ثم سعت بكل ما وسعتها الطاقة لتظل المنطقتان تحت سيادتها الإقطاعية، وقد تحقق هذا بالنسبة لصقلية على النحو الذي قدمنا الآن، إلى أن تمكن فردريك الأول من توجيه صفة قوية للبابوية عندما خطب "كونستانزا" "Constance" وريثة عرش النورمان لابنه هنري السادس، الذي خلفه على عرش الإمبراطورية، وكان ذلك يعنى خسق البابوية ووقوعها بين فكي الكماشة الألمانية، فظلت تتحين الفرص حتى إذا سنحت إحداها لم تتردد مطلقا في اهتبالها، فحصلت من فردريك الثاني في عام ١٢١٣ على اعتراف بسيادتها على صقلية كإقطاعية تابعة لها^(٣٠)، ثم أجبرته على أن يقدم وعدا في عام ١٢١٦، قبل أن يتوج إمبراطورا بأربع سنوات، على أن تتفصل صقلية عن التاج الإمبراطوري، وتمسى مملكة مستقلة يحكمها ابنه هنري إقطاعا من البابوية^(٣١). ولما لم يلتزم فردريك بهذه الوعود من بعد، شنتها البابوية حربا ضروسا عليه وعلى أسرة "الهوهنشتاوفن" Hohenstaufen كلها حتى تم لها إعدام آخر أفرادها "كونرادينو" Conradino في نابولي عام ١٢٦٨.

أما تسكانيا فكانت أميرتها ماتيلدا صديقة للبابوية وساندها كثيرا في سبيل إعلاء سيادتها، إلى الحد الذي تنازلت عن الدوقية وكل ممتلكاتها في إيطاليا

(28) TREATY between ADRIANIV and WILLIAM I OF SICLY 1156

(٢٩) ADRIANIV, Letter to Frederick I, September 1157 وللوكوف على تفاصيل حادثة بيزانسون، راجع، للفصل الأول.

(30) PROMISE OF FREDERICK II TO INNOCENT III, 1213

(31) PROMISE of FREDEICK II to resign Sicily after his Coronation as Emperor 1216

وألماانيا" للبابوية⁽³²⁾، وكان هذا يعنى امتدادا هائلا باتجاه الشمال للسيادة الإقطاعية للبابا، غير أن الأباطرة رفضوا الاعتراف بهذه الوصية، محاجين بأنه ليس من حق الأميرة أن تتصرف فيما يخص الإمبراطورية وحدها.

ولتنفيذ ذلك أسرع هنرى الخامس بجيشه إلى إيطاليا، إبان نزاعه مع البابا باسكال الثانى Paschal II ليكره "ماتيلدا" على إلغاء وصيتها السابقة وتعديلها إلى الإمبراطورية بدلا من البابوية⁽³³⁾، وأكد الإمبراطور لوثير الثالث Lothair III هذه المسألة ثانيا بعد مفاوضات مع البابوية، ولينحها فرديريك الأول برباروسا إقطاعا لعائلة الولفيين Welfs فى أول عهده بالعرش الألمانى⁽³⁴⁾.

والذى يلفت النظر أن هذه الرغبة البابوية الجامعة فى إضفاء الصفة الإقطاعية على أنفسهم مزاحمة لأصحاب السلطة الزمنية، الملوك، امتدت عدواها بالتالى إلى كل رجال الأكليروس فى الكنيسة الكاثوليكية، بحيث أصبح المساس بهذه الحقوق الإقطاعية إعتداء يستدعى إعلان حرب صليبية ضد الأمراء العلمانيين، حتى اكتسب رجال الدين الصفة نفسها، وأمسوا بالتالى "أمراء أكليروسيين" يفوقون قرناءهم العلمانيين بالإعفاء من الالتزامات الإقطاعية المفروضة على هؤلاء الآخرين باعتبارهم أفضالا إقطاعيين تابعين للملك. ولم يتعرضوا لمثل هذا الالتزام إلا عندما فرض البابا إنوسنت الثالث Innocent ضريبة على دخولهم بدأت بواحد على أربعين من الدخل عام 1199، غير أن هذه الضريبة لقيت معارضة شديدة من جانبهم، حتى اضطر فى عام 1213 إلى الإحجام عن الاستمرار فى فرضها، غير أنه عاد فى عام 1215 إلى تجديدها ثانية، وحددها بواحد على عشرين من دخول رجال الأكليروس عامة⁽³⁵⁾.

(32) COUNTESS MATILDA gives all her lands to the church 1102

(33) Barraxlough (G.), The Origins of Modern Gemany, Oxford, 1947 , p. 129

(24) Thompson (J.) & Johnson (E.), An introduction to Medieval Europe, New York, 1965, p.394

(35) INNOCENT III begins the taxation of the Church for the Cruades, 31 December 1199; INNOCENT III Legislates at the fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

ومن أطرف ما يمكن أن يذكر هنا في هذا المجال، أن مسودة الاتفاق الذي انتهى إليه أمر المفاوضات التي دارت بين الامبراطور هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى سنة ١١١١ تضمنت اعتراف البابا بالتنازل عن الأراضى والحقوق الإقطاعية التى حصلت عليها الكنيسة منذ أيام شارلمان حتى تاريخه^(٣٦)، وتحرّم على أى أسقف أو كاهن، مقيدىن إياه بقيود اللعنة، أن يمتلك أى شئ من تلك الامتيازات فى المدن والدوقيات والماركيات والكونتيات، وكذلك دور الضرب والأسواق والمكوس ومكاتب المحاماة والضياع التى تتعلق بالإمبراطورية، وكل ما يتصل بهذه الأمور، وكذلك امتلاك القلاع وأداء الخدمة العسكرية. ومن الآن فصاعداً لن يتمسك رجال الكليروس بأى من هذه الأمور، إلا بناءً على رغبة الملك .. ذلك أنه من الضرورى أن يتطهر الأساقفة من كل الأعباء الدنيوية، وأن يكرسوا كل وقتهم لرعاية شعب الكنيسة، وأن لا يتغيبوا طويلاً عن كنائسهم، أو لم يقل بولس الرسول " .. لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً (الرسالة إلى العبرانيين ١٣/١٧)".

وأقوال باسكال الثانى هذا اعتراف صريح بالحال الذى وصل إليه رجال الدين فى القرن الثانى عشر الميلادى، القرن الزاهر للحركة الصليبية وهى فى عنفوانها، فقد تحولوا من رجال الكليروس إلى رجال أعمال وتجار ومحامين وجنود عسكريين، ومالكى مناطق جمركية ودور للضرب وأسواقاً، ومصالح وظيفية واقتصادية فى المدن والدوقيات والكونتيات والقلاع. بتعبير آخر أن الرعاية الروحية أمست لديهم فقط مجرد رداء كهنوتى يحمل فى أكمامه كل هذه المصالح الدنيوية. وباسكال الثانى يفتتح اعترافه هذا بقوله، "الكهان جميعهم ممنوعون - بمقتضى الكتاب المقدس والقوانين الكنسية من أن يشغلوا أنفسهم بالشئون الدنيوية".

نقول إن الطريف هنا هو أن الأساقفة جميعاً رفضوا الموافقة على هذا المشروع ، فقد كان معناه أن يفقدوا كل ما كان لهم من ممتلكات وضياع وثروة وبالسؤالى الجاه والنفوذ، ومن ثم يعود بهم الحال حيث أراد بولس الرسول "فإن كان

(36) PASCHAL II, The first Privilege Which he granted to Henry V, February 12, 1111

لكم محاكم في أمور هذه الحياة فأجلسوا المحقرين في الكنيسة قضاة" (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٤/٦) وهو ما نبه إليه باسكال الثاني في هذه الاتفاقية المقترحة. وأعلن الأساقفة الألمان والإيطاليون المحتشدون في كنيسة القديس بطرس بروما عصيانهم وتمردهم على كل ما جاء في مشروع الاتفاق هذا^(٣٧) فقد ولت الكنيسة ظهرها للبطاشة منذ قرون طويلة، وأصبحت الآن والبابا على رأسها ركنا أساسيا من أركان النظام الإقطاعي، والبابا على قمته مشاركا الملوك في ذلك، وكان باسكال الثاني يمثل بمشروعه نغمة شاذة وسط هذا اللحن الإقطاعي الذي لا بد أن يظل البابا وإكليروسه يعزفون عليه حتى تصفق له السلطة الزمنية وهي كارهة.

من هنا كان أوربان الثاني واعيا تماما لما يفعله عندما وجه خطابه إلى الأمراء في كليرمونت، وبعث من بعد برسائله العديدة إليهم، وغض الطرف تماما بشكل عمدي عن الملوك، وجعل من نفسه - كما فعل سلفه. جريجوري السابع - سيدا إقطاعيا ينافس الملوك سلطانهم الزمني في ظل النظام الإقطاعي، واستند بهذه الطريقة إلى قاعدة إقطاعية عريضة من كبار الأمراء، ليجرد خصومه الزمنيين من سلاحهم الأساسي الذي يعتمدون عليه، نعى الأمراء. ومن ثم كانت الدعوة التي وجهت من كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين، تعنى صراحة - كما أسلفنا إعلانا للحرب على السلطة الزمنية في أوروبا ممثلة في الملوك والإمبراطور الروماني ملك ألمانيا. وكان هذا واضحا تماما في السياسة التي اتبعتها أوربان الثاني تجاه ملوك أوروبا المعاصرين لهذه الدعوة.

ففي ألمانيا كان هناك الإمبراطور هنري الرابع، صاحب الملحمة الشهيرة مع البابوية، والذي لم يغفر لها أبدا إذلالها له في كانوسا Canossa عام ١٠٧٧ ذلك الإذلال الذي أصبح مضرب الأمثال من بعد فيقال: "أنزل من كانوسا". ولم تغفر له هي مهانتها التي عانتها على يديه طيلة ثلاث سنوات سويا (١٠٨١-١٠٨٤) عندما راح يمتع ناظره وهو يرى البابا جريجوري السابع أسير حصاره داخل

(٣٧) راجع تفاصيل ما دار في كنيسة القديس بطرس في ٢٢ فبراير سنة ١١١١ عند، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، ص ٣٦٤-٣٦٥

روما لا يستطيع منها حراكا. فلما ارتحل عنها مع حلفائه النورمان جنوبا لم يكن يعدو أيضا أسير هؤلاء الحلفاء حتى مات عام ١٠٨٥ ولذا راح أوربان الثاني يؤلب عليه ولده كونراد سنة ١٠٩٣، وجاء باسكال الثاني ليثير ضده ابنه هنرى (الخامس فيما بعد) سنة ١١٠٤.

أما إنجلترا فكان على عرشها آنذاك وليم الثاني روفوس (الأحمر) William II Ruffs (١٠٨٧ - ١١٠٠)، ولم تكن علاقته بالكنيسة الرومانية تختلف عن تلك التى وضع قواعدها أبوه وليم الفاتح، الذى رفض أى صورة فى صور التبعية للبابوية، خاصة اعتبار إنجلترا إقطاعيا بابويا، وضرب عرض الحائط بالمساعدات التى قدمها له جريجورى السابع فى أول عهده. وأضاف وليم روفوس (الأحمر) إلى ذلك إيقال الكنيسة فى إنجلترا بالضرائب الباهظة، ولم يلتفت مطلقا إلى برامج الإصلاح الكنسى التى كانت ترفض التقليد العلمانى، فأخذ يعين الأساقفة ويعزلهم، وفى نوبة من نوبات المرض والخوف من الموت أقدم على تعيين القديس أنسلم Anselm رئيسا لأساقفة كانتربرى Canterbury، فلما عادت إليه حيويته اختلف مع أنسلم واضطره إلى الرحيل عن إنجلترا^(٣٨).

وعلى الشاطئ المقابل كان العرش الفرنسى يحمل فوق كرسيه الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ - ١١٠٨)، وخلال عهده الطويل الذى قارب الخمسين عاما سارت العلاقات بين فرنسا والبابوية من سىء إلى أسوأ، ذلك أن فيليب أصم أذنيه تماما أمام حركة الإصلاح الكلونى، والإجراءات الجريجورية الخاصة بالسيمونية والتى كان فيليب الأول يمارسها علانية مصعرا خده لكل التهديدات التى وجهها إليه بابوات عهده الطويل^(٣٩) ولقد جر عليه ذلك بالإضافة إلى مناوعته المستمرة وتحديه للمراسيم البابوية، غضب البابا جريجورى السابع، ذلك أن فيليب، شأنه شأن ملوك زمانه جميعا، يؤمن أن سيطرة الملك الفرنسى على كل الأساقفة تمثل حجر الزاوية بالنسبة للملكية الفرنسية، خاصة أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة

(38) Barlow (F.), The feudal Kingdom of England 1042-1216, London, 1974, pp.156-161

(39) Ullmann, A short history of the Papxy, p. 150

كانوا يسيطرون على مساحات واسعة تفوق أراضي الملك أحيانا، ولقد اعتقد فيليب الأول، ولم يكن ذلك بعيدا عن الصواب، كما اعتقد وليم الفاتح وسميه الثاني في إنجلترا، وملوك ألمانيا جميعا، أن إذعانه للسيادة البابوية سوف يقضى على مكانته وسيادته بشكل لا يمكن معه استعادتهما بعد ذلك مطلقا.

وإزاء هذه السياسة التي كان يمارسها فيليب الأول، كان المجمع الذي عقد في بياكENZA في مارس ١٠٩٥ في شمال إيطاليا، قد اتخذ عدة قرارات ضد السيمونية وزواج رجال الدين، إلا أن البابا تدخل شخصيا حتى يمنع اتخاذ قرار ضد فيليب الممارس العام لهذه الأمور، إلى أن يتمكن البابا من زيارة فرنسا من بعد⁽⁴⁰⁾ وهو ما حدث بعد ذلك بقليل عند عقد مجمع كليرمونت، ولذا كان على فيليب أن يقف موقف المتفرج الذي ينتظر قرارا بالحرمان الكنسي وهو يشاهد أوربان الثاني يدعو لخروج الحملة الصليبية الأولى من فوق الأرض الفرنسية، ولا يستطيع المحروم أو من هو في موقعه أن يحمل الصليب، ولن تقدم البابوية للملكية أى عون إذا حاول ملكها أن يقلد هنرى الرابع أو أن يحذو حذوه⁽⁴¹⁾.

هذه هي الحال التي كانت عليها الملكيات الأوروبية للثلاث عشية الدعوة للحملة الصليبية، وهى الفرصة للساحة للتي لن تجد البابوية توقيتا أكثر مناسبة منها لتنفيذ خطتها وتحقيق أهدافها فى الداخل للخارج مجتمعة، فالملوك الثلاثة كانوا نوى شخصيات غريبة، فمع عدلتهم للمشارك للبابوية وقدرتهم على تحدى برنامجها الإصلاحى، وهى سمة سمعت بينهم فى حينها، إلا أنهم فى الوقت ذاته لم يكونوا أيضا يحظون بتقدير أمرائهم أو أقصالهم فى الداخل لسياستهم العامة الرامية إلى إحكام سيطرتهم كملوك يمثلون رأس النظام الإقطاعى، وهو ما يتعارض مع طبيعة ذلك النظام القاضية بضعف السلطة المركزية ولزيادة نفوذ الأمراء ومن ناحية أخرى لم تكن علاقاتهم مع بعضهم البعض توحى بأى نوع من المودة أو التقارب؛ فالنزاع بين فرنسا وإنجلترا قائم على قدم وساق، يتخذ شكلا قانونيا وأشكالا عسكرية، منذ أقدم وليم

(40) Runciman, Crusades, I, p. 104

(41) Sxott (M.) Medieval Europe, London 1975, p.160

دوق نورماندى، على غزو إنجلترا عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكا عليها، مع عدم تخليه عن مقاطعته فى فرنسا، وأصبحت القضية من يتبع من ١٢ فمن الناحية الإقطاعية كان لابد أن يغدو وليم ومملكته فى إنجلترا تابعين لملك فرنسا باعتباره فصله الإقطاعى ومن الناحية الواقعية أصبح وليم ملكا لإنجلترا ودانت له الأراضى الفرنسية التى كان يحكمها بالتبعية ومن ثم كان لابد أن يقوم النزاع بين الدولتين، وأن يستمر طويلا طويلا خلال العصور الوسطى.

والعلاقة بين فرنسا وألمانيا لم تكن أحسن حالا من قرينتها، فالعداء التقليدى قائم بين المملكتين منذ انسلخت المناطق الألمانية التى كانت تكون الأجزاء الشرقية من إمبراطورية شارلمان عن السيادة الكارولنجية بعد وفاة آخر أفرادها لويس الطفل سنة ٩١١، ومنطقة اللورين تعتبرها ألمانيا أراضى ألمانية بينما يدين دوقها بالتبعية الإقطاعية لملك فرنسا.

ولم يكن أوربان الثانى بغافل عن كل هذه الأمور، فى الوقت الذى ساقته إليه الظروف السياسية فى الإمبراطورية البيزنطية المسوغ الذى يتمناه ليضرب ضربته والحديدة محمأة؛ ذلك أنه فى المجمع الذى عقده فى بياكنزا فى مارس ١٠٩٥، التقى برسلى الإمبراطور الكسيوس كومننوس اللذين قدموا لتجنيد ما يمكنهم تجنيده من المرتزقة للعمل فى الجيش البيزنطى، وكانت الإمبراطورية قد لجأت إلى هذه السياسة بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١، وراح الكسيوس بجيش جيوشه من أعداد كبيرة من المقاتلين الأوربيين خاصة الإنجليز الذين تم تسريح جيوشهم بعد دخول النورمان إلى إنجلترا بقيادة وليم الفاتح، بالإضافة إلى بعض عناصر البوشناق Petchenegs وقبائل الاستبس الذين عرفوا بـ "الورنك" Varangian، وعرف الطريق الذى يسلكونه من أقصى شمال غرب أوروبا إلى القسطنطينية بالتسمية نفسها، وأصبحت هذه القوات تشكل الحرس الإمبراطورى، القوة الضاربة فى الجيش البيزنطى. وقد لجأ الكسيوس إلى الأسلوب نفسه فى بناء بحريته، إذ عهد إلى جمهورية البندقية بإنشاء أسطوله فى مقابل امتيازات تجارية هائلة فى الموانئ البيزنطية العاصمة الإمبراطورية.

وقد أحسن البابا أوربان الثاني استقبال الوفد، وأصغى إليه باهتمام زائد، بل ودعا مندوبى الإمبراطور للحديث مباشرة إلى حضور المجمع. ومع أن شيئاً من حديثهم لم يبق لنا، إلا أنه من المتوقع أن يكون قد دار حول ما يتعرض له المسيحيون الشرقيون فى الشرق من ويلات، وهو ما استخدمه البابا بعد ذلك فى كليرمونت، وضرورة دفاعهم عن الإمبراطورية باعتبارها درع المسيحية الشرقى. وقد ترك ذلك الحديث تأثيره البعيد فى نفوس السامعين إلا أن أحداً لم يحرك ساكناً، وإن كان الأمل يحدوهم فى أن ينفذ بعض رعاياهم للاشتراك مع إخوانهم الشرقيين فى حماية المسيحية⁽⁴²⁾. غير أن أوربان الثانى أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم، واستدعى من الذاكرة ذلك المشروع الضخم الذى كان قد عزم عليه سلفه جريجورى السابع وذلك بقيادة حملة صليبية، أو بتعبير آخر القيام بحرب مقدسة باتجاه الشرق، يقودها بنفسه، وراح أوربان الثانى يقلب الأمر على كافة وجوهه، وطوال سبعة أشهر وعدة أيام حتى كليرمونت، حمل فكره جنين "حرب مقدسة" يشنها على أعداء الكنيسة فى داخل أوروبا وخارجها، فيتحقق بذلك كل آمال البابوية العراض فى قهر السلطة الزمنية، والسيادة على الكنيسة الشرقية، والزعامة فى عالم المسيحية فيضرب بذلك عصافير ثلاثة بحجر واحد.

وكان البابا يعلم جيداً أن فرنسا سوف تكون التربة الصالحة فى أوروبا للتبشير بدعوته، فالرجل كان فرنسياً ويدرك تماماً الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى يتردى فيها المجتمع الفرنسى، بالإضافة إلى أن فرنسا تعد أشد الدول الأوروبية تعصبا للكاثوليكية، باعتبارها أسبق الممالك الجرمانية التى اعتنقتها منذ أواخر القرن الخامس الميلادى والسنوات الأولى من القرن السادس على عهد ملكها كلوفيس Clovis، لذا أوقع المؤتمرين فى بياكنزا بتأجيل اتخاذ قرار بالحرمان ضد فيليب الأول ملك فرنسا، حتى لا ينتقل الحرمان بالتالى إلى رعيته فلا يستطيع

(42) Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, Madison and Milwaukee, 1964 vols, v.I, pp. 401-402 وأيضاً Runciman, Crusades, I, pp. 104-105 and Setton. Crusades, I, pp. 228-229 وراجع أيضاً - جزءان - سعيد عاشور الحركة الصليبية، جزءان - وراجع أيضاً 132-131

القاهرة 1963، الجزء الأول، ص 132-131

الفرنسيون ثلبيّة دعوته، هذا من ناحية، ومن الأخرى كان يريد أن يبقى على خيط رفيع بينه وبين فيليب يمكنه من خلاله أن يستتبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وإن لم يفلح فيما كان يبتغيه.

وإذا كانت البابوية قد شهرت سلاح الأمراء في وجه السلطة الزمنية، ونجحت في ذلك إلى حد كبير جدا طيلة نصف القرن الأول من عمر الحركة الصليبية الذي امتد قرنين من الزمان، فإنها غيرت خططها من بعد تغييرا جذريا، وقلبتها رأسا على عقب، حيث أضحت الحملات الصليبية التالية كلها، باستثناء الرابعة، حملات ملوك. ويمثل القدر الذي تحقق للبابوية في الدور الأول من الحروب الصليبية بالاعتماد على الأمراء دون الملوك، واستخدامهم سلاحا ضد سادتهم الإقطاعيين - الملوك، أصحاب السلطة الزمنية، نجحت البابوية في الدور الثاني من أدوار هذه الحرب التي تتعتها بـ "المقدسة" نجاحا منقطع النظير، بينما فشل الملوك فشلا ذريعا في مواجهة السلطة البابوية المتزايدة على امتداد ما يزيد على مائة وخمسين عاما تالية إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

وهذا الأمر يبدو واضحا حتى من مجرد الاستقراء السريع لحادثات الزمان خلال تلك الفترة؛ فالنجاح الوحيد الذي تحقق للصليبيين في الشرق كان ما تم على يد جنود الحملة الأولى التي تكونت كلها من أمراء أوروبا، وتمثل ذلك في تكوين الإمارات الصليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، على حين أخذ الفشل يطارد الملوك في كل حملاتهم الآتية من بعد باتجاه الشام أو مصر! حتى إذا أفلحت إحداها وهي السادسة، والتي لا يمكن أن نعتبرها حملة بالمعنى العسكري الصليبي للحملات، وحقق قائدها فردريك الثاني بالمفاوضات ما فشل فيه الملوك بالحرب، أعلنت البابوية براءتها مما فعل، ووصمته بالهرطقة والتجديف، وحرمته من رحمة الكنيسة، وقيدته بقيود اللعنة، وألبت عليه أوروبا كلها، ولم تنزل به وبأبنائه وبأحفاده حتى أودعتهم جميعا بطن الثرى!!

والأدهى والأمر من ذلك فيما يتعلق بالقضية الصليبية في الشرق، أن البابوية - وقد تملك عليها الفزع كل سبيل - راحت تخاطب ملوك بني أيوب في

الشام تنفر إليهم شخص فردريك الثانى، وتكتب إلى الكامل الأيوبى فى مصر تطلب إليه عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور ويعلق "كانتروفتش"^(٤٣) Ernst Kantorowicz على ذلك بقوله: "إن البابا قد انحط إلى هذا الدرك نتيجة اقتناعه أن أى نجاح يحققه ذلك الإمبراطور المحروم سوف يعنى أن حكم الله ليس فى صالح البابوية!! وهذه الحقيقة لم تفت على المؤرخ الإسلامى ابن واصل"^(٤٤) الذى ذكر أن البابا كان يكن كراهية ومقتا شديدين لفردريك وبنيه، وإن كان قد علل ذلك بميلهم إلى المسلمين، ويقول المؤرخ الألمانى "هانز ابرهارد ماير" H.E. Mayer فى كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" كانت مشاركة فردريك الثانى فى الحركة الصليبية تمثل خطرا جسيما على البابوية .. ومن ثم فقد فعل جريجورى التاسع كل ما من شأنه الحيلولة دون نجاح هذه الحملة الصليبية.

هذه الأحداث تفرض على الباحث سؤالا لا مندوحة من طرحه، هل كانت البابوية سعيدة بالإخفاق الذى أصاب الملوك فى حملاتهم الصليبية إلى الشرق؟ أم تراها كانت تضمر فى نفسها تجاههم آمنيات لهم بالفشل حتى ولو كان ذلك على حساب الحركة نفسها؟

أما الأخيرة - فهذه لا سبيل إلى الشك مطلقا فى وجودها من واقع موقعها إزاء فردريك الثانى. ولم يكن هذا هو المثال الوحيد الصارخ لسياسة البابوية تجاه السلطة الزمنية، فسوف نلقى من بعد أمثلة كثيرة على ذلك. ويقول "كانتروفتش" بالحرف الواحد "لقد كان أى نجاح يحققه الإمبراطور يمثل أسوأ كارثة يمكن أن يتوقعها البابا"^(٤٥)، وذلك أن الحركة الصليبية لم تعد سوى مجرد ورقة فى يد البابوية ضمن أوراق اللعبة السياسية التى تلعبها^(٤٦)، بعد أن فقدت صفتها الروحية منذ زمن ليس بالقصير!

(43) Frederick the Second, London 1931, p.184

(٤٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٤٨-٢٥١

(45) Frederick the Second, p. 187

(٤٦) زيبوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكة ١٩٨٦، ص ٣٠٢

أما أن البابوية كانت سعيدة بما حاق بحملات الملوك من فشل، فذاك شيء يحتاج إلى وقفة طويلة نتدارس فيها كيف سارت العلاقات بين البابوات والملوك منذ منتصف القرن الثاني عشر، أي منذ تولى الملوك قيادة الحملات الصليبية، وكيف حرصت البابوية على أن تستغل خروج هذه الحملات لبلوغ كل أهدافها السياسية التي كانت تسعى إلى تحقيقها.

لقد قر في ذهن البابوية منذ زمان بعيد يعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ودنت قطوفه في القرن الحادي عشر أيام البابا جريجوري السابع، أن الله يدبر أمور هذا العالم عن طريق الأقتوم الثاني في الثالوث، المسيح، الذي يتصرف فيه كيف يشاء بواسطة بطرس، الذي يحرك كل شئونه من خلال البابا، الذي لم يعد منذ عهد انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) مجرد خليفة بطرس، بل نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض، بمقتضى نظريته عن الشمس والقمر، البابوية والإمبراطورية. وآمنت البابوية إيماناً لا يتطرق إليه شك أنه وفقاً لذلك لا بد أن يكون هناك سيد واحد لهذا العالم لا يشرك في حكمه أحداً، وأن البابا هو ممثل هذا السيد على الأرض، وأن الصلاح كل الصلاح في الخضوع تماماً لهذا البابا، طريقاً إلى ملكوت السماوات ورفقة المسيح. ومن ثم فإن أي سلطة أخرى تسرى في نفسها القدرة أو تساورها الرغبة في أن تتنافس البابوية أو تتولى عملاً من أعمالها، تضع نفسها خارج الشرعية وتحل بها اللعنة وتطاردها قرارات الحرمان الكنسي، وبالتالي فإن أي نجاح يمكن أن تحققه هذه السلطة الأخرى، وهي هنا بالطبع السلطة الزمنية، يعد تحدياً صارخاً للسلطة الروحية، التي هي دون شك البابوية. ولذا كان أمراً منطقياً أن تعلن البابوية رضائها التام عن حملتي الأمراء، الأولى والرابعة، وأن تقف موقفاً مغايراً تماماً أيضاً من حملات الملوك، بل وأن تضع العراقيل في وجه بعض منها، وأن تضحك في كمها سعيدة بما تحقق من فشل لهذه وغيرها!!

كان الأسلوب الذي لجأت إليه البابوية في هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الصليبية، هو أسلوب الغزل السياسي الذي راحت تلاعب به ملوك أوروبا،

فتستودد إلى هذا وتهجر ذلك، وتؤثر واحد بقربها وترى الآخر عين الجفاء!! ففي عام ١١٤٤ تمكن المسلمون بزعامة عماد الدين زنكي أتابك الموصل من استرداد إمارة الرها، التي كانت رأس جسر غرس في جسم العالم الإسلامي، وكان رد الفعل الأوروبى إزاء ذلك عنيفا بحكم المكانة الدينية التي تحتلها الرها في الروايات المسيحية الباكورة^(٤٧). وتولى القديس برنارد St. Bernard مقدم دير كليرفو Clairvaux الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد المدينة^(٤٨) حتى خلت قرى كثيرة من سكانها، وهى التي عرفت بالحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية نفسها عند الدعوة لهذه الحملة في موقف لا تحسد عليه، وكان عليها أن توزع أوراق لعبتها الساسية بذكاء شديد حتى لا تخسر شيئا؛ فإنجلترا كانت تطحنها آنذاك الحرب الأهلية التي دارت حول العرش بعد وفاة ملكها هنرى الأول في عام ١١٣٥ ولم يكن هو نفسه على وفاق مع الكنيسة جريا على سياسة سلفيه وليم الأول الفاتح وسميه الثانى، وكان اصرار القديس أنسلم Anselm أسقف كانتربورى على استقلال الكنيسة والأراضى التابعة لها عن سلطان الملكية أمرا يرفضه ملوك إنجلترا. وقد استمرت الحرب الأهلية التي أعقبت وفاة هنرى تسعة عشر عاما (١١٣٥-١١٥٤) بين كل من ماتيلدا Matilda ابنة هنرى زوجة كونت انجو Anjou وأنصارها من ناحية، وستفن Stephen كونت بلوا Balois ابن أخ هنرى من ناحية أخرى وإذا كان ستفن قد تمكن من

(٤٧) ترتبط مدينة الرها في ذكورة للمسيحيين دائما بعلاقتها للمبكرة مع المسيحية، وبما فيها من آثار للقديسين ومن هذه الروايات أن الرجال الأربعة المجوس الذين قدموا على المسيح ليلة مولده مهتدين بنجم فى السماء، قدموا من الرها! ومنها أيضا أن أبجلر Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه - وقد علم بالمعجزات التي جرت على يديه أن يبرئه من مرضه فكان من بين ما بعث به للمسيح إليه - على ما تذكر الأسطورة - منديل Mandilon طبع عليه وجه المسيح عندما جفف به ذات يوم عرقه! وقد عاشت - الأساطير حول هذا المنديل وقدرته على شفاء المرض وتيان المعجزات. وقد قام القائد البيزنطى يوحنا كوركولس بنقل هذا المنديل فى سنة ٩٤٤ من الرها إلى القسطنطينية فى موكب مهيب. راجع، هسى (ج.ك.)، والعالم البيزنطى ترجمة رأفت عبد الحميد، ص ١٤٥-١٤٦، حاشية رقم ١٥.

(48) Runciman, Crusades, I, pp. 251-256

السيادة على إنجلترا طوال فترة الحرب الأهلية، إلا أن النجاح في النهاية كان من نصيب هنري الثاني الذي كان كونتا لأنجو^(٤٩).

أما في صقلية فإن روجر الثاني Roger II أقبل في توحيد النورمان جميعا في جنوب إيطاليا وأعلن نفسه ملكا في عام ١١٣٠، وكان هذا في حد ذاته سلوكا غير ودي تجاه البابوية^(٥٠) التي كانت تعتبر صقلية إقطاعا تابعا لها وملكها فصلا يدين بالولاء للجالس على عرش القديس بطرس، كما أن روجر نفسه لم يبد أي مظهر من مظاهر الطاعة أو التوقير تجاه البابوية ومن ثم لم تكن البابوية على استعداد لإبداء أي ترحيب به عندما أعلن عزمه على حمل الصليب مشاركا في الحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية الفرصة سانحة لتأكيد سيادتها فوق الجميع، مستغلة ظروف الدعوة لهذه الحملة الجديدة؛ فبينما نجدها تبدي بصورة ما امتعاضها من تصرفات النورمان في الجنوب الإيطالي تحت زعامة روجر، كانت في الوقت نفسه قد أدخلت في روع الملك الألماني لوثير Lothair (١١٢٥-١١٣٧) وخليفته - الجالس الآن على العرش - كونراد الثالث Conrad III (١١٣٧-١١٢٥) عن طريق المتحدث باسمها القديس برنارد، أن أي شخص يعلن من نفسه ملكا على صقلية، يكون قد أعلن بذلك هجومه على الإمبراطور^(٥١) وكان هذا في جوهره يعني استعداء ملوك ألمانيا - باعتبارهم الأباطرة الرومان - على ملك صقلية روجر الثاني. وهذه قضية لم يكن الأباطرة الرومان في ألمانيا في حاجة إلى من يغذيها لديهم. غير أن كونراد كان عازفا عن الدخول في المشكلة الإيطالية التي كانت جرحا داميا في جسم ألمانيا ظل ينزف طيلة العصور الوسطى^(٥٢). هذا بالإضافة إلى أن نفوذ البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣) لم يكن مستقرا في روما، من جراء الثورة التي أشعلها أرنولد البريشي Arnold of

(49) Barlow, Kingdom of England, pp. 201-234

(50) Haskins (Ch.H.), The Normans in European history, New York 1966, pp. 210-211

(51) Runciman, Crusades, II, p. 251

(٥٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه المشكلة راجع الفصل الثالث.

Brescia وأعلن بها مدينة روما قومونا مستقلا، واضطر البابا إلى الهروب من المدينة في عام ١١٤٧.

وفى ظل هذه الظروف دعت البابوية كونراد الثالث للقيام بحملة صليبية، لا إلى الشرق بل إلى إيطاليا لاختماد الثورة المشتعلة فيها، وإعادة البابا إلى كرسيه الأسقى، والتصدي لتهديدات النورمان في الجنوب، مغازلة كونراد باللقب الإمبراطوري، الذي جرى وراء سحره كل ملوك ألمانيا، لكن كونراد كان في شغل عن ذلك بالصراعات الداخلية في ألمانيا بينه باعتباره أول ملوك أسرة الهوهنتشاوفن، وبين هنري الأسد زعيم عائلة الولفيين Welfs المنافسين التقليديين، وأدرك أن الذهاب إلى إيطاليا يعنى الغرق في مستنقع كبير لا سبيل إلى الخروج منه، خاصة إذا فتح على نفسه باب الصراع مع النورمان. لذا كان هو الوحيد من بين ملوك ألمانيا منذ أوتو الأول (٩٦٢) حتى وفاة فريديك الثاني (١٢٥٠) الذي لم يحمل لقب الإمبراطور. وأثر ذلك، كما أثر المشاركة في الحملة الصليبية المتجهة إلى الشرق لاسترداد الرها، على القيام بحملة صليبية داخلية توجهها البابوية لخدمة مصالحها الخاصة جدا.

واستشعرت البابوية الخطر من قيام حملة صليبية إلى الشرق يتزعمها ملك علماني دون دعوة منها ودون مباركة لها من جانبها، فسارع يوجنيوس الثالث إلى مراسلة لويس السابع Louis VII ملك فرنسا منصبا إياه قائدا عاما للحملة الصليبية المنتظرة مذكرا بماضى الأسلاف المجيد، مثنيا على شجاعة فرسان الفرنجة في الحملة الأولى " ... إن كثيرين عبر جبال الألب، خاصة فرسان فرنسا الأشداء وقرنائهم الإيطاليين، استجابة لنداء سلفنا طيب الذكر أوربان الثاني، قد التقوا على المحبة وكونوا جيشا ضخما واستردوا تلك المدينة المقدسة .. وبنعمة الله وحماسة آبائك الذين جاهدوا لإعلاء كلمة المسيح على الأرض، سادت المسيحية على مناطق واسعة بعد أن تم تخليصها من سيطرة الوثنيين" (٥٣).

(53) EUGENIUS III, Letter to king Louis VII of France and his Subjects, proclaims the Second Crusade on God's Behalf, 1 March 1146

وقد رحب لويس السابع بهذه الدعوة واعتبرها تكريما له دون بقية ملوك أوروبا، وكانت نفسه مهياة لذلك تماما تحت تأثير القديس برنارذ، وشو جر Suger مقم دير القديس دنى St. Denis، والذي كان مستشارا للملك ولأبيه من قبل، واعتبرها أيضا فرصة للتكفير عن الخطيئة التي ارتكبها باحراق كنيسة فترى Vitry فى مقاطعة شمباني Champagne عام ١١٤٧ وبها جموع كثيرة من المصلين ومن ثم فإنه ما أن أعلن كونراد الثالث عزمه على قيادة جيشه حاملا للصليب حتى قابلت البابوية ذلك ببرود كامل، ورفض يوجنيوس الثالث طلب كونراد بالسماح له بلقائه فى الثامن عشر من أبريل ١١٤٧ فى ستراسبورج Strassburg وغادر الملك الألمانى بلاده دون الحصول على مباركة البابا له أو لحملته، بينما التقى مع لويس السابع وباركه خلال الأيام الأولى من أبريل^(٥٤). وهكذا فى وقت واحد قرب إليه ملك فرنسا، وأعرض عن ملك ألمانيا، وأظهر استياءه البالغ بل وعداءه للملك النورمانى روجر الثانى فى صقلية. لاغرو إذن أن كانت السياسة البابوية سببا فى زيادة للجفاء بين ملكى فرنسا وألمانيا قبل أن تخرج الحملة من أوروبا، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين الشعبين الفرنسى والألمانى، على هذا النحو ساهمت البابوية بنصيب كبير جدا فى للفشل الذى لحق بالحملة الثانية فى بلاد الشام، عن طريق سياستها للصليبية التى بذرت بذور الفرقة والانقسام بين قائدى الحملة منذ اليوم الأول لها، فخرج كل منهما بمفرده يقود جيوشه ودب بينهما للخلف فى الشرق، وعاد كل منهما وحده يجر أنيال الخيبة والانكسار!

وتعليقا على ذلك يقول المؤرخ "زابوروف"، "هكذا قدمت الحملة الصليبية الثانية البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الإقطاعيين الغربيين، وأخذت الاعترافات الدينية .. تفقد أهميتها أكثر فأكثر، حتى تنمر مدونوا الأخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية إبان الحملة الصليبية الثانية، ولم تحمل هذه الحملة أكاليل الغار إلى الكنيسة الكاثوليكية. ثم إن التناقضات التى تفاقمت بين دول أوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط، أخذت تعارض بعضها بعضا .. وأسهم انعدام الوفاق والوثام بين زعماء الحملة

(54) Runciman, Crusades, I, p.257

وخلافاتهم مع بارونات بلاد الشام بقسط كبير في فشل الحملة الصليبية الثانية^(٥٥). وإذا كانت البابوية لم تحقق نجاحا سياسيا في الشرق، بسبب الفشل العسكى للحملة، إلا أنها احتفظت لنفسها بالمكانة في أوروبا، بقدرتها على تحريك ملوك أوروبا وجيوشها باتجاه الشرق في حرب صليبية كانت هي الوحيدة التي خرجت منها فائزة!

وللمرة الثانية تمارس البابوية الدور نفسه بعد أن روعتها أنباء استرداد المسلمين للقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، في أعقاب معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧، فمات البابا المسن أوربان الثالث كندا في ٢٠ أكتوبر من العام نفسه، ولم يلبث أن لحق به خلفه جريجورى الثامن في ديسمبر، بعد أن قام بتوجيه دعوة عامة إلى "كل المؤمنين في الغرب" يستثير فيهم حماسة مسيحية كانت قد خبت، ويعددهم وعدا حسنا بالغفران في الآخرة، وحماية ما يملكون في الدنيا أثناء رحلتهم، غير أن القدر لم يمهل حتى يرى قطوف دعوته.

وكان قد مضى الآن على الحملة الصليبية الثانية أربعون عاما، شهدت فيها أوروبا تغييرات جذرية فيما يتعلق بالعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية، إذا أخذت الملكيات الأوروبية تنحوا إلى تدعيم مراكزها في الداخل، يساعدها على ذلك خروج الأمراء في الحرب الصليبية وعدم عودة كثير منهم إلى أوروبا ثانية، إما نتيجة لموت بعضهم، أو لتفضيل بعض آخر البقاء في الشرق، وكان هذا يعنى تحول مساحات واسعة من الأراضى إلى ملكية التاج ثانية. ورغم أن الكنيسة قد أعلنت بعد الحملة الأولى أنها سوف تضع تحت وصايتها كل ما يتعلق بالمحاربين المتجهين إلى الشرق مؤكدة أن نساء وأطفال وممتلكات أولئك الذين يحملون الصليب دفاعا عن المسيح، سوف يحظون بحماية الكنيسة للرومانية المقدسة منذ حملهم الصليب وطوال رحلتهم إلى الشرق ومكثهم هناك وعودتهم أو موتهم^(٥٦).

(٥٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٨٦-١٨٧.

(56) EUGENIUS III, Letter to king VII of France:

GREGORY VIII, Summons Christians to repentance and describes the Crusade as a test imposed by God, October – November 1187; GREGORY VIII accords the Church's Protection to the Crusader Hincó of Zerotin 21 October, 17 December 1187

فى محاولة منها لطمأنة المجرىين، وفى الوقت نفسه لممارسة سيادتها الإقطاعية إلا أنها لم تستطع أن تتصدى للملوك فى ممارسة حقوقهم الإقطاعية أيضا تجاه الأمراء، أفصالهم الإقطاعيين.

يضاف إلى ذلك أن هذه الفترة أيضا شهدت ازدياد فى نشأة المدن ونموها وتطورها، وتجلى هذا بصورة واضحة فى شمالى إيطاليا فيما يعرف بمد العصبه اللومباردية، إلى جانب كل من ألمانيا وفرنسا^(٥٧)، حتى أن فيليب الثانى أوغسطس ملك فرنسا عهد إلى ستة من تجار باريس برعاية شئون مملكته أثناء غيابه فى الحملة الصليبية الثالثة، وأصبحت المدن تمثل سلاحا تتسابق البابوية والسلطة الزمنية فى استخدامه أثناء صراعهما الطويل، وبينما نجح ملوك فرنسا وإنجلترا فى هذا الاستباق فشل ملوك ألمانيا وتركوا هذا السلاح لتستخدمه البابوية ضدهم خاصة مدن الشمال اللومباردى فى إيطاليا.

ويازدهار المدن وازدياد النشاط التجارى وانتشار التعليم والثقافة من جراء الاحتكاك بالمسلمين فى الأندلس وصقلية والشام، ظهرت الجامعات فى أوروبا، واستبقت البابوية والملكيات الأوروبية أيضا لاحتضان هذه الجامعة أو تلك^(٥٨)، وحظيت بعض الجامعات برعاية الكنيسة مثل جامعة باريس التى عملت بدورها على تكريس السيادة البابوية، على حين نمت جامعة بولونيا فى رعاية السلطة الإمبراطورية ودعت بدورها إلى سموها، ومن ثم لعبت الجامعات دورا كبيرا فى التأكيد على مفاهيم معينة فى جانب كل من البابوية أو الإمبراطورية حتى قيل: "إن

(57) Pounds (N.J.G.) An economic history of Medieval Europe, London 1974, pp.223-261; Pirenne (H.), Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 26-39, 50-57; Hodgett (G.A.J.) A social and Economic history of Medieval Europe, London 1972, pp.48-58, 88-105

(٥٨) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها، راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩؛ جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٧١.

الجامعة هي إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحي ووجهته في العصور الوسطى، البابوية والإمبراطورية والجامعات^(٥٩).

ونتيجة لكل ذلك دخل الصراع بين البابوية والإمبراطورية في طور جديد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وراح يأخذ صبغة قانونية، وغدا أبطاله في المقام الأول من رجال القانون، ففي الجانب الكنسي نرى الراهب جراتيان Gratian البولوني يجمع شتات المجموعات القانونية الخاصة بالكنيسة كالتقارير المجمعية والمراسيم البابوية وشذرات من مؤلفات الآباء الأولين ومقتطفات من مجموعة قوانين جوستينيان، وفي هذه الموضوعات أورد جراتيان النصوص المؤيدة والمعارضة على حدة كأن كلا منها دفاع في حد ذاته، وعرفت هذه المجموعة بـ "المبادئ" القانونية Decretum وقد صدرت حوالي عام ١١٤٠^(٦٠) وعليه فليس من الغريب أن نجد معظم بابوات هذين القرنين من كبار القانونيين مثل اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١) وإنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وجريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) وإنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) وقد فسرت هذه المجموعة من بعد من جانب القانوني البولوني باولينوس Paulinus بأن محورها الرئيسي يدور حول وجود إمبراطورية سماوية وأخرى أرضية، واقترح أن تكون الإمبراطورية السماوية هي الاكليروس، بينما الإمبراطورية الأرضية تضم العلمانيين، مؤكداً أن البابا يمتلك السيادة فوق الإمبراطوريتين معا، الإكليروس والعلمانيين، أو بتعبير آخر - الروحية والزمنية^(٦١) وكان هذا تقنياً للنظريات العديدة التي أذاعتها البابوية آنذاك لاثبات سموها وعلو كعبها فوق السلطة الزمنية، مثل نظرية السيفين الروحي والزماني، والنظرية البطرسيية، وما أصر عليه البابا انوسنت الثالث من نظرية الشمس والقمر.

(٥٩) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ٢ ص ١٧٤

(٦٠) كرامسب (ج) وجاكوب (إ) تراث العصور الوسطى، جزءان، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات

المصرية بإشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥، الجزء الثاني، ص ٤٦١-٤٦٢

(61) Tierney, Crisis, pp. 98-117

وفى الوقت نفسه وجدت الإمبراطورية من ينبرى أيضا للدفاع عن مكانتها فى مواجهة البابوية، وكان من بين هؤلاء رجل القانون الرومانى الأشهر إرنريوس Imerius الذى ارتبط اسمه بجامعة بولونيا والتي اكتسبت شهرة واسعة فى الدراسات القانونية، وخلف وراءه مجموعة من التلاميذ المشهورين عرفوا باسم "الدكاترة الأربعة" وهم بولجاروس Bulgarus ومارتينوس Maartinus وهوجو Hugo ويعقوب Jacobus^(٦٢). وقد حرص الإمبراطور فردريك برباروسا (١١٥٢-١١٩٠) أن يضمهم إلى هيئة مستشاريه للاستعانة بهم فى تدعيم مركز السيادة الإمبراطورية. وقد أولى هذا الإمبراطور وحفيده وسميه الثانى جامعة بولونيا عناية فائقة، لا باعتبارهم ملوكا لألمانيا بل لكونهم الأباطرة الرومان، وكان هذا فى المقام الأول - على حد تعبير أولمان^(٦٣) من أهم العوامل فى ازدهار جامعة بولونيا.

هكذا أخذ الفكر البابوى الصليبي يتخذ أبعادا جديدة فى مواجهة السلطة الزمنية التى لم تعدم هى الأخرى مثيلا لهذه الأبعاد، وقرنت البابوية ذلك بأسلوبها العام الذى يقوم على عدم وجود وفاق دائم بين ملوك أوروبا حتى لا يشكلوا ضدها جبهة واحدة. وإذا كان لا بد من قيام هذه الجبهة الزمنية المتحدة - وهو ما لم تسع إلى إيجادها مطلقا - فلنكن وجهتها إلى الخارج فقط، أى باتجاه الشرق - دون الداخل، وتسخيرها لتحقيق مصالحها الخاصة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وهنا عندما ألحت الضرورة على توجيه الدعوة لحملة صليبية جديدة بعد عودة بيت المقدس إلى يد المسلمين، رأينا كيف خاطب جريجورى الثامن "كافة المؤمنين فى الغرب" دون أن يخص بالذكر أحدا من الملوك، فلما اعتلى خليفته كلمنت Clement III العرش البابوى، ولى وجهه مباشرة باتجاه أعظم عواهل أوروبا آنذاك .. الإمبراطور فردريك برباروسا، بينما ترك لجوسياس Josias أسقف صور مهمة لقاء ملكى فرنسا وإنجلترا^(٦٤). والذى يلفت الانتباه للوهلة الأولى أن سلفه الأسبق يوجينوس الثالث أرسل إلى ملك فرنسا لويس السابع لقيادة حملة

(62) Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975, pp.85-98.

(63) Ibid., 85.

(64) Runciman, Crusades, III, p.5.

صليبية باتجاه الشرق - كما علمنا - وأبدى تأففه من مشاركة الملك الألماني كونراد الثالث. بينما كلمنت هذا يسارع بدعوة الإمبراطور الروماني فردريك بربروسا، غاضبا الطرف عن كل من ملكي فرنسا وإنجلترا! أليست هذه السياسة البابوية في التودد إلى واحد دون الآخر، والسعي لدى ملك دون غيره بحسابات دقيقة لمصالحها الخاصة في عالم المسيحية؟! ولننظر كيف ولم كان ذلك؟!

ففي فرنسا كان يقوم ملك قوى هو فيليب الثاني أوغسطس Philip II Augustus الذي امتد حكمه لفترة طويلة من الزمن نجح خلالها في إقامة ملكية قوية^(١٥) كان من أهم جوانب قوتها أنه شدد قبضته على الكنيسة، وأخذ يعمل جاهدا للحد من تدخل البابوية في شئون دولته، وألزم الاكليروس بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات^(١٦)، هذا بالإضافة إلى أنه سعى لإقامة علاقات ودية مع فردريك بربروسا في عام ١١٨٧، أي قبيل الدعوة للحمة الصليبية الثالثة بأشهر قلائل، وكان الهدف منها توحيد الجهود ضد كبار الأمراء الإقطاعيين. ولم يكن التقارب الألماني الفرنسي مما يسعد البابوية في شيء، ورغم أنها سعت بنفسها من بعد إلى إحياء هذا للتقارب ووصلت به إلى مرحلة التحالف بين الملك الفرنسي فيليب أوغسطس وسليل أسرة الهوهنشتاوفن، فردريك الثاني المنافس على العرش بدعم من البابوية ضد أوتو الرابع دوق برنسيوك وابن هنري الأسد اللفي، الذي كان على عدااء كامل مع البابوية!

أما إنجلترا فكان على عرشها هنري الثاني (١١٥٤-١١٨٩) الذي لم يكن يقل عن فيليب أوغسطس قوة وذكاء وطموحا، ولذا نجح هو الآخر في أن يجعل من الملكية الإنجليزية في عهده الطويل أيضا ملكية قوية، وتمثل ذلك اللوحة الأولى منذ إقدامه في أول عهده على هدم ألف ومائة وخمس عشرة قلعة عسكرية مرة واحدة، كان الأمراء الإقطاعيون قد أقاموها منتهزين فرصة الحرب الأهلية (١١٣٥-١١٥٤)، مخالفين بذلك النظام الذي كان قد وضعه وليم الأول الفاتح بعدم بناء أي

(٦٥) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٢٥٩-٢٧٢

(٦٦) نفسه، ص ٢٦٩-٢٧٠

قلعة إلا بإذن خاص من الملك، حتى غدت القلاع الإقطاعية كلها في إنجلترا قلاعاً ملكية. وحاول أيضاً أن يستعيد نفوذ الملكية على الكنيسة بعد أن تعرض للانتقاص على عهد سنتن أيام الحرب الأهلية، وأمل في أن يكون صديقه الحميم توماس بيكيت Thomas Becket الذي عينه أسقفاً للكنيسة كانتروبري، دعماً له في سياسته الكنسية المستقلة الرامية إلى التخلص من النفوذ البابوي، غير أن "بيكيت" أخذ الاتجاه العكسي تماماً وأثبت أنه ابن مخلص للكنيسة وراعياً البابا وليس لسيده الملك الإنجليزي، مما أوجد جفوة واسعة بين الرجلين انتهت في آخر الأمر بمقتل توماس بيكيت في مذبح الكنيسة في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ على يد أربعة من فرسان هنري الثاني، انتدبوا أنفسهم لمهمة اغتياله بعد أن أبدى سيدهم عدم ارتياحه من معارضته المستمرة له^(٦٧). ورغم أن هنري أقسم على براءته من دم "بيكيت"، إلا أنه اضطر في النهاية إلى تقديم تنازلات مهينة للبابوية وإن حاول بعد ذلك في سنوات حكمه التالية أن يخفف من غلوائها. حتى إذا مات، خلفه ابنه الباقي على قيد الحياة من بين إخوته الآخرين، ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩) وأعلن على الفور عقب توليه السلطة عزمه على حمل الصليب والاتجاه إلى الشرق على مسؤوليته الخاصة دون دعوة أو مباركة من البابوية، وهذا ما لا يمكن أن تغفره البابوية أو تسمح به حتى ولو كان في ظل الصليب ومن أجل استعادة البيت المقدس. ولما كان قد أمضى عمره السابق كله دوقاً لأكويتين Aquitaine فقد غداً غريباً عن إنجلترا، ومن ثم لم يمكث فيها من سنوات حكمه العشر إلا سنة واحدة فقط. ولما كان في حاجة ملحة إلى الأموال للإتفاق على مشروعه الصليبي الذي كان متحمساً له تماماً، فقد أمسى على استعداد لبيع كل الوظائف الإدارية والكنسية على السواء لمن يعرض أعلى الأسعار ثمناً للمنصب^(٦٨) ومن ثم فإنه رغم جسارته التي خلعت عليه لقب "قلب الأسد" The Lionhearted إلا أنه لم يكن يلقى قبولا حسناً من البابوية.

Barlow, Kingdom of England., pp.290-304.

(٦٧) راجع تفاصيل هذه الأحداث في

(68) Ibid., pp. 353, 355

ولم يكن الملك الألماني فرديريك بربروسا (1125-1190) ليرضى بأن تكون دولته بأقل من الأخريتين، فرنسا وإنجلترا، ولم يكن هو أيضا أقل من معاصريه طموحا وقوة، ولذا سعى ليجعل من ألمانيا في عهده الطويل أقوى الدول الأوروبية، ولما كان في الوقت نفسه هو الإمبراطور الروماني فقد حرص تماما على أن يكون هذا اللقب له مدلوله العملي وليس مجرد تاج يزدان به مفرق الملوك الألمان. وآمن فرديريك إيمانا كاملا بأنه ليس فقط خليفة الأتويين والسكسون، بل قسطنطين وثيودوسيوس وجوستينيان. واتضح ذلك جليا عند إصداره لقانون تنظيم جامعة بولونيا، إذا أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستينيان⁽⁶⁹⁾، ووجد ضالته في القانون الروماني باعتباره إمبراطورا رومانيا، وعثر في *Digesta* على الإجابة الفلسفية التي ترد على المزاعم البابوية، فهي تعطي القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شيء - لما هو سماوى ولما هو إنسانى، إنه هو الضابط والحاكم والقائد للخير والشر" وتاه عجباً بمركزه الإمبراطورى بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانو، أن إرادته هي القانون⁽⁷⁰⁾. بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فرديريك بربروسا بأنه "هيلدبراند" Hildebrand الإمبراطورية⁽⁷¹⁾. ودعم اتجاهاته هذه عندما وقف موقفا متشددا إزاء محاولة البابا هادريان الرابع Hardian IV (1154-1159) أن يجعل من الإمبراطورية مجرد "إقطاع" Beneficium. فلقد كانت البابوية تضع في اعتبارها بكل انيقين أنها لم تقصد مطلقا من إقامة إمبراطور في الغرب، تحقيق هذا بصورة عملية بحيث يصبح الجالس على العرش إمبراطورا رومانيا بكل ما تعنيه الكلمة، وإنما مجرد موظف كبير بدرجة "حاكم" يحمل فقط لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمبراطور الروماني"، أى مجرد لقب أجوف لا معنى له.

(69) Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, From Constantine to St. Louis, London, 1957, p. 322; Bryce (J.), The holy Roman Empire, London, 1950, p. 169

(70) Davis, op. Cit. p. 325

(71) Tout (T.F.), The Empire and Papacy, London, 1924, p. 247

والوقوف على تفاصيل الصراع البابوى الإمبراطورى، راجع الفصل الأول.

ولم يكن فردريك بالذى يمكن أن يقبل "لعبة" البابوية هذه أو يستسيغها، وكان هذا من بين ما جعل فردريك يخلع لقب "القداسة" على الإمبراطورية، شأن البابوية، لتصبح منذ ذلك التاريخ ١١٥٧ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" كما أسلفنا القول من قبل.

واتساقا مع هذا الفكر الإمبراطورى، يغدو إمبراطور الرومان هو "سيد العالم" (^{٧٢}) Dominus mundi وبالتالي لا يمكن أن يستقيم هذا مع الفكر البابوى القائل هو الآخر بالسيادة على العالم، ولما كان العالم لا يتحمل من وجهة نظر كل منهما وجود سيدين، كان لابد أن تسير العلاقات بين الطرفين من سئ إلى أسوأ، ولقى الإمبراطور فردريك إذلالا فى عام ١١٧٧ فى ميلانو على يد البابا إسكندر الثالث، يكاد يقترب إلى حد ما من إذلال كانوسا الذى سبقه بمائة عام.

ورد" الإمبراطور على الصفحة بأقوى منها عندما خطب ابنه هنرى (السادس) إلى الأميرة كونستانزا Constance ورثشة عرش النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية سنة ١١٨٤، وتم الزواج فى احتفال مهيب شهدته مدينة ميلانو سنة ١١٨٦، ولما رفض البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧) أن يتوج هنرى، أعلن فردريك ابنه إمبراطور شريكا وخلع عليه لقب "القيصر".

وشاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعلى كرسى القديس بطرس بعد وفاة اسكندر الثالث، الذى يعد مرحلة وسطى بين جريجورى السابع وإنوسنت الثالث. ولذا لم يكن أمام البابا الضعيف كلمنت الثالث، إلا أن يخاطب الإمبراطور فردريك فى أمر قيادة حملة صليبية باتجاه الشرق لاسترداد بيت المقدس ثانية، رغم أن برياروسا كان قد جاوز الآن السبعين من عمره، بينما قريناه فيليب أوغسطس الفرنسى وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى فى ريعان شبابهما. ورغم أن الملكين الأخيرين لم يكونا أيضا على وفاق مع البابوية، إلا أن التهديد الأكبر والخطر الجاثم كان يتمثل لها فى الإمبراطور الرومانى، ولما كان البابا الواهن كلمنت الثالث عاجزا عن مواجهة تحديات فردريك برباروسا فى أوروبا،

(72) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 194

فلا ضير فى إغرائه بالابتعاد عنها والاتجاه إلى الشرق رغم ثقل خطوه فى هرمه هذا. ولذا كان من المفيد جدا للبابوية إبعاده الآن عن الساحة الأوروبية ولو إلى حين. وليس من المبالغة فى القول بأن فرحة البابوية بغرق فردريك وموته فى الشرق، لم يكن أقل من فرحة المسلمين بذلك، تلك التى عبر عنها ابن الأثير بعبارة رائعة حين قال، لو أن جيوش الإمبراطور وصلت إلى الشام "لكننا نقول إن مصر والشام كانتا للمسلمين، ولكن الله سلم".

ولم يكن فردريك منتظرا لمثل هذه الدعوة من البابوية، وإن اعتبرها بادرة طيبة فى سياسة وفاق مستحيلة الحدوث، وهو ما لم يكن يدور بذهن البابوية، لكن الاثني عشر رغم العداء الشديد بينهما وجدتا فى هذه الحرب الصليبية فرصة لتحقيق ما تسعى إليه كل منهما، وكانت هناك أرضية مشتركة بينهما رغم هذه الكراهية، تمثلت فى فكرة العالمية الرومانية التى كانت تعنى بالنسبة للبابوية وجود كنيسة عالمية واحدة هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهذا يقتضى فرض السيادة على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية، وكان هذا هدف أساسى للبابوية اشتمل عليه فكرها الصليبي وسعت إلى تحقيقه منذ الدعوة إلى الحملة الأولى. وفى المقابل كانت العالمية الرومانية بالنسبة لفردريك برباروسا تعنى وجود إمبراطور روماني واحد، وتمثل ذلك فى الرسالة شديدة السخرية التى بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس Manuel Comnenos (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هزيمة الأخير فى موقعة ميريوكيفالوم Myriocephalum عام ١١٧٦ على يد سلطان قونية السلجوقى، تتضمن خضوع "ملك اليونان" Rex Graecorum (يعنى الإمبراطور البيزنطى) ومملكته اليونانية Regnum Graeciae للإمبراطور الرومانى (يعنى شخصه) (٧٣).

وعلى هذا النحو تبدو العالمية الرومانية عند كل من البابا وفردريك هى النقطة التى يمكن أن يكون عندها تقاغم بين البابوية والإمبراطورية، حيث أنها تحتم إجهاض الإمبراطورية البيزنطية، إن لم يكن تدميرها وإخضاع كنيسة

(٧٣) هسى، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص ١٩٦

القسطنطينية إن لم يكن القضاء عليها^(٧٤)، غير أن هذا التناغم لم يكن له وجود على الإطلاق في علاقتهما على الأرض الأوروبية، انطلاقاً من إيمان كل منهما المطلق بضرورة وجود سيد واحد يحكم هذا العالم، ولم يكن كلاهما أو أى منهما يقبل بغير هذا بديلاً!! وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة فردريك برباروسا في حملته الصليبية سنة ١١٩٠، واعتلاء ابنه هنرى السادس العرش، لم يلق هذا الأخير أى عون أو تشجيع من البابوية في إعداده للحملة الصليبية التي كان ينوى القيام بها ضد القسطنطينية، لا لشيء إلا أنه كان أعنف من أبيه في سياسته مع البابوية، ولذا عد موته المفاجيء والمبكر في سبتمبر ١١٩٧ في صالح البابوية تماماً^(٧٥)، والتي لم تلبث أن حظيت في العالم التالي مباشرة بشخصية من أقوى الشخصيات التي عرفها كرسيها في العصور الوسطى هو البابا إنوست الثالث.

وبنفس الشاكلة التي جرى بها خروج الحملة الثانية، خرجت أيضاً الثالثة، الإمبراطور الألماني سلك الطريق البرى عبر وسط أوروبا، ولىلقى حتفه غرقاً في أحد أنهار قيليقية Cilicia بأسيا الصغرى، وليتفرق جيشه الضخم في غير انتظام، بينما أمضى ملكا فرنسا وإنجلترا شتاء ١١٩٠/١١٩١ في صقلية، ثم ارتحل كل منهما وحده بجيشه باتجاه عكا، فيليب أولاً وبعده بشهرين قصدها ريتشارد، وهكذا عملت الخلافات السياسية والعسكرية والمصالح الشخصية على عدم التقاء زعماء الحملة على عمل واحد. وكانت عاقبة أمرهم خسراً، إذا لم تحقق الحملة أى نجاح يذكر في الشرق، ولم تكن البابوية راغبة ولا حتى قادرة آنذاك على إيجاد الوفاق بين الزعماء الثلاثة.

ولسنا مبالغين إذا ذهبنا إلى القول أن البابوية لم يكن لها دور جدير بالاعتبار فى هذه الحملة؛ فجريجورى الثامن لم يفعل أكثر من إذاعة دعوة عامة واهنة تتناسب ونهاية العمر التي كان يعيشها، وكلمنت الثالث لم يذهب أبعد من إرسال نداء إلى فردريك برباروسا، ولم يتيسر للبابوية - رغم أن الحادث جلل، أعنى

(74) Ullmann, A short history of the Papacy, pp. 186, 202-203

(75) Ibid. p. 206

ضياح بيت المقدس - شخصية مثل شخصية أوربان الثاني فى الحملة الأولى، أو يوجينوس الثالث فى الحملة الثانية، ولم يتوفر لها داعية موهوب مثل بطرس الناسك فى الأولى أو القديس برنارد فى الثانية. ولهذا يمكن وصفها بأنها حملة علمانية بحتة ليس لها من الصبغة الدينية شئ ولا من الرعاية البابوية نصيب، وهذه الأخيرة جاءت برضى الطرفين، فلا الملوك كانت عندهم الرغبة فى مثل هذه الرعاية، ولا البابوية كانت قادرة على أن تهبها!

وهذا الموقف يفسر لنا ما حدث بعد ذلك على عهد البابا أنوسنت الثالث، الذى شهد عهده (١١٩٨-١٢١٦) الدعوة إلى حملتين صليبيتين هما الرابعة التى حققت حلم البابوية البعيد والعالمية الرومانية الخاصة بها، وذلك باسقاط الإمبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتحويل كنيسة كنيستها إلى كنيسة كاثوليكية. والخامسة التى استهدفت مصر "رأس الأفعى" كما اعتبرها الصليبيون، والتى لقيت الفشل الذريع، وإن كان إنوسنت قد مات قبل أن يرى عطب ثمرة دعوته لهذه الحملة.

لقد حرص إنوسنت الثالث على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه الفتاك الذى يستخدمه فى الداخل والخارج فى مواجهة السلطة الزمنية لتحقيق أعلى قدر، بل الأعلى، للسيادة البابوية، وأصبح دون موارد فى رسالة بعث بها إلى نبلاء تسكانيا Tuscany عن مدى سلطانه، يقول: "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس، كذلك فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية"^(٧٦) وفى إحدى عظاته وصف نفسه بأنه "أدنى من الله وأعظم من البشر، قاضى القضاة الذى لا يقاضيه أحد"^(٧٧)، وفى دعوته للحملة الصليبية الخامسة^(٧٨) فى إبريل ١٢١٣ قال: "نحن نتكلم باعتبارنا نائب المسيح Vicarius Christi"، ولم يعد بذلك خليفة بطرس كما كان أسلافه.

(76) INNOCENT III, Letter to the prefect of Acdrbus and the Nobles of Tuscany

(77) INNOCENT III, Sermon on Consecration of a pope

(78) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade 19-29 April 1213

كان إنوسنت الثالث على اقتناع كامل بأنه "سيد العالم" Dominus mundi بلا منازع، ولم يسمح لأى شئ أن يعوقه عن تحقيق هذا الهدف، ومن ثم أنخرط بشكل عملى فى كل المسائل السياسية والدبلوماسية وكذا الإقطاعية والعائلية فى كل أوروبا، لقد امتزج الفكر الصليبي عند بفكرة السمو، وأصبحت الفكرتان لديه جوهرًا واحدًا وكان هذا واضحًا بصورة جلية فى موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية فى الحملة الصليبية الرابعة عندما هنا زعماءها بالانتصار على "دولة متمرده وكنيسة مارقة، وكذا سياسته تجاه الألبجنسيين Albigensians فى جنوب فرنسا، والجماعات الهرطقية، والشعوب الوثنية، إذ كان ينظر إلى سلوك هؤلاء جميعًا باعتباره جرائم تحاك ضد السيادة الإلهية، وتتدرج بذلك تحت تهمة الخيانة العظمى للبابوية، وكأنه كان يهتدى هنا برشد سلفه الأسبق جريجورى السابع الذى كان يردد دلتما: "من ليس مع الكنيسة الرومانية فليس بكاثوليكي" (٧٩).

ولم يقف دوره فى النزاع الذى دار حول العرش الألمانى بعد وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ عند حد كونه حكما فقط، بل تعداه إلى التدخل السافر بين أطراف هذا النزاع الذى استمر من سنة ١١٩٧ حتى سنة ١٢١٤ (٨٠)، منتقلا فى تأييده بين هذا الجانب وذلك دون مراعاة لأية قواعد أخلاقية فى الالتزام بالعهود باعتباره "تائب المسيح"، بل استخدم هذه المكانة ليفعل ما يحلو له تماما، وحصل من كل طرف من الأطراف الثلاثة، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، وأوتو الرابع الولفى دون برنسويك، وفرديك الثانى ابن هنرى السادس، على وعود بحمل

(79) Ullmann, A short history of the papacy, p.220

(٨٠) فى عام ١٢٠١ وبعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب الأهلية فى ألمانيا صراعا حول العرش، أصدر إنوسنت الثالث وثيقة تعد من أخطر الوثائق البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى للفصل فى هذا النزاع، ورغم أنه قال فى ديباجتها أنه سوف يفصل فى القضية بمقتضى الشرعية وللصلاحيات، إلا أن حكمه فى النهاية جاء بعيدا تماما عن هذين المبدأين ومطابقا كلية لمصالح البابوية للمزيد من التفاصيل راجع، رأفت عبد الحميد، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، ص ٢٠٨-٢١٢ وأيضا رأفت عبد الحميد، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب (فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ١٩٨٣، ص ١٣٤-١٣٦)

الصليب والاتجاه إلى الشرق، بالإضافة إلى تنازلات كبيرة لصالح الأكليروس على حساب سلطة الملك.

وتدخل إنوسنت الثالث في السياسة الفرنسية عندما أقدم فيليب أوغسطس على الزواج من أجنى Agnes ابنة الدوق ميران Meran الصديق الصدوق لفيليب السوابي، وهجر زوجته إنجبورج Ingeborg أخت فلاديمير الثاني Wlademar ملك الدانمرك الذي كان من القلائل المؤيدين لأوتو الرابع، ولا زال البابا بالملك الفرنسي حتى اضطر في النهاية إلى العودة إلى زوجته إنجبورج. ونصب من نفسه حكما فوق قمة الهرم الإقطاعي على رأس جميع الملوك عندما تدخل في النزاع الذي دار بين ملك فرنسا وملك إنجلترا جون؛ وكان ذلك حينما قام فيليب أوغسطس بغزو نورماندى، ولما حاول البابا التدخل لفض هذا الصراع عن طريق وساطة أساقفة فرنسا، احتج فيليب بأنه ليس من حق البابا التدخل في المنازعات الإقطاعية⁽⁸¹⁾، فأجاب البابا بوثيقة على جانب كبير من الأهمية، صدرت عنه في سنة ١٢٠٤، جاء فيها أنه لا يرغب مطلقا في انتهاك الحقوق السيادية الشرعية لملك فرنسا، وليست لديه النية للحكم في القضايا الإقطاعية، ولكن فيليب وقع في الخطيئة، والبابا الحق كل الحق في أن ينظر في مثل هذه الخطايا!! خاصة إذا كانت الحرب قد اندلعت بسبب هذه الخطيئة، ومن واجبات البابا الأساسية رعاية السلام والدفاع عنه⁽⁸²⁾ وكان من بين ما قاله في هذه الوثيقة: "ليس هناك من لا يعلم أن من بين اختصاصات منصبنا "توبيخ" أى ملك مسيحي إذا ما زلت في الخطيئة قدمه، بل وإخضاعه قهرا للعقوبات الكنسية إذا لم يمثل لقراراتنا .. وإذا كان يقال إن الملوك يجب أن يعاملوا معاملة تختلف عن الآخرين، فإننا نعرف أيضا أنه مكتوب في القانون السماوى: "لا تنظروا للوجوه فى القضاء، للصغير كالكبير تسمعون، لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله" (تثنية ١٧/١).

(81) Tierney, Crisis, pp. 127-129

(82) Ibid. pp. 134-135

وبلغ سلطانه فى فرنسا أقصاه عندما وجه الدعوة إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا، ورغم أن فيليب أوغسطس رفض الاشتراك فى هذه الحرب، وأبدى استيائه من التدخل البابوى السافر فى شئون دولته، إلا أن البابا مضى قدما فى خطته، ووعده الأمراء الفرنسيين فى الشمال بالحصول على الأراضى الخاصة بالألبجنسيين فى الجنوب، إقطاعا خاصا لهم^(٨٣)، مما اضطر فيليب فى النهاية إلى المشاركة فى هذه الحملة حتى لا يخرج الأمر من بين يديه داخل بلاده، وحتى لا يترك المسألة برمتها للبابوية. وفى عام ١٢١٥، فى مجمع اللاتيران الرابع، للذى دعا فيه لحملة صليبية جديدة، أعلن البابا توقف الحرب الألبجنسية - وكان قد حقق النصر له - وانتهاءها لمصلحة الحرب فى الأراضى المقدسة.

وفى إنجلترا، على عهد ملكها جون (١١٩٩-١٢١٦) أدت المنازعات التى دارت حول اختيار أسقف لكنيسة كانتربرورى فى سنة ١٢٠٥، واقدام الرهبان على اختيار زعيمهم رينالد Reginald ثم إسقاطه واختيار أسقف بدلا منه بناء على ضغط ملكى، إلى عدم اعتراف إنوسنت الثالث بالاختيارين معا، فلما قدم الرهبان إلى روما أوحى إليهم البابا باختيار أحد زملائه فى جامعة باريس هو "لانجتون Langton سنة ١٢٠٧ فلما رفض جون هذا التدخل السافر فى شئون مملكته لفته البابا درسا قاسيا، إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى ووضع شعبه تحت اللعنة عام ١٢٠٨، مما دفع كثيرا من الرهبان للهروب إلى روما يتضرعون إلى البابا أن يرفع عن إنجلترا هذه اللعنة، ولكن البابا زاد فى غطرسته حين راح يغرى فيليب أوغسطس بغزو إنجلترا ووعده بالاعتراف بسيادته عليها، وكان هذا كفيلا، إلى جانب تمرد الشعب والرهبان والاكليروس بأن يدفع جون إلى قبول أن يكون فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية فى عام ١٢١٣^(٨٤)، والاعتراف بلانجتون أسقفا لكانتربرورى.

(83) INNOCENT III, Letter to King Philip ii of France, 17 November 1207, on the Proclamation of the Albigensian Crusade "Letter to the Faithful in the Provinces of Narbone, Arles, Embrum, Aix and Vienne, 10 March 1208 on the Proclamation of the Albigensian Crusade.

(84) JOHN KING OF ENGLAND, Concession of the kingdom to the pope 1213 Innocent III, Letter to King john of England accepting his Feudal homage, April 1214.

وفى الرسالة التى بعث بها إنوسنت الثالث إلى الملك جون. يعلن فيها قبوله أن يكون ملك إنجلترا فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية، جمع البابا فى كلماته كل ما من شأنه تكريس السلطتين الروحية والزمنية فى يديه، وأضفى على نفسه من الألقاب والسمو ما يجعل الملوك إلى جواره نسيا منسيا، قال: "يسوع المسيح، ملك الملوك، رب كل رب، الكاهن على رتبة" ملكى صادق" Melchisedech الذى جمع للكنيسة الكهانة والملكية، وجعل فوق الجميع رجلا اختاره بنفسه ليكون نائب المسيح على الأرض (يقصد البابا بطبيعة الحال) - ولما كان الجميع قد خروا راعين فى السماء وعلى الأرض لعظمة المسيح، كان حتما مقضيا أن يفعلوا ذلك أيضا مع نائبه من أجل أن يكون هناك شعب واحد وراع وحيد. وعلى كل ملوك الدنيا أن يجلوا ويوقروا هذا النائب طاعة له، مدركين فى الوقت نفسه أن شرعية حكمهم ترتبط كلية بالولاء التام لنائب المسيح على الأرض والسعى إلى مرضاته".

ولم تكن التبعية الفصلية التى أعلنها ملك إنجلترا هى الأولى من نوعها، بل سبقه إليها ملك بلغاريا جوائنزا Joannitza ، وكذلك أرغونة Aragon التى أمست تحت سيادة ملكها بطرس الثانى إقطاعا بابويا فى عام ١٢٠٤ بينما جددت البرتغال وقشتالة العهود الإقطاعية مع البابوية.

أما فى شمال أوروبا وشمالها الشرقى، فمن أجل تأييد الأسقف المبشر ألبرت Albert فى ليفلاند Livland دعا البابا المسيحيين فى سكسونيا ووستفاليا إلى حملة صليبية ضد الوثنيين هناك، وأصبحت هذه سياسة البابوات من بعد، وفى كل من السويد والنرويج أضحت السياسة الإنسنئية عاملا أساسيا فى التدخل فى مسألة اعتلاء العرش والجدل الدائر حوله. وسمح لدوق بوهيميا "أوتوكار" من جانب البابا وموافقة أوتو الرابع ملك ألمانيا، بحمل لقب ملك بكل امتيازاته^(٨٥) وفى المجر تدخلت البابوية فى النزاع الذى دار بين الأخوين "إمريك" Emmeric وأندرو Andrew حول العرش، ويمكن القول باختصار إن للنشاط البابوى شمل أوروبا كلها، وأصبح البلاط البابوى هو المركز الحكومى المشغول دائما فى العالم

(85) INNOCENT III Grants the title of King to the Duke of Pohemia 1204

آنذاك^(٨٦). وهكذا فإن البابوية في مطلع القرن الثالث عشر أصبحت تضم تحت سلطانها أكبر عدد من الأقطاعات الإقطاعيين قل أن تمتعت به أى سلطة زمنية أخرى في أوروبا.

هكذا تضمنت البابوية أن تكون صاحبة اليد العليا في أوروبا كلها خلال العقد الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وساهمت الظروف السياسية التي سادت أوروبا آنذاك في تحقيق هذا السمو البابوي، ولا نستثنى من ذلك فقط إلا فيليب أوغسطس الملك القوى لفرنسا، وإن كان الرجل قد أثر عدم الدخول في مواجهة مع البابوية، ولم تكن شخصية فرديريك الثاني، الملك الألماني والإمبراطور، قد أفسحت مكانا على المسرح السياسي آنئذ. وهكذا خلت الساحة تماما لإنوسنت الثالث أن يفعل ما يحلو له مع كل ممثلي السلطة الزمنية في أوروبا، وأن يندفع بكل قوته الآن ليحرك أوروبا من جديد في حملة صليبية تحقق له الجزء الباقي من حلمه الكبير في السيادة العالمية.

لم يكن غريبا إذن أن يكون الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسي القديس بطرس الحملة الصليبية التي يجب أن تتجه إلى الشرق لاسترداد القدس، واعتبر ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة "العلمانية" التي قادها ملوك أوروبا الثلاثة "العظام" في تحقيق أى نجاح يمكن أن يكون له تأثير على مسيرة الحركة الصليبية.

وكان الصراع الداخلي الذي نشب حول العرش الألماني عقب وفاة هنري السادس الفرصة التي اهتبلها دون توان؛ فبعد أن أصدر وثيقته المشهورة^(٨٧) في عام ١٢٠١ واعترف فيها بـ "صلاحية" أوتو الرابع الولفي للعرش، رغم عدم شرعيته، عاد بعد عامين من الحرب الأهلية التي كان ينفخ فيها باستمرار، بل والتي كانت الوثيقة في جوهرها دعوة لإشغالها، عاد وقد رأى الكفة تميل إلى صالح الهوهنشتاوفن بيدى رضاه عن فيليب السوابي الهوهنشتاوفنى، ولم يكن ذلك

(86) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 215

(87) INNOCENT III, Decision of Innocent III in regard to the disputed election 1201

إنصافا للحق بل طمعا في المصلحة البابوية، ودعما للفكر الصليبي البابوي إذ قدم فيليب وعدا قاطعا على نفسه في وثيقة رسمية⁽⁸⁸⁾ صدرت عنه في عام ١٢٠٣، بحمل الصليب دفاعا عن الأراضي المقدسة، جاء فيها: "من أجل السلام مع الكنيسة، فقد نذرت للرب والقديسين أن أعبر البحر لأحرر الأرض الموعودة من قساوات الوثنيين. ولما جاعني رسول البابا يعرض على السلام مع الكنيسة فإنني نذرت ثانية ووعدت الله وقديسيه وممثلي البابا بكل الإيمان، ودون أى إنفاق، القيام بحملة صليبية من أجل دعم الكنيسة والإمبراطورية، وسوف أبذل كل ما فى وسعى من أجل تحرير هذه الأرض .. وإذا قدر الله لى السيادة على الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) فإننى سوف أخضع الكنيسة اليونانية للكنيسة الرومانية".

والوثيقة تكشف عن مدى استخدام البابوية للفكرة الصليبية – كما قدمنا – سلاحا فتاكا ترهب به خصومها أصحاب السلطة الزمنية، وتلوح لهم به لقاء مساندة عروشهم! هذا بالإضافة إلى أنها تبين أيضا أن البابوية كانت عازمة تماما على بسط سلطانها على الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية وإخالتها ضمن حظيرة الكاثوليكية. ولم يكن فيليب السوابي ليعلم عن ذلك فى وثيقته هذه إلا بوحي من رسل البابا، خاصة وأنه كان مرتبطا بعلاقة مصاهرة مع الكسيوس (الرابع) الذى عزل عن العرش هو وأبوه اسحق الثانى أنجيلوس Isaac II Angelus على يد الكسيوس الثالث Alexius III وحتى لو أنحلنا فى اعتبارنا أن فيليب السوابي قد أعلن ذلك بناء على استتجاد صهره به، فلم يكن من الحصافة التصريح بأنه سوف يخضع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما. ومن ثم فليس هناك شك فى أن هذه العبارات أملاها عليه رسل البابا بوحي من حبرهم الأعظم، ولم يكن فيليب، ليمتطع إلى العرش، وفى مثل هذه الظروف العصيبة، يملك إلا أن يكتب ما يملى عليه!

هذا مثال واحد من أمثلة أخرى جرى تطبيقها مع أوتو الرابع والشاب فردريك الثانى الذى أخذت عليه العهود والمواثيق مرة عند تتويجه ملكا سنة ١٢١٢ والأخرى عند تتويجه إمبراطور عام ١٢٢٠.

(88) PHILIP OF SUABIA, Concessions of Philip to Innocent III 1203

ومن الجدير بالذكر أن البابوية دخلت في تجربة قاسية نتيجة الظروف التي أحاطت بالحملة الصليبية الرابعة؛ ذلك أن كل الجهود المضنية التي بذلها إنوسنت الثالث منذ اعتلائه العرش البابوي، وجهود كلمنت الثالث من قبله، لم تسفر في النهاية إلا عن حملة تضم مجموعة من الأمراء يتزعمهم بلدوين التاسع أمير الفلاندرز، وأخوه هنري، وبونيفاس دي مونتفرات، وثيوت الثالث أمير شامبني، ولويس كونت بلوا. ولم يبق أحد من الملوك بالاشتراك فيها، فملوك ألمانيا كانوا في شغل شاغل بنزاعهم الداخلي عن الالتفات إلى الأرض المقدسة، وفيليب أوغسطس لم يكن راغبا في إعادة التجربة الصليبية مرة أخرى، منصرفا إلى تقوية مركز الملكية في الداخل، وجون الإنجليزي كان يعاني من عداوة أمرائه وأكليروسه ورهبانه والبابوية حتى عام ١٢١٥، والبابوية نفسها تدير حربا صليبية خاصة جدا في ألمانيا بين المتصارعين على العرش، وتشعر بالقلق في الوقت نفسه من جراء الثورة التي تسير قدما في الجنوب الفرنسي من جانب الألبجنسيين. والبنادقة الذين لجأ إليهم أمراء الحملة لنقلهم بسفن البندقية إلى مصر، وجهة الحملة لم يكن يعينهم من أمر الصليب إلا ما يحقق مصالحهم التجارية بعد أن غدت البندقية من أعظم الجمهوريات التجارية الأرسقراطية في البحر المتوسط عندئذ، وكان شعار أدواجهها.. بنادقة أولا وصليبيون ثانيا .. إذا دعت الضرورة! ولم يفق البابا من دسائسه إلا جنود الصليب يدمرون مدينة زارا Zara المسيحية على الشاطئ الأدرياتي المقابل، وكانت تابعة لملك المجر، وأرادتها البندقية لنفسها مركزا تجاريا جديدا متميزا. فانزل اللعنة على من فعلوا ذلك، ثم أعطاهم دبره مرة أخرى متحرفا إلى ما يدور في ألمانيا!

لقد أمضى جنود الصليب ما يزيد على عامين كاملين يقيمون في البندقية بلا عمل، لا يجدون من الملوك من ينفق عليهم وعلى مشروعهم الصليبي، ولا يجدون في البابوية نفسها التي دعت إلى هذا المصير الرعاية المرجوة. وإن كانت البابوية والبنادقة قد اقتطفوا في نهاية الأمر الثمرة كلها، باخضاع الكنيسة الشرقية للكاتوليكية، وابتلاع الأراضي البيزنطية في القسطنطينية وشبه جزيرة المورة

ومنطقة البلوبونيز^(٨٩). وحققت البابوية حلمها البعيد الذي كانت تهدف إليه، وتحققت أمنيات فيليب السوابي التي أملت عليها البابوية.

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة بالنتيجة التي انتهت إليها من تدمير زارا واسقاط القسطنطينية، قد جاءت لتؤكد بما يدع مجالا للشك انحراف الفكرة الصليبية عن أهدافها المعلنة على لسان أوربان الثاني، فإنها في الوقت نفسه تمثل نقطة فاصلة بين المرحلتين الثانية والثالثة من الحركة الصليبية، وإذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بالدعوة العامة للحرب والاستجابة العامة أيضا لها من جانب الأمراء، عصب الحياتين السياسية والاقتصادية في أوروبا آنذاك، والرعاية البابوية الكاملة، وضمت الثانية الدعوة العامة، والنداءات الخاصة الموجهة لملك بعينه، والرعاية البابوية المصحوبة بنشاط السلطة الزمنية، وتمثلت في الحملتين الثانية والثالثة، فإن المرحلة الثالثة والأخيرة اقتصت بالطابع الفردي للحملات الصليبية، فلم تعد أوروبا تخرج عن بكرة أبيها بملوكها وأمرائها وأقنانها، وإنما اقتصر الحرب على ملك بعينه، يقود جيشه، وباتجاه الشرق قاصدا مصر بصفة خاصة. وكان هذا راجعا في المقام الأول إلى أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هي أوزوبيا القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فقد أذن النظام الإقطاعي في إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة بالرحيل، وإن بقي في ألمانيا طويلا من بعد، ونشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية، وازداد عدد المدن الجديدة، وأنشئت الجامعات، وتغيرت الأفكار السائدة في المجتمع الأوروبي بصفة عامة إلى حد ليس بالقليل ومع أن هذه الظواهر كلها قد بدأت تلوح في الأفق منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أنها راحت تمكن لنفسها الآن في الأرض الأوروبية، ولعل من أدق ما قيل في التعبير عن ذلك، ما أورده إرنست باركر في كتابه "الخروب الصليبية" بقوله: "إن تساريخ الحملة الصليبية الرابعة يعد نموذجا لتسلط النزعة العلمانية،

(٨٩) عن الحملة الصليبية الرابعة وظروفها ودور البابوية والبنادقة والألمان فيها راجع كلاري (روبرت) القسطنطينية على يد للصليبيين، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٤؛ فيلها ودوان، مذكرات، ترجمة حسن الحبشي، جده، ١٩٨٢؛ اسحق عبيد، روما وبيزنطية من قطيعة فوشبوش حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، القاهرة، ١٩٧٠.

ومحاولة البابوية فى الوقت نفسه التخلص من ذلك التسلط وتلك السيطرة، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل من توجيه الحروب الصليبية، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريع".

وإزاء هذا الموقف الجديد الذى بدأ واضحا من خلال انعدام الحماسة الدينية إزاء الحرب الصليبية، إبان الحملة الرابعة، كان على البابوية أن تغير هى الأخرى من أسلوبها لتضمن بقاء هذه الفكرة الصليبية قائمة، ولتظل فى الوقت نفسه ممسكة بأوراق اللعبة كلها فى أيديها كما أرادت دائما. بل إن البابوية فى فكرها الصليبي فى هذه المرحلة، جعلت الحرب الصليبية مسألة شخصية بحتة، تمس مكانة البابا وقدسيسة الكنيسة، وتحولت من حرب مقدسة - كما كانت تسميها - إلى عداء شخصى بين البابا وكل من يجرؤ على عصيان أوامره.

ورغم ما بدأ للجميع ساعة سقوط مدينة قسطنطين فى يد جند الصليب اللاتين، من أن هذا يعد انتصارا ساحقا للبابوية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الإمبراطورية والكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، إلا أن هذا كان سرايا سرعان ما تبدد مع كل اقتراب من أرض الواقع، فوجود إمبراطورية لاتينية فى القسطنطينية ومنطقة البلوبونيز، حرم الممتلكات والإمارات الصليبية فى الشام من توالى الإمدادات المتتابعة من أوروبا، بعد أن فضل كثير من الصليبيين الذهاب إلى هذه المملكة الجديدة بعيدا عن المحيط الإسلامى المحيط بهم فى الشام، ومن ثم فقدت هذه الإمارات موردا بشريا متجددا يقدم من أوروبا، فى الوقت الذى تزايدت فيه قوة المسلمين تحت زعامة مصر فى عصرها الأيوبي والمملوكى، بينما تكشف للأوروبيين أن الأرض البيزنطية لم تكن هى أرض الأحلام الموعودة، وخير دليل على صدق ما نذهب إليه هو أن المسلمين استردوا الرها والقدس خلال المائة عام الأولى من مجيء الصليبيين فى الحملة الأولى، بينما تساقطت باقى الممتلكات الصليبية فى أيديهم خلال أقل من ربع قرن من الزمان، فاسترد الظاهر بيبيرس أنطاكية سنة ١٢٦٨م واسترجع المنصور قلاوون طرابلس عام ١٢٨٩، وعادت آخر معاقلم، عكا، فى سنة ١٢٩١ على يد الأشرف خليل بن قلاوون، بينما نجح

البيزنطيون فى استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م. ومن هنا ندرك أن سقوط الإمبراطورية على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لم يكن نعمة بقدر ما كان نقمة على الحركة الصليبية بصفة عامة.

وها هو إنوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة عدت الخامسة، يحاول أن يحشد لها كل طاقات أوروبا، مؤملا أن يعود زمان أوربان الثانى من جديد، لكن دون جدوى. ويضع أمليه كله فى فردريك الثانى، ولكن عبثا كان يحاول يقول موجها خطابيه "للمؤمنين"^(٩٠) إن الأمل ليحدونى أن تكون المساعدة التى تقدم إلى الأراضى المقدسة الآن تفوق بكثير كل ما قدم لها من قبل .. ويجب أن يعلم الجميع أنا نتكلم باعتبارنا "نائب المسيح على الأرض"، وأن كل من يتقاعس عن خدمة المخلص فى هذه الساعات الحرجة، يستوجب اللوم كل اللوم .. لا تترددوا فى أن تقدموا أنفسكم وأموالكم فداء لمن قدم روحه لكم فداء" وأعلن حمايته على كل المشاركين فى الحملة مع التعهد بحماية أسرهم وممتلكاتهم إلى حين عودتهم، ودعا إلى إسقاط فوائد الديون المتركمة على المشتركين فى الحملة، وألزم السلطة الزمنية بأن تتخذ مع اليهود الإجراءات الكفيلة بعدم تحصيل هذه الفوائد، بل ورد ما دفع منها. وكتب إنوسنت الثالث بهذا المعنى رسائل إلى أساقفة كل من "سباير" Spcyer^(٩١) وأوجزبرج^(٩٢) Augsburg، وريينزيرج^(٩٣) Regensbury، ووجه الدعوة لعقد مجمع اللاتيران الرابع فى عام ١٢١٥، وهيا له من أسباب النجاح كل ما يمكنه، وحرص على أن يدعو إليه أيضا العلمانيين تأكيدا لفكره فى مواجهة السلطة الزمنية، وكان من بين الحضور يوحنا التورى John of Tours مندوبا عن ملك بيت المقدس جان دى بريين Jean de Berinne ومندوب عن الإمبراطورية

(90) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade, April 1213

(91) INNOCENT III, Letter to Contrda, dean of speyer, September 1213

(92) INNOCENT III, Letter to the abbot of Salem, the former abbot of Neuburg, the dean of Speyer and the Provost of Augsburg, May 1213

(93) INNOCENT III, Letter to Conrad pishob of Regensburg, September 1213

الرومانية المقدسة، وممثلون لملوك فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، ورسول من الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وملك هنغاريا.

وفى المجمع حدد البابا مصادر تمويل الحملة، حتى لا يحدث ما حدث من قبل للحملة الرابعة، وأوجه الإنفاق الضرورية، وكل ما يتعلق بإجراءات مسارها، وضرورة اتجاهها إلى مصر لتحطيم "رأس الأفعى" هذه، ومن بين هذه التعليمات التي أقرها أنه "يجب على المشاركين أن يطلعونا على خططهم حتى يتسنى لنا أن نمددهم بمندوب بابوي يقدم المشورة لهم. وعلى البطاركة ورؤساء الأساقفة وجميع الكهنة أن يحثوا الملوك والأدواق والأمراء والماركيزات والكونتات والبارونات وعليه القوم الآخرين، وبالتعاون مع العواصم والمدن والقلاع، .. أن يوفرنا عددا ملائما من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومؤنهم التي يحتاجون إليها طيلة ثلاث سنوات قادمة، عوضا عن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الأراضي المقدسة بأنفسهم"^(٩٤).

وهذه كلها تتبئ عن رغبة البابا في أن يدس أنفه في كل أمر من أمور الحملة، بعد أن انتهى من مشاكله في أوروبا ودانت له كلها بالطاعة، حتى لا تتكرر مأساة المحاربين الصليبيين وما جرى لهم في البندقية من قبل. وحتى يضمن نجاح الحملة في الخارج فيكتمل الشق الأخير من سيادته على أراضي الشرق، بعد أوروبا والقسطنطينية.

ويبدو أن الأقدار كانت رجيمة بإنوسنت الثالث، فمات عام ١٢١٦، قبل أن يشهد للنهاية المأساوية التي آل إليها أمر الحملة الصليبية الخامسة في مصر، والتي يعود الفضل في جانب منها إلى صلف وغطرسة المندوب البابوي نفسه^(٩٥) وكانت حلقة في سلسلة الفشل المتلاحق لحملات الملوك!

لقد كان "بلاجيوس" المندوب البابوي صورة متجسدة لشخصية وفكر وأهداف وطموحات سيده الراحل إنوسنت الثالث، فرغم كونه الزعيم الروحي للحملة، إلا

(94) INNOCENT III, Legislates of the Fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

(٩٥) عن الحملة للصليبية الخامسة راجع محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.

أنه أبى إلا أن يكون القائد العسكري لها، ورجل السياسة الذى يدير دفة الأمور أثناء فترة المفاوضات التى جرت بين سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي من ناحية و صليبي الحملة الخامسة من الناحية الأخرى وضاعت تماما بفعاله شخصية الملك جان دى بريين، الذى أمسى من الناحية النظرية فقط، قائد هذه الحملة، ودار الصراع خفيا تارة وسافرا تارات أخرى بين بلاجيوس ومؤيديه من التجار الإيطاليين أصحاب المصالح التجارية الكبرى فى الشام ومصر، ومعهم فرسان الدواية والاسبتارية، وبين الملك وأنصاره، كانت الغلبة خلال جولاتها كلها من نصيب المندوب البابوى، مما دفع جان دى بريين إلى مغادرة دمياط كارها، تاركا ساحة القتال والمفاوضات لبلاجيوس، ولم يعد إلا عندما بدأت الحملة تستعد للزحف جنوبا تجاه القاهرة، خوفا من أن يناله غضب البابوية!! وكانت عجرفة المندوب البابوى وغروره اللذان فاقا كل وصف سببا رئيسيا فيما لحق الحملة الخامسة من هزيمة مروعة كادت تودى بجنودها أجمعين إلى الهلاك المحقق، لولا رحمة الملك الكامل الأيوبي.

والآن .. جاء الدور على الإمبراطور فردريك الثانى ليفى بعهوده التى قطعها على نفسه للبابوية، لكن فردريك كان رافضا فكرة الحرب الصليبية كلها من البداية، غير مؤمن بأسبابها، غير مقتنع بجدواها، خاصة وأنه قد نشأ فى أول عمره فى صقلية، ووقف على الحضارة الإسلامية المتميزة التى خلفها المسلمون هناك، وتضلع فى علوم كثيرة من ميادين المعرفة الإنسانية، وأجاد الحديث بست لغات، كانت العربية واحدة منها، متسامحا فى عصر طفق بالتعصب، حتى عرف بأنه "أعجوبة الدنيا" أو "محير العالم" *mundi Stupor* ولم يكن يقارنه فى ذلك فى زمانه إلا سلطان مصر الكامل الأيوبي، حتى شبههما كانتروفنتش⁽⁹⁶⁾ بأنهما وجهين لعملة واحدة معبرا عن ذلك بقوله: "كان الكامل هو الوجه الشرقى للإمبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان".

(96) Frederick the Second, p. 185.

لهذا ظل فردريك يسوف فى أمر الخروج حاملا الصليب على امتداد خمسة عشر عاما كاملة (١٢١٣-١٢٢٧)، رغم ما قدمته له البابوية من إغراءات مثل تزويجه من يولاندا Yolanda وريثة عرش بيت المقدس سنة ١٢٢٥. حتى إذا أصدر البابا جريجورى التاسع Gregory ضده قرار الحرمان الكنسى فى عام ١٢٢٧ لم يجد بدا من الخروج حاملا الصليب يمينه واللعنة على كتفيه!

وإذا كان فردريك قد نجح عن طريق المفاوضات مع نظيره الملك الكامل، فيما فشل فيه ملوك أوروبا عن طريق الحرب، ورغم الجهود المضنية التى بذلتها البابوية فى أوروبا ولدى ملوك الأيوبيين فى مصر والشام، لتحول دون تحقيق أى نجاح يمكن أن يحرزه الإمبراطور فردريك الثانى، إذ أن البابوية اعتبرت نجاحه فى استرداد القدس ثانية "كارثة صليبية" حلت بساحتها، إذ عادت على يد إمبراطور محروم من رحمة الكنيسة.

لقد كانت البابوية تكره تماما أى نجاح يمكن أن يحققه أى من ملوك أوروبا على الجبهة الصليبية، إذا لم يكن يدين بالولاء الكامل لها والخضوع للتام لسيادتها، بل لم تكن تتورع أو تتردد مطلقا فى أن تضع بنفسها العرائيل فى سبيل نجاح يمكن أن يحققه خارجا عن ظل عرشها حتى ولو كان ذلك ضد المسلمين فى الشرق!! فما بالها الآن وهذا النجاح يتحقق لملك قيئته هى بقيود للعبة وحرمة من رحمتها. وإذا كانت القدس هى القيثارة التى عزفت عليها لحن الأمانى قبل أن تقع فى أيدي قوات الحملة للصليبية الأولى، ثم راحت تترنم على أوتارها بأنشودة الأحزان بعد أن ضاعت من يديها بعد أن استردها صلاح الدين، فإنها كانت على استعداد تام أن تحطم هذه القيثارة تماما إذا كان بقاؤها سوف يحمل لها الخذلان والصغار؛ فحرمان ملك من رحمة الكنيسة ولعنته يعنى غضب السماء عليه، ولا بد أن شعب الكنيسة كله سوف يتساءل .. كيف يمكن أن تبارك السماء ملكا محروما ملعونا، وترضى عن أعماله، فتمنحه - بغير قتال - للقدس مدينة المسيح؟! ومن هنا كانت البابوية تترك تماما أنها فى موقف لا تحسد عليه، وإلا فبم نفسر مراسلاتها لملوك بنى أبوب ترجوهم ألا يقدموا أى عون لفردريك الثانى طريد رحمتها؟!!

من هنا، ودون أى تردد أو حياء، كان لايد أن تعلنها البابوية حربا صليبية طاحنة ضد فردريك الثانى. لقد تصورت يوم وفاة أبيه هنرى السادس أنها ودعت الكابوس الإمبراطورى المتمثل فى شخصه بذراعيه المبسوطتين، إحداهما فى ألمانيا والثانية فى جنوب إيطاليا وصقلية. وتبسمت ضاحكة يوم وقع فردريك على وثيقة انفصال صقلية عن ألمانيا وإعطائها لابنه هنرى (السابع)، وظنت أنها نجحت فى ذلك بعد أن اصطنعت فردريك لنفسها وربته على عينيها. لكن ذلك كله بدا سرايا عندما رأت فكرة العالمية الرومانية التى أرساها فردريك الأول تطل برأسها من جديد فى حفيده وسميه الثانى، وزادت قناعتها عندما أقدم فردريك على تزويج ابنه "إنزيو" Enzo من وريثة عرش سردينيا.

وكان هذا الزواج لطمة قاسية للبابوية، أعاد إلى الأذهان زواج هنرى السادس من كونستانزا! وريثة عرش النورمان فى صقلية. وكانت البابوية - بغض النظر عن الاعتبارات الاستراتيجية - تنظر إلى سردينيا على أنها جزء من ممتلكاتها، طبقا لهبة قسطنطين المزعومة، وليست شيئا يخص الإمبراطور (٩٧) ولذلك كله صممت البابوية على تدمير الهوهنشتاوفن جميعا وليس فردريك وحده، وأعلنتها حربا صليبية ضد كل أفراد هذه الأسرة ومن ينتمى إليها، حتى لقد شبعت هذه المرحلة من الحرب بين فردريك وأبنائه من ناحية والبابوية من الأخرى أنها "حرب إبادة" Guerre a Quetrance لأن المنتصر فيها لن يرحم المهزوم، وهو ما يحدث بالفعل من بعد.

ولم تكن معاهدة سان جرمانو San. Germao التى وقعت بين الطرفين إلا إجراء مؤقتا لانتقاط الأنفاس (٩٨) فى عام ١٢٣٨ كلفت للبابوية أساقفة "فيرزبرج" Werzburg و"ورمز" Worms و"فرسالى" Vercelli و"بارما" Parma بتدبير اتهامات معينة ضد الإمبراطور، وامتلأت الأساقفة للأمر، وقدموا ما عهد به إليهم فى أربعة عشر اتهاما تدور كلها حول هرطقة الإمبراطور وفسقه وفجوره وانتهاكه

(97) Ullman, A short history of the Papacy, p. 257

(98) TREATY of San. GERMANO, 1230

للمقدسات، وحنثه باليمين، وتجديفه، وعدم وفائه بنذره أكثر من مرة. وتناول فرديريك كل هذه الاتهامات بالرد والتفنيد⁽⁹⁹⁾ ولكن دون جدوى.

وكان مما يزعم روما الآن إلى حد الفزع، أن الإمبراطور أرسل بالأسرى اللومبارديين والمرتزة التابعين للبابوية إلى روما، بعد انتصاره عليهم عند كورتنوفو Cortenovo ومعهم أعلامهم وأبواقهم، باعتباره إمبراطورا رومانيا، جريا على عادة الأسلاف الأقدمين، وأعلن في الوقت نفسه عن مشروعات كانت تعد بعيدة المنال، وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان، وبعث الحياة في رومولوس Romulus مؤسس روما، واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان يعيدوا لها بهاءها المندثر⁽¹⁰⁰⁾، وصدقت البابوية، أو لنقل أنها أرادت أن تصدق ذلك خاصة لأنها كانت من وجهة النظر القانونية الرومانية العاصمة الفعلية للإمبراطورية التي يرأسها إمبراطور روماني، وكان هذا تصورا طبيعيا بعد اختفاء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق. وهكذا وجدت البابوية أن الأيديولوجية التي صنعتها بنفسها في خلق إمبراطور في الغرب، قد ارتدت الآن إلى نحرها، ولم تكن تملك إلى ذلك دفعا، فهي التي توجت فرديريك بيدها إمبراطورا. ولم يكن ليلام إذا ما حاول أن يجعل من هذه الأيديولوجية البابوية حقيقة واقعة⁽¹⁰¹⁾.

لذلك ما أن وضع البابا يده على الاتهامات التي طلب من قبل إعدادها، ورفض السماع لدفاع فرديريك عن نفسه، حتى أصدر على الفور في عام ١٢٣٩ قرار الحرمان الكنسي من جديد ضد الإمبراطور، وقرنه بالعنة، وضمنت حيثيات القرار ستة عشر بنداً⁽¹⁰²⁾ تناولت كل الاتهامات السابقة، وكان من بينها أنه استولى على أراضي الداوية والاسبتارية، وأنه كان عائقا في سبيل استعادة الأراضي المقدسة، وهذا الأخير تزييف صريح للحقائق.. ولكن البابوية كانت تنتظر للأمور من وجهة نظر شخصية، وبفكر صليبي خاص بها.

(99) GREGORY IX & FREDERICK II, Papal Charges and Imperial defence 1238

(100) Thompson & Johson, Medieval Europe p. 423

(10) Ullmann, A Short history of the Papacy, p. 257

(102) GREGORY IX, Excommunication of Frederick II 1239

وظفت البابوية تطلق أساقفتها ورجال أكليروسها في أوروبا كلها ليحرضوا ناسها وملوكها ضد فردريك، وكان مجمع ليون المنعقد في عام ١٢٤٥ مظهرة لتأييد البابوية، تقرر فيه التأكيد على حرمان فردريك. ورغم أن الإمبراطور لم يلجأ إلى تعيين بابا منافس، فقد كان صريحا في حربه شريفا في ممارستها، إلا أن البابوية استخدمت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على فردريك، فبدرت مؤامرة لاغتياله في إيطاليا، ودفع البابا الجديد إنوسنت الرابع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنري أمير تورنجيا ليقتل التاج بدلا من فردريك، ودفع ستة آلاف مارك أخرى لشراء أصوات الأمراء النابيين، إلا أن الموت عاجل هنري، فاختر البابا خلفا له وليم كونت هولندا^(١٠٣).

وفي عام ١٢٥٠ مات فردريك الثاني، فتفتست البابوية الصعداء، لكن الحرب الصليبية ظلت مشتتة ضد ولديه كونراد في ألمانيا ومانفرد في صقلية، ثم حفيده كونرادينو Conradino الذي كان صبيا صغيرا لا حول له ولا قوة، غير أن البابوية رأت أن مجرد بقاء أي فرد من أسرة الهوهنشتاوفن على قيد الحياة يعنى أن الحرب الصليبية التي أعلنتها ضدهم لم تنته بعد.

(103) Thompson & Johnson, Medieval Europe, pp. 247-248

• كل الوثائق التي ورد ذكرها في الحواشي السابقة موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:

- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956 .
- Cantor (N.), The Medieval World 300-1300, London 1968.
- Care (R.) & Coulson (H.), A Source book for Medieval Economic History, New York 1965
- Hinderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1925
- Riley – Smith, The Crusades, Idea and Reality 1095 – 1274, Documents of Medieval History, London 1981
- Thatcher (O.J.) & Mc Neal (E.H.) , A source book for Medieval history, New York.
- Tierney (B.), The Crisis of Church and State, 1050-1300, U.S.A. 1964.
- The Middle Ages, vol. I, Sources of Medieval history, New York 1978.

وحتى تصل إلى نهاية إلى هذه الحرب، فقد تم القبض على كونراينو من جانب جيوش البابوية وعمالها في إيطاليا، وسيق إلى نابولي حيث تم إعدامه عام ١٢٦٨.

لقد حققت البابوية في فكرها الصليبي صعودًا واضحًا. لكنها في الوقت نفسه منيت أيضًا بحالة من التخبط بدت جلية في الفترة التالية. لقد راحت البابوية تبشر بالحرب الصليبية وتدعو لها ضد المسيحيين مثل فلاحى "ستينجر" Stedinger في ألمانيا، الذين رفضوا دفع الضرائب لأسقفهم، ومن قبل ضد الألبجنيين في جنوب فرنسا، وقبلها أغمضت عينها - إلا من احتجاج واهن عما حدث ضد أهالى مدينة زارا Zara على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة. أو فى الأراضى المقدسة نفسها ضاعت القدس من بين يديها إلى غير رجعة سنة ١٢٤٤ لصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر. وفوق هذا وذاك فإن الشعوب الأوروبية نفسها أظهرت نوعًا من الضجر الذى لا تخطئه العين تجاه الحركة الصليبية عامة، بعد أن راحت تتكشف النوايا الحقيقية للفكر البابوى الصليبي.

وليس أدل على ذلك كما يقول أولمان Ullmann من أنه على الرغم من أن جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) ظل يحتفظ ببرنامج صليبي بعد الفشل الذى لحق بحملات لويس التاسع فى الشرق، ويعد فرض ضريبة صليبية جديدة فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤، إلا أن الاستجابة الأوروبية لهذا النداء وتلك الضريبة كانت من الناحية العملية صفرا. ولم تلبث الإمارات الصليبية الباقية فى الشرق أن راحت لصالح المسلمين بعد هذا التاريخ بسبعة عشر عامًا. بل إن التنازلات للضخمة التى قدمها الإمبراطوران البيزنطيان يوحنا الخامس ومانويل الثانى على حساب العقيدة والتقاليد البيزنطية العريقة، وذلك بالتخلى عن الأرثوذكسية والتحول إلى الكاثوليكية قرباناً على منبج البابوية، واستعطافاً لمسيحي أوروبا، من أجل مد يد العون للإمبراطورية لمواجهة المد العثمانى الهادر، لم تلق إلا الأمنيات الطيبة وقبض الريح!!

هكذا كان الفكر البابوى الصليبي ركنًا هامًا من أركان السمو للحبر الأعظم الرومانى فى رحلة السمو الطويلة التى قطعتها البابوية فى العصور الوسطى،

وحرصت البابوية على أن تجعل من الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كانت تصبو إليه من علو شأن في مواجهة السلطة الزمنية. ولعل خير تعبير جرى به قلم كاتب معاصر، كان هو ما كتبه متى الباريسى تعليقا على ذلك، يقول: "لقد حاول فرديريك جاهدا حتى أخريات أيامه أن يقيم السلام بينه وبين البابا، لكن البابا أعلن أنه لن يسمح بعودة الإمبراطور إلى مكانته السابقة تحت أى ظرف من الظروف، ومهما قدم من تنازلات. ويؤكد البعض - والكلام ما زال لمتى الباريسى - أن البابا كان يرغب قبل كل شئ في تحطيم فرديريك وتلطيف سمعته وسحقه، متهما إياه بأنه التتين الأعظم حتى يتسنى له بعد ذلك تحطيم ملوك إنجلترا وفرنسا وكل ملوك المسيحية، الذين كان يتحدث عنهم باعتبار كل واحد منهم "ملك" (تصغير ملك)، و"ثعبان صغير"، وذلك بعد أن يوقع الرعب في قلوبهم عن طريق ما يفعله مع فرديريك، وبذا يصبح قادرا على إنهاك قواهم هو وأساقفتهم .. كل ذلك من أجل سعادته هو وحده! إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب في كل هذه الكوارث.. لقد أغشى المال بصيرته .. إن البابا - وهو الأب الروحي - هو المسئول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث في العالم، ولم لا ؟ لقد سار على خطى قسطنطين، وترك درب القديسين!!

وبعد هذا كله فإن باحث في تاريخ الحركة الصليبية لا يستطيع أن ينكر الدور الرئيسي الذى اضطلعت به البابوية على امتداد هذه الحركة؛ فهي التى دعت لها فى البداية، وروجت لها، وكرست جزءا كبيرا من وقتها وجهدها للدعاية لها، وقام البابوات أوربان الثانى ويوجينيوس الثالث وكلمنت الثالث وإنوست الثالث وجريجورى التاسع، بإطلاق أبواق دعاياتهم لخروج الحملات من الأولى إلى السادسة على التوالي، ونقل بطرس الناسك الصيحة التى أطلقها أوربان الثانى يقصد بها الأمراء إلى جموع العامة والدهماء فى الحملة الأولى و"أفرت قرى من ساكنيها" بفعل جهود برنارد مقدم دير كليرفو فى الحملة الثانية. وأعلنت البابوية الغفران التام لما تقدم من الذنوب وما تأخر لمن يحمل الصليب إلى الشرق، وأسبغت نعمها وحمايتها على فرق فرسان الداوية والاسبتارية والتوتون، وفرضت الضرائب وجمعت الأموال، وأعلنت رعايتها للضياع التى يقلع عنها أصحابها

متجهين إلى الأراضى المقدسة من أجل الصليب. هذا كله لا يمكن إنكاره ولكن الذى لا يمكن إنكاره أيضا أن هذا كله جرى شريطة أن يكون تحت عباءة البابوية الفضفاضة التى أراد لها أصحابها أن تسع العالم كله ولما كان ملوك أوروبا الذين خرجوا على رأس جيوشهم فى حملات صليبية، قد فعلوا ذلك خارج هذه العبء بعيدا عنها، باستثناء ملكى فرنسا لويس السابع وسميه التاسع، وكان لابد أن يشملهم الغضب البابوى بدلا من العبء البابوية، فقد وجدت فيهم البابوية منافسا خطيرا يهدد زعامتها لعالم المسيحية، فالنصر فى ميدان الصليب إذا تحقق على أيديهم، نسب لهم دون ذكر لها، وهذا ما يرفضه تماما الجالسون على عرش القديس بطرس فى روما، أو نواب المسيح على الأرض، إذ يجب أن تكون مقاليد الأمور كلها بأيدي هؤلاء، وأن تتجمع بين أصابعهم خيوط اللعبة كلها، ومن هنا كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية سافرة ضدهم.

وكان الإذلال الذى جرى فى كانوسا لهنرى الرابع والإمبراطورية على يد جريجورى السابع والبابوية، علامة بارزة فى هذا السبيل قبل أن تبدأ رحلة أول حملة صليبية إلى الشرق الإسلامى بعشرين عاما.

لقد كان الأمراء هم عصب الحياة السياسية والعسكرية فى أوروبا آنذاك فى ظل النظام الإقطاعى، وكان الملك يستمد قوته فى الناحيتين من وقوف أمرائه إلى جواره، وفى تخليهم عنه كان الخسران المبين، ولما كانت فرنسا هى بؤرة هذا النظام، لذا لا نجد غرابة فى أن الحملات كلها انطلقت منها باستثناء السادسة، وكان أمراؤها وفرسانها هم الدماء التى تجرى فى عروق الحركة الصليبية، وهكذا كان الأمراء فى ألمانيا وإنجلترا، من هنا كانت دعوة أوربان الثانى فى جوهرها إلى الأمراء، المحاربين، وهى دعوة تعنى فى حقيقتها أيضا سحب البساط تماما من تحت أقدام الملوك، أصحاب السلطة الزمنية، الذين أدركوا هم الآخرون مدى خطورة ما أقدمت عليه البابوية، فراحوا بدورهم بدءا من الحملة الثانية يعلنون قيادتهم لأمرائهم فى هذه الحملات الصليبية.

هكذا كانت الحروب الصليبية تسير في اتجاهين .. أولهما الحرب ضد المسلمين فى الشرق، ولكل من البابوية والملوك أهدافهم المتباعدة من وراء هذه الحرب، وثانيهما الحرب التى أعلنتها السلطة الروحية ممثلة فى الكنيسة الرومانية وبابواتها ضد السلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطور والملوك. ولما كانت البابوية قد اعتلت قمة جبل سمو فى كانوسا، فقد بات مستحيلًا بالنسبة لها التخلّى عن هذه المكانة، بل أصبح لزامًا عليها أن تسعى بكل ما تملك إلى تكريس هذا سمو، وما زالت به حتى جعل البابوات من أنفسهم، ليس فقط خلفاء بطرس، بل نواب المسيح على الأرض، وأعلنوها حربًا صليبية شرسة لا رحمة فيها ولا هوادة، ودون موارد، ضد أصحاب السلطة الزمنية فى أوروبا. وهكذا - كما قال متى الباريسى - سارت البابوية على خطى قسطنطين، وتركت درب القديسين!!

الفصل الثالث

المشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية

فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى، وعقارب الزمن تشير إلى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصول مسرحية كان قد جرى إخراجها من قبل بمائة واثنين وستين سنة على وجه التحديد.

ففى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة .. أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧٩٩، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) تاجاً، وليعلنه إمبراطوراً للرومان وكان الباب ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه، مستغنياً بالملك الفرنجى، متخوفاً من ضربات اللومبارد فى الشمال الإيطالى، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقيناً ما سوف يجره عليه هذا التتويج من خلافات قد تصل إلى العداة مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج للرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية، فقد أدعى كاتب سيرته ومادحه إينهارد Einhard فى عمله الباقي Vita Caroli أن شارل العظيم لم يكن يعلم عن هذه الناحية شيئاً^(١) وليس بخاف على أحد أن شارلمان - وأن لم يكن قد خلع على نفسه لقب الإمبراطور حتى تلك اللحظة، إلا أنه كان يحمل جوهره، ويرفل فى حقيقته نتيجة

(١) ناقشت هذه القصة باستفاضة فى تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص ١٦ - ٢٠ ولمزيد من التفاصيل انظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans. by: Lewis Thorpe, in (Two lives of Charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969; G. BaraClough, The Mediaeval Empire. Idea and Reality.

وقد نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه "الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى" ص ٣٨-٤٢، ١٨٣ - ١٨٩. وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 64 - 62 وأيضاً: ديفز، شارلمان، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ص ١٧٢ - ١٨٧.

توسعاته فى فريزيا وسكسونيا، وحروبه مع المسلمين فى الأندلس، ونشاطاته المتعددة فى الداخل خاصة الميدان الثقافى.

والحقيقة التى لا مرأى فيها، أن المناداة بشارل العظيم إمبراطورا فى الغرب على يد البابوية، كان يمثل التتويج العملى لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين مملكة الفرنجة الميروفنجية، ومن بعد الكارولنجية، والكنيسة الرومانية. بدأت منذ زمن طويل يعود إلى عهد كلوفيس Clovis فى أوليات القرن السادس الميلادى عندما تحول للفرنجة وحدهم - والناس فى ذلك الزمان على دين ملوكهم، إلى المسيحية النيقية الكاثوليكية وراء زعيمهم، دون القبائل الجرمانية الأخرى التى آوت إلى المسيحية الأريوسية، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وإيمانا (٢) هذا من ناحية، ومن الأخرى مسيرة العداء السائر قدما، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية، بفعل التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يسر لهيبه حى الخلاف العقيدى الذى كانت الحروب اللايقونية ذروة توهجه، والتى وجدت فيها البابوية فرصتها للخلاص من نفوذ ولو ضئيل لسلطة شرعية تتمثل فى أباطرة بيزنطة، إلى كيان تتبادل وإياه مصالح مشتركة، تمنحه التاج، ويقدم لها الحماية والأمان.

والآن .. تؤدى البابوية بالمهارة نفسها، ذلك الدور، فيبعث البابا الغر يوحنا الثانى عشر صيحات الاستغاثة إلى الملك الألمانى أوتو الأول السكسونى، بعد أن راح اللومبارد يهددون ممتلكاته فى وسط إيطاليا، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة، ويوقعون به الأذى، بعد أن سرى فى المدينة تهتكه وخلاعه مسرى الفضيحة (٣).

(٢) انظر المؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الرابع، الفصل الثانى.

(٣) عن شخصية يوحنا الثانى عشر، راجع Stephenson, Mediaeval history pp. 243 – 245

Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152

أيضا .

ويصفه أورتون Orton بقوله "ليس هناك ذرة من أمل فى انتشاله من فسوقه" انظر C.M.H. VOL. III, P. 161 وعن فساد البابوية بصفة عامة فى القرن العاشر والدور الذى قامت به سيدات المجتمع الرومانى أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marozia وسلطاتهم المباشر ونفوذهم فى اختيار البابوات حسب هواهن، راجع Tout, The Empire and papacy, pp. 29 – 30.

وفى عام ٩٦٢ أتى أوتو الأول روما، وأعاد البابا إلى كرسية الأسقفى، وأعلن بوجوده العسكرى فى مدينة القديس بطرس حمايته لراعى الكنيسة فيها، فكان جزاؤه أن عاد إلى ألمانيا محملا بتاج الإمبراطورية، على غرار ما جرى لشارل العظيم منذ قرن ونصف من الزمان وينيف.

ولم تكن هذه.هى المرة الأولى التى قدم فيها أوتو إلى إيطاليا، لكن مجيئة السابق كانت له أسبابه الخاصة بإيطاليا وألمانيا على قدر سواء، ولكن البابوية لم تكن صاحبة الدعوة آنذاك، ذلك أن الفوضى التى ابتليت بها إيطاليا فى القرن العاشر الميلادى، ووقوعها بين أيدي قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغرافى، كانت من بين العوامل الهامة التى استحثت خطى الملك الألمانى على أن يقود جيشه عبر الألب باتجاه الشمال الإيطالى، فايطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعين خارجها والعابثين فيها، منذ أقدم الإمبراطور جوستيان (٥٢٧ - ٥٦٥) على تدمير قوه مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس الميلادى. ورغم أن خليفته غير المباشر - موريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢) حاول تدعيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحوف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الإيطالى، وذلك عندما أقدم على إقامة أرخونية رافنا، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية لمواجهة كافة الاحتمالات إلا أن وجود نائب إمبراطورى يتضاءل كثيرا أمام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط. كما أن وسط وجنوب إيطاليا لم يكونا بآمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القرن التاسع الميلادى على صقلية، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك. وهكذا باتت إيطاليا، التى لم تعد سوى تعبيراً جغرافياً، موزعة أشلاؤها بين اللومبارديين فى الشمال والوسط، والبيزنطيين فى أبوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط إيطاليا وترنو ببصرها إلى أبعد من ذلك، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة.

فإذا أضفنا إلى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحي الحياة، ثراء منطقة لومبارديا، وخصب الريف الإيطالى، وسحر روما القديمة بكلاسيكيتها والوسيلة بمسيحيتها وقديسيها بطرس وبولس، أيقنا أن هذه كلها كانت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع. وفى هذا السبيل بذلت المحاولات من ناحية رودلف الثانى Rudolf II ملك بوجنديا، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الإيطاليين، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ . بل أن دوقات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب إلى هذه المنطقة، وفى مقدمتهم دوق سوابيا ليودولف Liudolf ابن اوتو الملك الألمانى، وكذا هنرى المشاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم (٤) .

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين إقطاعيين من أقصا أوتو الأول، حتى لو كان أحدهما ابنه. سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كما تقضى سمات النظام الإقطاعى، والملكية الألمانية الانتخابية، ولكنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد إلى الأذهان سيرة سلفة العظيم شارل الكارولنجى، فتلقى تاج الملكية الألمانية فى آخن، وأصر على أن يكون حفل التتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أقصا الإقطاعيين وليس مجرد مراسم شكلية تقليدية (٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليوقف فى وجه أطماع كل من

(٤) انظر: Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49 - 51

Scott, Medieval Europe, p. 71.

Strayer & Munro, op. cit., pp. 152 - 153.

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان، إيرهارد Eberhard دوق فرنكونيا، وهرمان Herman دوق سوابيا. اللورين بالمهام التشريعية ما بين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الإقطاعى، غير أنه الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو، فكبار الأمراء الألمان لابد يكونوا أقصا تابعين يعملون فى خدمة التاج، أما دوقيتهم فليست إلا أقطعا من الملك. انظر:

Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.

Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

وأىضا

ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا، وانتهاز فرصة الاستغاثة التي جاءت من أدلهيد Adelheid أرملة أحد المتنازعين على عرش مملكة لومبارديا، تطلب فيها عونه ضد برنجر Berengar ماركيز إيفريا Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العرش بالزواج من الأرملة الحسناء هذى، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومباردين وترك برنجر فصلا تابعا له فى شمالى إيطاليا.

وإذا كان دافع أوتو الأول للتدخل فى إيطاليا عام ٩٥١ هو محاولته الوقوف فى وجه دوقى سوابيا وبافاريا، والحد من أطماعهما، فإن هذين لم يكونا أقل حرصا على مبادلتة المعاملة بالمثل، فقد كان الأمراء العلمانيون يدركون تماما ما الذى يعينه وجود ملك قوى على العرش الألمانى، ولذا فقد أعلنوا حربا أهلية ضروسا، استهدفت فى المقام الأول الإطاحة بأوتو من على العرش، كما استهدفت فى الوقت ذاته حياته فاندلعت الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا، ودوق اللورين واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ - ٩٥٥) حتى تمكن الملك الألمانى من إخمادها، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسى فى أن يولى أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه.

على أن النتيجة الرئيسية التى خرج بها أوتو من هذه الأحداث، تمثلت فى سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء، وتفتيت الدوقيات الكبيرة، حتى لا يجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة الملكية، بل أن هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيين لتمتد إلى الاكليروس، ذلك أن السياسة الكنيسة التى تبناها أوتو وسار عليها خلفاؤه، وكانت بعينها تلك التى وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) Constantinus I وثيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) Theodosius وجوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) Iustinanus والتى إذا كانت تعترف بحق الكنيسة فى مناقشة المسائل العقيدية ووضع نظمها، فإنها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن باقى الهيئات الأخرى تحت سلطان الإمبراطور الذى عد نفسه مسئولا مسئولية مباشرة أمام الله. ثم أليس بيين الأول Pepin I هو الذى دافع عن البابوية، وعن طريق هبته الشهيرة نشأت الدولة البابوية؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا

البابوات وأثروا الكنيسة؟ ومن ثم فرجال الكنيسة، شأن الموظفين العلمانيين، ليسوا إلا رعايا الإمبراطور، انطلاقاً من إعطاء ما ليقصر لقيصر (٦). وفي المقابل كانت الكنيسة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهى قد نشأت دون مساعدة أحد، وكثيراً ما كتب آباؤهم وعلى رأسهم أوغسطين Augustinus أن المؤسسات السياسية كانت النتيجة التلقائية لخطيئة آدم (٧).

وبناء على ذلك، يمكننا أن نفسر الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفاً لمينز Mainz، عندما حاول الملك الألمانى التدخل فى شئون الكنيسة هناك، فرفع الأسقف الابن الأمر إلى البابوية فى روما. وهناك أدرك أوتو أن أيديه البيضاء على الكنيسة الألمانية ما زالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الكليروس إليه، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما، وأنها ليست مستقلة الشأن، ولذا فقد آمن أن عليه إذا ما أراد السيطرة على الكنيسة الألمانية بعامة أن ييسط سلطانه أولاً على الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر، فإن الطريق إلى الكليروس الألمانى يبدأ من روما.

وروات أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفسها، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لنجدته من مضايقات برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك البابوية. ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ عام ٩٥٧، إلا أن أوتو كان مشغولاً عن البابا بنفسه، يحاول تثبيت دعائم سلطانه، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى إلى روما ليجيب البابا إلى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة للرومانية.

Stephenson, op. cit., p. 247

(٦) انظر :

Pirenne, A history of Europe, pp. 136 - 7; 184-5.

(٧) انظر :

Augustinus, De Civitate Dei, XXII, 22

وراجع:

Paoluci, The political Writings of St. Augustinus, pp. 1-183

وكذلك:

وفى فبراير ٩٦٢، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة واثنتين وستين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألماني، من يد يوحنا الثانى عشر، البابا الرومانى، تاج الإمبراطورية. وهذه الحادثة تشير بما لا يدع مجالا للشك إلى أن أوتو الأول راح يسلك سبيل سلفه العظيم شارل، أو على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان، أن الملكية الألمانية كانت موجهة إلى السير على درب الثيوقراطية الكارولنجية^(٨) مع فارق لا يخفى شأنه، هو أن الكارولنجيين عملوا على جعل الدولة هيئة دينية، بينما حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية^(٩).

على أنه مما تجدر الإشارة إليه بادئ ذى بدء، أن أوتو الأول جاء إلى إيطاليا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول، وأن ظروف ألمانيا الداخلية، ومحاولته المستميتة إقامة ملكية ألمانية قوية، يجلس على عرشها ملك مقدر، يحنى له الأفصال من العلمانيين والاكليروس، الهام إجلالا وتوقيرا، كان الباعث الرئيسى وراء مقدمه على التدخل فى المشكلات الإيطالية. وإذا كانت الدعوة قد جاءت من البابوية، فإن الدافع كان كامنا فى ألمانيا. خاصة وأنها كانت فى القرن العاشر الميلادى تفوق بكثير جاراتها، وأصبحت ذات مركز مرموق فى قيادة عالم المسيحية فى الغرب الأوروبى^(١٠) ومن ثم فلا مجال هنا لما يرمى به بعض

(8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitutions, p. 98.

(9) Pirenne, op. cit., pp. 136 – 7, 184 – 185.

(10) Mayer, The histoeical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة أن ألمانيا كانت أسعد حظا من فرنسا وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر، ففى فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت للكارولنجي وأمراء باريس، بينما تحطمت إيطاليا تحت ضربات النبلاء، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانينيين بعد وفاة للفرد العظيم سنة ٩٩٨ وخاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر، هذا فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار أرتولف الحفيد غير الشرعى للويس الألماني، ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم، وقائد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطان الملكية على الذى طويل، إلا أنه أعطى ألمانيا حكما قويا. وقد عاد الأمراء الألمان إلى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا. انظر:

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3

Strayer & Munro, op. cit., pp. 147 – 149.

C.M.H. Vol III, pp. 311, 323 – 325.

وأياضا

وكذلك

المؤرخين أوتو من لوم معتبرين إياه قد إنساق بذهابه إلى إيطاليا وراء تحقيق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى سلفه العظيم شارل (١١) وإن كان هذا لا ينفي أن أوتو الأول هو الذى وضع أسس سياسة الارتباط الكامل بين إيطاليا وألمانيا، لقرون طويلة سواء فى القوة أو الضعف (١٢) وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك.

فلقد كان حمل لقب "امبراطور الرومان" يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل، فهذا اللقب وإن كان بصورة أخرى - أعنى "الامبراطور الرومانى" بحمله الأباطرة الرومان الشرعيون فى القسطنطينية، وليس لأحد أن ينافسهم فيه. فسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس فى روما القديمة، إلى قسطنطين العظيم فى روما الجديدة، وصولاً إلى الجالس على العرش آنذاك فقفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبداً بوجود إمبراطوريتين رومانيتين، بل هى إمبراطورية واحدة، حتى وأن جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان، بل وأن تنازع على هذا العرش ستة أباطرة (١٢).

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان، وهم أعداء الإمبراطورية، البعيدون حضارياً عن سمتها، قد أدركوا هذه الحقيقة فى جلاء، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أودواكر Odovacar فى عام ٤٧٦ عندما عزل رومولوس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من

(11) Stephenson, op. cit., pp. 245 - 247.

Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163

ودكتور سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى. ج ١. ص ٢٧٥.

(12) Tout, op. cit., p. 32.

Pirenne, op. cit., p. 139.

وأيضاً

(١٣) على عهد الإمبراطور دقلديانوس كان يحكم الإمبراطورية أوغسطسان وقصيران، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه أبناؤه الثلاثة، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ أبناه اركادبوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى، أما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥

الإمبراطورية، وبعث بتاجه وصواجاناه مع وفد من السناتو الروماني، إلى إمبراطور النصف الشرقي مبعوثيه في القسطنطينية، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الإمبراطورية يكفيها الآن وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور في مدينة قسطنطين، ويطلب إليه أن يعتبره نائباً عنه في حكم إيطاليا. وبغض النظر عن النتيجة التي انتهى إليها أمر أودواكر وموقف زينون منه، فهذا بلا شك يعد اعترافاً صريحاً من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الإمبراطورية. ولم يدر بخلد أودواكر، وكان باستطاعته ذلك، ولا بخلد غيره من زعماء بنى جنسه، أن يعلن من نفسه إمبراطور منافساً أو حتى شريكاً، وكان بمقدورهم جميعاً أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيدهم مقاليد الأمور في شطرى الإمبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عام ٣٩٥ (١٤).

وهكذا لم يجرؤ أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عندما تساقطت ولايات النصف الغربي للإمبراطورية في أيديهم إبان القرن الخامس الميلادي وطوال قرون آتية. ومن ناحية ثانية فإن الحروب العسكرية التي خاضها الإمبراطور جوستينيان Iustinianus (٥٢٧ - ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذى الضائعة، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالإمبراطورية الواحدة. ولم يكن خلفاء جوستينيان أقل "رومانية" منه في هذا السبيل وإن اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم.

وهكذا أحجم الجرمان في ضوء (وغيهم) بوحدة الإمبراطورية عن إقامة إمبراطور من بينهم في الغرب، ولكن البابوية اجتزأت عندما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان إمبراطوراً، متحدية بذلك مشاعر الأباطرة الرومان فى القسطنطينية. ولعل هذا هو الذى دعا كاتبه ومؤرخه إينهارد Inhard أن يذكر فى كتابه "حياة شارل" Vita Caroli عدم معرفة الإمبراطور مسبقاً بمسألة التتويج،

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العام لجيوش الإمبراطورية ومقره فى الغرب "ميلانو" حيث توفى ثيودوسيوس. بينما آلت إلى زميله جابناس الجرمانى الأومر فى القسطنطينية.

رغم ما فى هذا القول من مغالطة واضحة (١٥) كى يظهر سيده بمظهر الذى لم يكن طامعا فى شىء من ذلك، حتى لا يجر على دولته عداة القسطنطينية.

والبابا فى روما - بعمله هذا - تخطى حدود سلطانه الروحى وراح يمارس سلطات زمنية غير قانونية، فهو من الناحية الرسمية واحد من رعايا الإمبراطور، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية (١٦) ولعدوات طويلة بين روما والقسطنطينية، زادهما ضراما تأجج نيران العداة تجاه الأيقونات الذى حمل الأباطرة الأيزوريون والعموريون مشعلة، ووقوف روما معارضة متحدية، كل هذا دفع البابوية كى تتوج جرمانيا إمبراطورا للرومان. وكان هذا - أعنى لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمبراطور الرومانى" بالألف واللام والنسبة، هو الذى حمله شارلمان. وحتى على هذا النحو لم يحظ شارل العظيم إلا باعتراف واهن فى عام ٨١٢ من جانب الإمبراطور ميخائيل رانجاب Michael I Rangabe نتيجة لظروف سياسية عصبية كانت تعانيتها الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السناتو فى القسطنطينية لم يصدق عليه، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من الحياة (١٧).

ومن ثم فإن الإمبراطورية البيزنطية وهى فى أوج قوتها وإزدهارها زمن المقدونيين، عصرها الذهبى، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب الرومانى من حق أباطرتها وحدهم دون غيرهم. وكان أوتو الأول يعلم هذه الحقيقة تماما، حتى أن لقبه التقليدى ظل دائما "الإمبراطور العظيم" Imperator Augustus ولم يرد ذكر روما فيه، ولذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصى فحسب. ومع ذلك فإن عملية التتويج وما تبعها من التدخل الرسمى فى شئون إيطاليا، وضعه وجها لوجه أمام الامبراطورية الرومانية "البيزنطية" فى وقت كانت آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوقاس (١٨).

(15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.

(16) Ibid, 28.

(17) Ibid, 17.

(١٨) جوزيف نسيب يوسف، الدولة والإمبراطورية، ص ٢٠٦.

ومع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركز قوى لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى pars Occidentalis أمام قوة المسلمين فى الجنوب الإيطالى وعداء الملوك السكسون، الأباطرة الجدد، ولذا سعت للحفاظ على الحالة الراهنة status que هناك، وشرع الإمبراطور باسل الثانى فى تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى إيطاليا الجنوبيتين اللتين اتحدتا الآن تحت سيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الاكزارك ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية (١٩). ورغم أنه كان أمر بعيد المنال أن يقوم فى الغرب شبيه لتلك الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum القائمة فى القسطنطينية. إلا أن خلفاء أوتو الأول، خاصة سمييه، ولده وحفيده، وهنرى الثانى، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للإدارة البيزنطية فى إيطاليا، وحمل أوتو الثانى لقب إمبراطور الرومان وأصبح ملازما له لا يفارقه، وظهرت عبارة "الإمبراطورية الرومانية" فى المكاتبات الرسمية زمن هنرى الثانى وكونراد الثانى (٢٠). وبات الفرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذى جاء إلى إيطاليا لدوافع ألمانية، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة "الإمبراطورية"، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة "السكسونية" لاوتو الأول، والسياسة (الرومانية) لخلفائه (٢١).

وإذا كان التدخل الألمانى فى إيطاليا ومشكلاتها العديدة، حتى غدا الارتباط بينهما وثيقا، قد أغرى الأباطرة الألمان باصطراع مع "بيزنطة" حول "رومانية" الإمبراطورية فى الغرب، فإن الرغبة الشديدة فى الوصول إلى حوض البحر المتوسط، وهى منطقة لها أصالتها الحضارية، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مع القسطنطينية، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادى عشر، على حوض البحر المتوسط الشرقى بعد انحسار موجة المد الإسلامى فيه آنذاك. وهذا كله يفسر المحاولات العسكرية التى قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثانى فى

(١٩) هسى: العالم البيزنطى، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢٠) جوزيف نسيه يوسف، المرجع السابق. ص ٢٠٨ - ٢٠٩ وأيضاً،

Bryce, op. cit., pp. 142 - 146.

(21) The origins of modern German, p. 62.

جنوب إيطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة، وتوسيع حدود "الإمبراطورية" على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يد المسلمين، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة. وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقت بالإمبراطورية الألمانية، ظهر أثرها واضحا فى أنها قضت لمدة قرنين تاليين على طموح الإمبراطورية الغربية فى السيطرة على وسط إيطاليا وجنوبها (٢٢).

ولم تحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون بذل الجهود الدبلوماسية بين الإمبراطوريتين، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن أوتو الأول ونقفور فوقاس، تضمنها ذلك التقرير Relatio de Legatione Constantinopliana الذى وضعه ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona مبعوث الإمبراطور الألمانى (٢٣)، والذى يتسم بالحقد والسخرية اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا الأسقف - فى اعتقاده - بمظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به. وقد استمرت هذه المفاوضات على عهد يوحنا تزيمسكس Iohannes Tzimisce وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصول عليه، زوجة بيزنطية تدعى ثيوفانو Tcheophano لابنه ووريثه أوتو الثانى، وهى تنتمى لأسرة من كبار ملاك الأراضى، وليست من البيت الإمبراطورى كما كان يشتهى.

وقد ساهمت التغييرات السياسية التى طرأ على خريطة المنطقة فى إزدياد ما بدا أنه تقارب ودى بين الإمبراطوريتين، ذلك أن النورمان وقد ورثوا البيزنطيين والمسلمين على السواء فى جنوب إيطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر، ورثوا أيضا العداء التقليدى تجاه الإمبراطورية الألمانية، ومن ثم أدرك الطرفان أن

(٢٢) M.H. Vol. III, 169. -170. وأيضا دكتور سعد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٧٩ وكذلك دكتور إبراهيم طرخان، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٦٤ وأيضا:

Vasiliev, op. cit. I. p. 328.

(23) Liurptand of Cremona, report, in (Cantor, Med. World pp. 166 – 176)

عليهما أن يعملوا معا ضد عدوهما المشترك، وظهر هذا واضحا في عدة أمور منها، زواج الإمبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠) من برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III (١١٣٩ - ١١٥٢) وهى التى عرفت باسم الإمبراطورة إيرين Lreme عند اقترانها بمونويل^(٢٤). وأدى هذا الزواج السياسى إلى زيادة التقارب بين الرجلين خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التى قادها كونراد الثالث بالاشتراك مع لويس السابع ملك فرنسا، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨، تعهد فيها الأخير برد إيطاليا إلى الإمبراطور كبائنة لايرين (برتا). وإن كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختلفت من المصادر الغربية. وتدور أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة "إيطاليا"، هل تعنى جنوب إيطاليا فحسب أم إيطاليا كلها؟^(٢٥).

غير أن فترة العسل القصيرة هذه سرعان ما انتهت. باعتلاء فردريك بربروسا Fredrick Barbarossa عرش ألمانيا، فقد كان الرجل يطمح فى مملكة النورمان فى صقلية وعرش القسطنطينية على السواء. ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Euginius III على عدم التخلّى عن "أية منطقة" على هذا الساحل "ملك اليونان" Rex Grecorum وهى التسمية التى كان يحلو لفردريك الألمانى أن يخاعها على إمبراطور القسطنطينية، بل أن هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطرة الألمان، كما يتضح من الرسالة التى بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومنينوس سنة ١١٤٢^(٢٦) ومع ذلك فقد حاول الإمبراطور البيزنطى مانويل

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومنينوس (١١١٨ - ١١٤٣) وكونراد، حيث طلب الأول إلى الأخير أن يختار من بين الأميرات الألمان زوجة لابنة مانويل انظر:

Letter of Conrad III to the "Greek emperor John Comnenus 1142

(٢٥) هسى، العالم البيزنطى، ص ١٩٣ وقارن

Ch. Brooke, op. cit., pp. 373 - 4.

(26) Letter of Conrad III to the Greek emperor John Camnenus, 1142; Letter of Frederick I. To Eugene III.

كومنينوس أن تظل روابط المودة قائمة بين الدولتين، فعرض عليه التحالف ضد النورمان في الجنوب، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى، وإن كان السفير البيزنطي قد نجح بدبلوماسيته وأمواله في ضم عدد من المدن على رأسها أنكونا Ancona والمتمردين النورمان، وأخيرا البابوية، مما عده فرديريك خرقا لاتفاقية كونستانس (٢٧).

أمام هذا التغيير في السياسة الألمانية، شن مانويل هجومه على جنوب إيطاليا منتهزا الفرصة التي قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجر الثاني سنة ١١٥٤، غير أنه لم يحقق نجاحا معينا، بل ازدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية من جانب فرديريك برباروسا الذي راح يشجع سلطان قونية السلجوقي على المجاهرة بالعداء للإمبراطور البيزنطي، حتى إذا لقي هذا الهزيمة القاسية عند ميريوكيفالوم Myriocephalum في آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ كتب فرديريك إليه رسالة تقطر احتقارا وتومئ إلى ضرورة خضوع "ملك اليونان" Rex Grecorum للإمبراطور الروماني، يعنى نفسه، وأعلن فرديريك نفسه وريثا للأباطرة الرومان، وادعى أن ذلك يتضمن السيطرة على المملكة اليونانية (٢٨) Regnum Graeciae بل أن فرديريك برباروسا تمادى في سياسته، فكتب إلى ابنه وخليفته في ألمانيا، هنرى السادس، وهو في الشرق يقود جحافلهم ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة، يأمره بإعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية ذاتها، ورغم أن هذا لم يتحقق إلا أنه يدل على مدى العداء بين الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية الألمان. غير أن الظروف السياسية التي راحت تعاني كل منهما منها بإعدت بين عدائهما. إذ لم تمض سنوات قليلة على وفاة فرديريك برباروسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتين جنود الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية عام ١٢٠٤، فخرجت بذلك الإمبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم في نيقية وإبيروس وطرابزون، ولتحل محلها إمبراطورية لاتينية حتى عام ١٢٦١ عندما تمكن ميخائيل الثامن

(27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292 – 294.

(٢٨) هسى، العالم البيزنطي ص ١٩٧.

بالسيولوجوس Michael VIII Palaeologus حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية. بينما دخلت إمبراطورية الألمان فى صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلمانى وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية، بالإضافة إلى المحاولات الجادة التى بذلتها أسرة الهوهنشتا وفن Hohenstaufens فى ألمانيا للسيطرة على مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا، مما يشكل خطرا جسيما على نفوذ البابوية وسلطانها وسط إيطاليا.

وكانت البابوية قد اعترفت فى اتفاقية ملفى Melfi التى عقدت سنة ١٠٥٩، بين نيقولا الثانى Nicholas II من ناحية، وزعيم النورمان، ريتشارد دوق أفرسا Aversa وروبروت جويسكارد بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا، مقابل اعترافهم بالتبعية للبابوية ودفع جزية سنوية (٢٩) ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الراحل ليو التاسع فى التصدى لطموحهم، وهزيمته على أيديهم عند كيفيتاتى Civitate عام ١٠٥٣ وأسرهم لذيهم بضعة شهور. كما أن البابوية وجدت فيهم - ربما - حليفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان فى روما، وعدوها للددود، الإمبراطور الألمانى. وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم إلى جانب أسلحتها الروحية "الحرمان والمضادة" سلاحا زمنيا فتاكا، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءها. وتمثل هذا بصورة واضحة عندما استجد بهم البابا جريجورى السابع للتصدي لقوات هنرى الرابع التى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مرات فى الفترة ما بين عامى ١٠٨١ - ١٠٨٤، وإن كان النورمان، حلفاء البابوية، لم يرعوا للمدينة حرمة، فاستباحوها وعاثوا فيها فسادا، مما دفع جريجورى السابع إلى الارتحال فى حمايتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان.

(29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث .. انظر .

Haskins, Th Normans in European history, pp. 202 – 204.

ولم تلبث هذه العلاقات الودية أن تحولت إلى تحالف رسمي بين البابا هادريان الرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٦، كانت أهم سماته اعتراف البابوية بحق الملك النورمانى فى الأشراف على عملية اختيار رجال الاكليروس فى مملكته (٣٠) وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها، وتناضل من أجله ضد ملوك ألمانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر)، نعى مشكلة التقليد العلمانى ثم السيادة العالمية. ويمكن القول بصورة واضحة أن هذا التحالف كان موجها بصفة رسمية إلى فردريك الأول برباروسا، الإمبراطور الألمانى، الذى لم يكن طموحه يخفى على ملوك النورمان فى صقلية، ولا خطره يغيب عن البابوية. خاصة وأن فردريك كان يعتبر أقاليم جنوب إيطاليا وصقلية جزءا من مملكته الألمانية، مما دفعه إلى إيداء معارضته واحتجابه لدى هادريان الرابع على هذا التحالف، معتبرا إياه نقضا لشروط معاهدة كونستانس Constance التى وقعت بينهما عام ١١٥٣ وتجاهلا لإدعاءاته هذه (٣١). غير أن هادريان الرابع كتب إلى فردريك رسالة مطولة دحض فيها هذه الاتهامات، وأبان عن أن اتفاقه مع النورمان لا يعنى إهانة موجهة إلى الملك الألمانى "لأن الأراضى التى يسيطر عليها وليم، ليست من حق فردريك، بل هى ممتلكات البابوية" (٣٢) مشيرا إلى ما جاء فى اتفاقية "أمافى" باعتبار الممتلكات النورمانية فى الجنوب إقطاعا بابويا.

(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى

Thatcher & McNeal, A Source Book for Mediaeval history, pp. 181 – 183.

(٣١) من المعروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقوق الملك الألمانى فى جنوب إيطاليا وصقلية، راجع نص المعاهدة فى

Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178 – 180.

(٣٢) راجع نص الرسالة فى

Tierney, The crisis of church and state pp, 105 – 106.

Thatcher & McNeal, op. cit, pp. 183 – 185.

وأيضا :

وهذه الرسالة ذات مدلول هام فى تاريخ الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، فقد تضمنت كلمة Beneficia والتى فسرت فى حضرة الإمبراطور فى بيزانسون Besancon سنة ١١٥٧ على أنها تعنى كون الإمبراطورية "إقطاعا" للإمبراطور، وكاد المندوب البابوى يلقى حتفه على يد أنصار فردريك لولا تدخل الأخير بنفسه لمزيد من التفاصيل أنظر:

ورغم ذلك لم يتخل فرديريك برباروسا لحظة واحدة عن ادعاءاته في جنوب إيطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا في هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثاني وريثة عرش النورمان، زوجة لابنه هنري السادس، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة، ولدولته اتساعا، ولسلطانه امتدادا. ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبا تشتهى نفس فرديريك الطموحة، فجرت الظروف السياسية في المنطقة على غير ما كان يتمنى هي أو خلفاؤه، ذلك أن الارتباط الوثيق بين ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرحى، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله. ولما كان طبيعيا أن يعرض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز، وتبذل البابوية الجهد، كل الجهد، في سبيل الحيلولة دون نجاحه، جرى النزاع سافرا أحيانا، خفيا أحيانا أخرى، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما إلى درجة أسفرت في النهاية - كما سنرى - عن تحطيم الإمبراطورية.

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما، والميراث الحضارى المائل لكليهما، فما خلفه المسلمون في صقلية على امتداد قرنين من الزمان، هما فترة مكثهم فيها والذي حرص النورمان، السادة الجدد، على الإفادة منه إلى حد بعيد جدا، كان يعد شيئا مغايرا تماما لما كان عليه الحال في ألمانيا، وبينما كانت الملكية في ألمانيا انتخابية، إذا هي وراثية في صقلية. كما أن القطيعة

=Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.

C.M.H. Vol V, pp. 390 - 391

وأيضاً:

Bryce, op. cit., p. 166; Davis, op. cit., p. 326. وكذلك

وقد أصدر فرديريك بربا روسا بياناً في الشهر التالي مباشرة (أكتوبر ١١٥٧) يفتد فيه - ما اعتقد أنه إدعاءات بابوية، واضطر هارديان الرابع أن يبعث برسالة ثانية إلى الإمبراطور في أوائل ١١٥٨ يوضح فيها أنه لم يعن بكلمة Beneficia "إقطاعاً" بل يعنى بها "جميلاً" أو (عملاً طيباً". راجع بيان فرديريك ورسالة هارديان الثانية في

Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186 - 188.

وعن هذه التفاصيل كلها، راجع الفصل الأول.

الجغرافية بينهما والتي طولها شبه الجزيرة الإيطالية، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما. وبمقتضى المعاهدات التي عقدت بين البابوية وملوك النورمان فى صقلية، كان هؤلاء الأخيرون، أوبعضهم يعتبرون البابوية صاحبة السيادة الإقطاعية فى البلاد، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك بالنسبة لبلادهم، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية، ولعل ما وقع فى بيزانسون^(٣٣) خير دليل على ذلك. وفوق هذا كله وذاك، لم يكن مقت الصقليين لملك ألماني يتولى أمورهم، أقل من كراهية الألمان لذلك إذا ما حدث واعتلى عرشهم صقلى^(٣٤).

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى يعارض انتقال العرش إلى ملوك أسرة الهوهنشتاوفن، وأن يقدم هذا الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشقيق وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩، ضاربا عرض الحائط بحق كونستانس فى ميراث عرش أبيها، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس. بل لقد سعى هذا الحزب إلى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان، فجذب إلى صفه جماعة الولفيين (Welfs (Guelfs فى إيطاليا، الأعداء التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول ملك إنجلترا وهو طريقة إلى الأراضى المقدسة قائدا لجيوش بلاده فى الحملة الصليبية الثالثة، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى.

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الإيطالى الإنجليزى، فقاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١٩١، ووضع على رأسه التاج الإمبراطورى، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه، إلا أن القدر عوضه عن ذلك بأن ساق إليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسره ريتشارد ملك إنجلترا أثناء عودته من الأراضى المقدسة^(٣٥). أو بتعبير آخر - على حد قول فرانك بارلو F. Barlow

(٣٣) راجع الحاشية السابقة.

(٣٤) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى - الجزء الأول، ص ٢٠٧.

(٣٥) وكان ريتشارد قد أسر على يد ليوبولد الرابع Leopold دوق أوستريا سنة ١١٩٢ الذى سلمه بدوره لسيدة الملك الألمانى هنرى السادس فى عام ١١٩٣ بناء على طلبه. للمزيد من التفاصيل انظر:

Barlow, op. cit., pp. 361-364

امتلك هنري السادس - في شخص ريتشارد، مفتاحا من ذهب سوف يفتح أمامه جميع الأبواب الموصدة (٣٦). ذلك أن هنري استغل هذه الفرصة بذكاء كبير، فضمن أن يقف إلى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا، العدو اللدود لملك إنجلترا، وجون الانجليزي أخو ريتشارد، اللذان طالبا هنري أن يبقي عدوهم المشترك في أسره دون فكاك. وإن كان الملك الألماني قد أطلق سراح خصمه بعد عامين من الأسر لقاء فدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك، بالإضافة إلى خمسين ألفا أخرى مقابل أن يحله من وعده بمساعدته ضد النورمان (٣٧). وفي نفس العام حالف الحظ هنري مرة أخرى إذا مات تتكرد النورمانى، فتم تتويج هنري الملك الألماني، وإمبراطور الرومان، ملكا على صقلية وأبوليا وكالابريا.

هكذا امتدت سلطان ألمانيا على جنوب إيطاليا وصقلية، لكنه كان سلطانا مزعزعا، يتهدهه العداء النورمانى الكامن في الجنوب، والفوضى العارمة التي توشك أن تعصف بألمانيا ذاتها، من جراء انشغال ملوكها بطموحهم الخاصة في مملكة الصقليين. والحد البابوي والكرامية المقيمة يحملها الجالس على كرسي القديس بطرس في روما تجاه هذا "الانتشار" الألماني، والذي أوقع البابوية بصورة عملية بين فكي "كماشة" ألمانية إذا كان أمرا طبيعيا أن يرفض البابا تتويج فردريك الثاني ابن هنري السادس وكونستانس، في حياة أبيه، في الوقت الذي قبل الألمان اختياره ملكا على ألمانيا.

ولم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت في ألمانيا عقب وفاة هنري السادس عام ١١٩٧ بين الولفيين بزعامة أوتو الرابع دق برنسويك، والهونشتاوفن تحت قيادة فيليب السوابي، واستمرت ستة عشر عاما كاملة، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة، وتدخل فيها البابا انوسنت الثالث بصورة سافرة، متقلبا بين الجانبين بما يحقق مصالحه الزمنية في ألمانيا وإيطاليا على حد سواء، هذا في الوقت الذي حرصت فيه كونستانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك، غير أن

البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجهت في سنة ١٢٠٩ في أعقاب مقتل فيليب السوابي الهوهنشتاوفنى، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف إلى جانب الأمراء الكارمين لأوتو الرابع، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثانى ملكاً عليهم سنة ١٢١١.

وقد يبدو هذا الأمر غريباً إلى حد كبير، فالبابوية تبذل قصارى جهدها كي تقف عقبة كأداء فى سبيل إتمام أى نوع من الترابط بين ألمانيا ومملكة الصقليتين، والتي آلت إلى ملوك ألمانيا الآن. فإذا بها تساند فردريك الثانى ملك صقلية وترفعه على العرش الألمانى ليضع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية، بعد أن كان قد ثبت الأولى فى صقلية. لكن الغرابة سرعان ما تختفى، إذا أدركنا أن انوسنت الثالث أراد أن يصطنع لنفسه فردريك ويتخذ أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذى راح يمارس - بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعدائه الهوهنشتاوفن تجاه إيطاليا وصقلية والحزب الرومانى. ولا شك دار بخلده أن فردريك سوف يحمل له فى نفسه كل التقدير بعد أن أعاد إليه حقاً كان يبدو بعيد المنال. غير أن الأحداث خيبت فال البابوية.

فمنذ نجاح هنرى السادس فى فرض سيادته على جنوب إيطاليا وصقلية عام ١١٩٤، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعى لعرش النورمان، ورثوا معه أيضاً تطلعهم إلى السيادة على عالم البحر المتوسط، وصادف ذلك هوى كبيراً فى نفس فردريك الثانى بصفة خاصة، ولم لا وقد أمضى سنى عمره الأولى فى شوارع صقلية، وأجاد العربية، ونهل من الثقافة الإسلامية، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطموح الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات، وتعمق فى بعض من العلوم، حتى صار "محير العالم" أو (أعجوبة الدنيا) Stupor Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانية التى انحرفت بالسياسة الإمبراطورية عن دورها الرئيسية. لقد كان الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والإمبراطورية

unio regni adimperium الذى أرادَه فرديريك، السبب المباشر فى انحراف هذه السياسة الإمبراطورية عن جادة الصواب (٣٨).

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والإمبراطورية، وفتح باب الصراع على مصراعيه، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب هذه الجولة الأخيرة، وإلا كان فيها نهايتها، فحشدت أسلحتها، وسعرت لهيب نيرانها، وأقدم البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عزل فرديريك، فلما حيل بين المؤتمرين والحضور، بجهود الملك، جدد البابا إنوسنت الرابع الدعوة ثانية فى سنة ١٢٤٤ والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل فرديريك الثانى (٣٩). وشهدت السنوات الخمس الباقية من عمر الإمبراطور عددا من الثورات فى شمال إيطاليا وجنوبها، وحركات تمرد فى داخل ألمانيا ذاتها، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على ألمانيا. ورغم أن فرديريك حقق بعض الانتصارات فى شمال إيطاليا، ولقى الأمير الهولندى الهزيمة على يد كونراد ابن فرديريك، إلا أن ذلك لم يجد نفعا حيث مات الإمبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠ (٤٠) وعندها تنفست البابوية الصعداء، ورأت فى موته فرصتها السانحة للإجهاز على الإمبراطورية، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة عالية وهى ترى مانفرد Manfred الابن غير الشرعى لفرديريك ملكا على عرش صقلية، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الرابع، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهذا ما كانت تطمح إليه البابوية، نعى تقطيع أوصال الإمبراطورية، وفسح عرى الارتباط بين ألمانيا وإيطاليا، وهو ما جاهد فرديريك برباروسا وهنرى السادس وفرديريك الثانى للحيلولة دون وقوعه.

(38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى Tirney, The Middle Ages, Vol. I. Source of Medieval history, p. 272.

(40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426 – 428.

وإذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقيق نصرها الكامل، فقد أهتبت ما سنح لها على التو، وراحت تعرض عرش صقلية على لاموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك إنجلترا، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة، وإن كان إلى حين، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، بقبول العرش الصقلى باعتباره إقطاعا بابويا. ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفتو Benevento قلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، كونرادينو، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده، وهى مهمة صعبة وثقيلة، لم يكن أسعد حظا من عمه، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨. وقد سبق الصبى، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره، إلى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والإمبراطورية أمرا لا سبيل إلى الشك فيه أو العودة إليه.

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تحيط بالبابوية، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة، تنسى كلية مهامها الروحية ورسالتها الرعوية، وتضع نصب أعينها شيئا واحدا وهدفا محددًا هو السيادة الزمنية على العالم المسيحى، وهو شئ كانت قد جعلته مباحا منذ أسقط قناع التقليد العلمانى بمقتضى اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى Calixtus II وحققت فى ذلك نجاحا لا بأس به عندما تزعمت عالم المسيحية فى الغرب وقادته لحرب المسلمين فى الشرق تحت راية الصليب، واعلنت سمته نجاحها عندما أسقط جنود الصليب فى الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية، درع المسيحية فى الشرق وحامية الأرثوذكسية فى مطلع القرن الثالث عشر (١٢٠٤)، إلى الحد الذى دفع البابا أنوسنت الثالث إلى الإشادة فى رسائله إلى قادة الحملة

بغزوهم للقسطنطينية، واعتباره فتحاً عظيماً ونصراً للبابوية نفسها على "إمبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة" (٤١).

غير أن رياح النصف الثاني من القرن نفسه، حملت لها نذير الكوارث المتتالية لهذا الامتداد الهائل لنفوذها في الشرق المسيحي والإمارات اللاتينية في الشرق الإسلامي، بل والحركة الصليبية ذاتها، فقد لقي لويس التاسع الملك الفرنسي، والقديس، هزيمة مروعة في مصر عام ١٢٥٠، وتلك كانت ضربة قاصمة للصليبية في أوروبا، إذا لم تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت إلى الظل الروح الصليبية نفسها. ولم تغلح جهود لويس في بلاد الشام خلال أربع سنوات قضائها، وكان في حملته على شمال أفريقيا سنة ١٢٧٠، حتفه (٤٢) وقبل ذلك بسنوات قلائل، تلقت البابوية صفتين متاليتين، إذا فقدت في عام ١٢٦١ سيادتها على القسطنطينية، حين تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus من استرداد العاصمة البيزنطية والقضاء على الإمبراطورية اللاتينية وإقامة أسقف أرثوذكسي ثانية في كنيسة القسطنطينية. ولم يأت مايو عام ١٢٦٨ حتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس، سلطان مصر المملوكي، قد استردوا إمارة إنطاكية الصليبية، ولم يبق للغرب اللاتيني في الشرق إلا طرابلس وبعض القلاع على ساحل بلاد الشام. ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها البابوية جيداً، فصممت على أن تحقق لنفسها نصراً على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التي قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبي.

(٤١) راجع دكتور اسحق عبيد، الدولة البيزنطية في عصر باليولوجوس ص ١٣ - ١٤.

(٤٢) في عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة على تونس، غير أنه توفي على أبواب قرطاج، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية، في وقت كانت فيه تحتضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسي معاصر يدعى رتوبوف Rutebeuf يقول فيها "أن من حماقة أن يخاطر الإنسان في حرب دينية خارج بلاده إذا كان بوسع أن يتصل بالله وهو في وطنه يعيش في سلام. ويسخر للشاعر في القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لايتراز الأموال. راجع مذكرات جوانفيل عن القديس لويس، ترجمة وتعلق دكتور حسن حبشي، ص ٣١٠ - ٣١٣ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل إليه أمر الإمبراطورية الألمانية من جراء تورطها في إيطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد. وإذا كانت السياسة الألمانية في إيطاليا على النحو الذى رأيناه - قد أدت بالنفوذ الألمانى فى الخارج إلى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتي انتهت بإعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن، تلك الأسرة التى تمثل العظمة الإقطاعية فى العصور الوسطى، فكيف يمكن أن يكون عليه الحال فى ألمانيا ذاتها من الداخل. وإذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقف العدائى السافر تجاه السياسة الألمانية فى إيطاليا وصقلية، فإن ما فعلته داخل ألمانيا كان أشد وأكثى. وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا.

فقد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول، مهمة الإصلاح الكنسى بعد أن تردت البابوية خلال القرون من السابع إلى الثالث الأول من الحادى عشر فى هاوية الانحلال الكامل، غير أن مفهوم الإصلاح كان يختلف عند كل منهما عن الآخر. فالإصلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى تطهر الكنيسة من أمراضها الداخلية مثل السيمونية وزواج رجال الدين، وأن يعلى كرسى القديس بطرس فى روما، بإبوات مصلحون، شريطة أن يكون للإمبراطور السلطة الكاملة على شئونها، والتدخل المباشر فى اختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا، وهذا واضح تماما فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو إمبراطورا عام ٩٦٢، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبيه وتحوله إلى جانب برنغار اللومباردى عدو الملك الألمانى، والقاضية بعدم الإقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما إلا بموافقة الإمبراطور^(٤٣) ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب البابوية باسم جريجورى الخامس، وهو أول بابا ألمانى يعلى الكرسى البطرسي، ومن أشد المتحمسين لحركة الإصلاح الكنسى، فلما قبض صغيرا، عين الإمبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا

(43) UImann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118 - 119.

رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطلق أيضا أقدم الإمبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين، ولم ير فى ذلك شيئا سوى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وإن كان من وجهة النظر الإمبراطورية (٤٤).

أما البابوية فقد كان لها رأى آخر، فالإصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدى العلمانيين، أيا كان شأنهم أو مراتبهم، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا. واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الإمبراطورية فى إيطاليا، من جراء غض العمر الذى كان يعانى به الإمبراطور الطفل هنرى الرابع، إذا أقدم الإكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas أسقفا لروما، وكان أهم ما تضمنه قرار الاختيار، أن تتم عملية رسم البابا فى روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج (٤٥) بل تعدى الأمر ذلك إلى تحقيق العدالة والصلاح فى المجتمع. والإصلاح الذى تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع، الأنموذج الحقيقى للسلطة البابوية المطلقة، وهو الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا، والخروج عليه بعد - حسب تعبيره - ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية (٤٦) وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتباره خليفة القديس بطرس، ونائبه على الأرض، واستخدم آية الإنجيل التى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا إياه صخرته التى سيبنى عليها كنيسته، مخولا إياه سلطة الربط والحل على الأرض، وراح يباشر سلطات زمنية واسعة، زادت النار ضراما فى آتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى. ويمقتضى ذلك كتب إلى

(44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122 – 124.

(45) The Pepal election decree of Nicholas II.

Ullmann, op. cit., pp. 135 - 138

وللمزيد من التفاصيل انظر.

(46) Letter of Gregory VII to Henry IV.

هنرى الرابع يطلب إليه عزل خمسة من مستشاريه السياسيين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين^(٤٧) ولم ير جريجورى فى ذلك غضاضة أو خروجاً على حدود سلطانه. بل إن الإذلال الذى لقيه هنرى الرابع على يد هذا البابا فى كانوسا Canossa، عدة المتعصبون للآراء الجريجورية، أو الحزب البابوى، نوعاً من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى، وإن كانت فى صدر هذا الأخير شيئاً مغايراً تماماً.

وإنه لمن سخرية الأقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الإصلاح الكنسى هذا، هم الأباطرة الألمان أنفسهم، أولئك الذين جعلوا، بجهود أوتو الأول وسميه الثالث وهنرى الثالث، نجاح هذا الإصلاح حقيقة واقعة. كنهم كانوا كمن يحفرون قبورهم بأيديهم، فقد تلافت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان، فى ظل النظام الإقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية، على أضعاف الحكومة الألمانية، وجعلها مجرد صورة شاحبة، باهتة ألوانها، بعد أن فرضت مشكلة التقليد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الإصلاح الكنسى الهلدبراندى أو الجريجورى.

وكان تلقى أوتو الأول المتاح الإمبراطورى من يد البابا، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج إلى روما لتلقى التاج هناك من البابوية، وأصبح هذا أمراً لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الإمبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا فى عبارات بليغة بقوله "لم تكن الإمبراطورية بالنسبة لألمانيا قدراً محتوماً ومهلكاً فقط، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية، واضطرتهم إلى التضحية بالدولة فى سبيل الكنيسة، وأجبرتهم فى النهاية على أن

(47) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.?

يتركوا الميدان إلى الظل، بل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى، تمثلت في السماح للبابوية بالتدخل المباشر في شئون ألمانيا الداخلية، إذ أن الملك الألماني، أو بتعبير أدق، ملك الرومان، باعتباره الإمبراطور المعين، وحيث أن روما كانت قادرة على هذا الأمر وبصورة مباشرة وواضحة، فقد أصبحت تدعى أن موافقتها تعد أمراً أساسياً لاختيار الإمبراطور الجديد^(٤٨). لقد كانت البابوية، وعلى عهد أنوسنت الثالث بصفة خاصة توافق على أحقية الأمراء الألمان في اختيار مليكهم، لكن جعل هذا الملك إمبراطوراً كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض، ذلك أن الكرسي الرسولي في روما هو الذي نقل الإمبراطورية من القسطنطينية إلى الغرب زمن شارلمان، وأعاد إحياءها من جديد بتتويج أوتو، ومن هنا غدا الإمبراطور في نظر البابوية موظفاً، خلقه البابا ليكون عضده وساعده. فهو ليس إلا مرآة تعكس عالمية الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر هو القمر الذي يعكس ضوء الشمس. نعى الكنيسة الرومانية^(٤٩) لذا لا نكاد نجد ملكاً ألمانيا واحداً على امتداد ثلاثة قرون كاملة ما بين عامي ٩٦٢ - ١٢٥٠ إلا وقد جاء إلى روما يسعى للحصول على اللقب الإمبراطوري، ولم يستثن من ذلك إلا كونراد الثالث (١١٣٩ - ١١٥٢) ولم يكن تمرداً ولا هجراناً، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح له بهذه الزيارة، وإن كان كونراد أداة طيعة في يد البابوية، إذ سيرته برفقة قريبه ملك فرنسا، لويس السابع، لقيادة جيشه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية، التي لم تجن تحت أسوار دمشق إلا الخسران.

وكان هذا الأمر - نعى عملية الحج الملكي الألماني إلى روما من أجل اللقب الإمبراطوري يستتبع بالتالي وجود قوة عسكرية كبيرة يجردها الملوك الألمان أثناء رحلاتهم هذه، مما ترك أثره البالغ على ألمانيا نفسها - كما سنرى بعد قليل. وذلك لإرهاب البابوية في المقام الأول، ولمواجهة خصوم الإمبراطورية ممثلين في المدن اللومباردية في الشمال الإيطالي، والتي لقيت الجيوش الألمانية

Pirenne, A history of Europe, p. 319.

Ullmann, op. cit., p. 211.

(٤٨) انظر:

(٤٩) انظر:

على يديها الهزيمة في أكثر من موقع، وكانت من الأسباب الرئيسية في تحطيم النفوذ الألماني في إيطاليا. والنبلاء الرومان الثائرين دوما ضد امتداد السلطان الألماني إلى إيطاليا. والغضب البيزنطي البادى في محاولات الأباطرة المقدونيين خلال القرن العاشر استعادة بعض ما كان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغرب، والنورمان الطامحين والطامعين في التهام ما تبقى من الأملاك البيزنطية والأعداء الشرسين للملوك الألمان. وإزاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها في إيطاليا، فإن الوجود العسكرى الألماني بها، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشده أباطرة ألمانيا، ولم يتجاوز سلطان الألمان في إيطاليا على حد تعبير بريس حدود الزمان الذى كان يبقيه الجيش الألماني هناك (50).

فهذا هو أوتو الأول نفسه، رغم دوافعه الألمانية للتدخل في إيطاليا، فقد جاء إليها في خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه في روما، وابنه أوتو الثانى حكم عشر سنوات (973 - 983) أمضى الثلاث الأخيرة منها في إيطاليا في جهود عسكرية فاشلة. أوتو الثالث قضى فترة حكمه كلها (983 - 1003) في إيطاليا، ولم تره ألمانيا إلا محمولا على أيدى الرجال ميتا ليدفن بأرضها. أما هنرى الثانى آخر الخط السكسونى، فقد حج إلى روما عام 1014 ليتوج إمبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة 1027، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين ما بين عامى 1046 - 1057، وعسكر هنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات 1081 - 1084 بينما جاءها هنرى الخامس مرتين، الأولى خلال عامى 1110 - 1111، والثانية في سنتى 1116 - 1117. وحج إليها لوثر في عامى 1133، 1136. أما فردريك برباروسا فقد قاد جيوشه إلى هناك في ست حملات عسكرية لم تكن كلها لصالحه، بل لم يكن لأولها من ضرورة على الإطلاق إلا إذا أدخلنا في اعتبارنا الناحية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا، ذلك أنه من الصعب أن نجد بالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملته الأولى إلى إيطاليا 1153 / 1155 فقد كان

(50) Bryce, Holy Roman Empire, p. 171.

سلطانه على الكنيسة فى ألمانيا يكاد يكون تاما، على حين كان البابا غارقا حتى آذانه فى مشاكله الخاصة مع أرنولد البريشى Arnold of Brescia ، بل وتجلت قوة فردريك فى تعيينه أسقف زيتز Zeitz رئيسا لأساقفة مجدبرج Magdberg وحصوله على موافقة البابا على هذه الممارسة "غير الشرعية" للسلطة الملكية، فمهما كان حق الملوك فى اختيار رجال الأكليروس، فإن للبابا وحده الحق فى نقل أسقف من كرسى كنسى إلى آخر. ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة إلا رحلة الحج التقليدية، أو إن يكون فردريك غير راض بسلطانه فى ألمانيا، إزاء قوة أعدائه الولفيين، ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله إليه حملة عسكرية موفقة. بالإضافة إلى أنه كان غاضبا من بطء حركة مشروعاته فى ألمانيا، ويطمح فى أن تحمل إليه ثروات المدن اللومباردية انطلاقا أسرع، فلا بد - فى نظره - أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا⁽⁵¹⁾.

بل أن فردريك برباروسا لقي فى إيطاليا سنة ١١٧٧ أذلالا شبيها إلى حد ما بالإذلال الذى لقيه هنرى الرابع قبل ذلك بمائة عام فى كانوسا. وبينما أمضى أبنه هنرى السادس نصف عهده القصير الذى لم يتجاوز سبع سنوات (١١٩٠ - ١١٩٧) فى إيطاليا، ومات فى بالرمو، وهب فردريك الثانى جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل أن بعض الأباطرة الألمان، فى محاولة لاسترضاء البابوية شاركوا فى الحملات الصليبية، فأضافوا إلى غيابهم عن ألمانيا بعدا جديدا، وكان من بين هؤلاء كونراد الثالث، وفردريك برباروسا وسميه الثانى، ورغم أن ثالثهم هذا قد حقق نجاحا لم يسبقه إليه إلا جنود الصليب فى الحملة الأولى، إلا أن البابوية - فى جملة عدائها معه - جزته عن ذلك جزاء سنمار، وأوقعت ضده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم العزل من بعد.

(51) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.

Ullmann, op. cit., pp. 178 - 188.

وأيضا :

هذا الغياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذي أمتد حوالى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ - ١٢٥٠)، وتمثلت خطورته بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم، والاستنزاف العسكرى المستمر لموارد ألمانيا، والانهك البشرى لزهرات شباب الألمان. كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملوك الألمان أنفسهم فى داخل دولتهم، فى عصر سادته النظام الإقطاعى، وسيطرت على مقاليد الأمور فيه أيدي الأمراء، وتهاوت إلى الحضيض السلطة المركزية للملوك. ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية، وجغرافيتها المتناثرة، وعدم دخولها ضمن دائرة الإمبراطورية الرومانية، فقد أفتقدت الحكومة المركزية ولم تعرفها إلا قهرا على زمن شارلمان، فقد ظل الألمانى على امتداد ألف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا. ومن أجل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وإن تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحيان^(٥٢). وظل الأمراء الألمان يتحينون أية فرصة تسنح لهم ليفتروها وليحققوا من وراثتها ذواتهم ومطامحهم الإقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات.

ووجد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم، فقد كانت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الإمبراطورية الألمانية بعد ما تبين لها أنها تشكل خطرا جسيما على سلطانها خاصة فى المرحلة الثانية من الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢. وفى الوقت الذى كانت الأولى فى عهدها الإصلاحى قادرة على التوصل إلى تفاهم مع ملوك إنجلترا وفرنسا، فإن ساسية الملوك الألمان كانت لا تروق لناظرها، وذلك لأنها كانت بادرة يمكن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى فى أوروبا، ومن ثم فإن التقارب الذى كان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية، والسيادة التى تحققت للملكية على الأكليروس الألمانى على عهد الفرنكونيين

(٥٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية، انظر الفصل الرابع.

الساليين خاصة هنرى الثالث، كان يعد شيئا لا يتفق ومصالح البابوية (٥٣) وفى مواجهة هذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهدف الإبقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والإكليروسيين على السواء سلطانهم، ورغم اختلاف هذه السياسات إلا أنها أودت فى النهاية بموارد التاج وبالتالي خيبته ومكانته.

فقد أقدم أوتو الأول على بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الأكليروس الألمان، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين، بعد أن أخفقت سياسته فى استخدام أقاربه وأصهاره حكاما على المقاطعات. ورغم أن هذه السياسة قد حققت نجاحا فى حينها إلا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد، إذ ساعدت على خلق طائفة جديدة من الإقطاعيين هم أمراء الأكليروس. وكان على هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) أن يبذل هو الآخر جهودا كبيرة لمعالجة الأمور المتردية التى هوت إليها ألمانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وسميه الثالث فى إيطاليا سنوات طويلة تقترب من ربع القرن. حتى إذا مات عاد الأمراء يمارسون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعد بحق "الأول بين أقرانه" كما أسلفنا، فرفعوا على العرش كونراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩) الذى كان عليه لزاما أن يوقف استنزاف أراضي التاج الذى درج عليه الأمراء العلمانيون والإكليروسيون سواء. لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد إلى خلق طبقة جديدة من صغار النبلاء أصطفاها إلى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء، وأولئك يمثلون محدثى النعمة ممن لا أصول لهم، وليست لهم جذور نبيلة، فاضحوا على المجتمع الألمانى من بعد وبالا.

وشهدت السنوات التسع (١٠٥٦ - ١٠٦٥) التى قضاها هنرى الرابع يعانى غض العمر وسن القصور، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولة، لمحاولة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات،

(53) Barraclough, Origins of modern Germany, p. 113.

ذلك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية، تجاسرت على أن تضع يدها على مساحات شاسعة من الأراضي الملكية مدعية حق السيادة عليها. بل بلغ بهم الأمر إلى حد اختطاف هنرى الرابع نفسه من بين أحضان أمه الوصية عليه الملكة آجنى Agnes لينشأ تحت رعايتهم، ورحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسى لدخل الساج، نعى الأديرة الملكية. ولم يكن هؤلاء المختطفون إلا الداھية Anno رئيس أساقفة كولونى، وادلبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج - بريمن Hamburg-Bremen وبات على هذا النحو واضحا أن الوصاية على المالك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة⁽⁵⁴⁾ وحينما أصبح هنرى الرابع قادرا على التخلص من هذه الوصاية، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولئك لاسترداد كل الأملاك والامتيازات التى اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه. ولم يغفر له الأمراء هذا، ولا صفحت عنه الكنيسة.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلمانى أصدر البابا جريجورى السابع قراره الشهير بحرمان هنرى الرابع وعزله

“anathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus”

وأعلن أن هنرى الرابع لم يعد من حقه أن يعتلى العرش iustitio aum regnare prohibet وتم تحرير رعيته من الخضوع له أو الائتزام بأى واجبات أو تعهدات تجاهه⁽⁵⁵⁾.

“Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti ediem promissi sit absolutus”.

وكان هذا يعنى فى حد ذاته تحريضا لرعاياه للثورة ضده، فاندلعت الثورات فعلا فى مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا. وأذلت الإمبراطورية

(54) Thompson & Johson, op. cit., p. 374.

(55) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

فى شخص هنرى عند كانوسا، وذهبت الحادثة فى التاريخ مثلا^(٥٦) ومع أن الأحوال التى أمست عليها ألمانيا عام ١٠٧٥ عندما بدأ الصراع بين هنرى الرابع وجريجورى السابع، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديه السافر للملك الألمانى، حيث كانت تختلف اختلاف تاما عما تركها عليه هنرى الثالث لحظة وفاته، إذ راحت تسير الملكية الألمانية إلى التفكك، وظهرت قوى جديدة كانت فى الحقيقة مجرد عوامل اجتماعية أكثر منها سياسية، ولعل ذلك يعود إلى سياسة كونراد الثانى فى اصطفاء عناصر غير معروفة، بالإضافة إلى أزيد العدا من جانب الارستقراطية العلمانية، والمعارضة الكاملة من جانب الأكليروس تجاه فكرة الثيوقراطية التى طبقها هنرى الثالث بعزل وتعيين البابوات، نقول أنه رغم ذلك، فقد كان تدخل جريجورى فى ألمانيا، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنرى الرابع، بل على امتداد التاريخ الألمانى، إذ دمر هذا التدخل كل الخطط التى جاهد هنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية، وغير تغييرا كاملا أشكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا. ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى ما بين عامى ٩١١ - ١٠٧٥، مهما كانت الصعوبات والمعاناة، كانت شيئا رائعا. لقد سلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك إنجلترا النورمان بعد خمسين سنة من الآن، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصلوا إليه قبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة، وكانت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديسمبر ١٠٧٥^(٥٧) تقجيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى، فتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى^(٥٨).

(٥٦) الدلالة الواضحة لهذه الحادثة هى خضوع الدولة للكنيسة. وقد وعى المستشار الألمانى الأشهر فى القرن التاسع عشر، بسمارك، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة "إن نذهب إلى كانوسا".

(57) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

(58) Barraclough, op. cit. p. 97.

فقد وجدت النبالة الاقطاعية في ألمانيا فرصتها التي تبحث عنها في قرار العزل الذي صدر ضد هنرى، وأدعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur^(٥٩) ومارسوا رياضتهم المفضلة فولوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف السوابي Rudolf of Suabia رغم أن هنرى عاد من رحلته المهينة إلى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا. وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ - ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه إلى ازدياد أوار هذا الصراع، حتى إذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له .. هيرمان Herman الذى لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقم له أحد وزنا على الإطلاق.

واستمرت النبالة الألمانية أفعالها، فدفعوا كونراد ابن هنرى الرابع إلى أن يرفع فى وجه أبيه راية العصيان، ونادوا به ملكا عام ١٠٩٣، تشد البابوية من أزهم بيد أوربان الثانى. ولئن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل، فإن غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنرى الرابع من العمر أزدلة، إذ رفع الأمراء هنرى الابن ملكا عام ١١٠٤، والذى عرف بهنرى الخامس، ليتولى العرش فى حياة أبيه بعون البابا باسكال الثانى.

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها، حملت الملكية الألمانية وهنا على وهن، راح يترك بصماته واضحة على البناء السياسى لألمانيا فى العصور الوسطى، وازدادت حدته بوفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥، إذ انفجر الصراع ساقرا بين حزب الولفيين القوى الذى يتزعمه هنرى المتكبر دوق سكسونيا، والذى لم يكن ابنه ووريثه هنرى الأسد أقل منه صلفا وعنادا، وبين أسرة الهوهنشتاوفن. وهو الصراع الذى أودى بقوة ألمانيا السياسية إلى حد كبير، رأى فيه أحد المعاصرين،

(٥٩) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى أكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساخطين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى، وخلص المؤتمر طاعة هنرى، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة. والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر، ثم أنسل تاركا الدير متجها إيطاليا للقاء البابا، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا للحضور إلى ألمانيا. وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الإذلال الشهيرة.

أوتو أسقف فريزيا، الراهب السيسترشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد الثالث، صورة قائمة لمستقبل ألمانيا، سجلها فى كتابه "تاريخ المدينتين" Historia de duabus civitatibus بقوله "أنه يشعر أن المملكة الألمانية كانت تسير إلى زوال، وأن نهاية العالم قد دنت وليس هناك بارقة أمل إلا فى المملكة السماوية التى هى لا ريب آتية"^(٦٠). وكان من نتيجة هذا الصراع أبعاد الوريث الشرعى فردريك الهوهنشتاوفن باعتباره ابن أخ هنرى الخامس، واختيار شخصية مغمورة، أداة طيعة فى يد الأمراء والبابوية، لوثر، ليكون ملكا على ألمانيا. وتجلى مدى ضعف الملكية الألمانية إبان عهده، فى المرسوم الذى أصدره البابا أنوسنت الثانى عام ١١٣٣، بمنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا، إقطاعا من للبابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية^(٦١). رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمه إليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة.

وليس أدل على ازدياد نفوذ الإقطاع فى ألمانيا، واتساع سلطان الأمراء من رفض هنرى الأسد زعيم البيت الولى الأن، ودوق سكسونيا، الانصياع لأوامر سيده فردريك برباروسا، باعتباره فصلا إقطاعيا له، عندما طلب إليه الاشتراك فى حملته إلى إيطاليا عام ١١٧٦، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألمانى هزيمة ساحقة فى موقعة لينانو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية، ونزولة على إرادة البابوية. هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضعف الذى انحطت إليه الملكية الألمانية من جراء الإغراق المستمر لفردريك الأول فى مشكلات إيطاليا، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سفراء الإمبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الإمبراطور الألمانى، وثى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك إنجلترا، ووصل صلته بهذه المصاهرى بالتاج الإنجليزى وتخطاه إلى

Heer, The Medieval history, pp. 283 - 284.

Storayer & Munro, op. cit., p. 218.

(61) Tout, op. cit., p. 229.

(٦٠) انظر:

وأيضا:

الدانمرك. وعندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه إلى الأماكن المقدسة، سرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فردريك الهوهنشتاوفنى الألمانى^(٦٢) وقد كشف ذلك كله عن أن هذا الفصل الإقطاعى ينتهج سياسة خارجية مستقلة، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا.

وكان لابد للملكية الألمانية الجريحة أن تصفى حساباتها مع هذا الفصل المتمرد، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من إيطاليا على هذا النحو. وتمثل ذلك فى رفضه المثول بين يدى أقرانه حسبما تقضى التقاليد الإقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يدها. عندها استجمع فردريك قواه، واستحث صغار النبلاء لتأييده، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد إذا ماعاونوه فى تحطيم قوة خصمه الولفى هذا. فلما تحقق له ما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يفى بما عاهد عليه الأمراء.

ولا شك أن هزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه، كانت سببا مباشرا فى تغيير الخريطة الألمانية تغييرا جذريا خاصة فى الشمال، فقد اختفت الدوقية القديمة، سكسونيا، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة، وأصبحت وستفاليا دوقية مستقلة، واتسعت سلطات رجال الأكليروس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أساقفة بريمن ومجد برج، وعادت الإقطاعية التى كان هنرى الأسد قد ضمها لسلطانه، إلى الأساقفة^(٦٣). وهكذا اختفت الدوقات القبلية القديمة لتحل محلها وحدات صغيرة، وازدادت بالطبع عدد الدوقيات، وباستثناء سوابيا، فلم تعد إحدى هذه الدوقيات تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية. ولم يعد لقب الدوق يدل على نفس الأهمية التى كانت له من قبل. وظهرت قوة أخرى من طبقة أقل نبالة لكنها لها نفس السلطان مثل حكام ثورنجيا وبراندنبرج^(٦٤) وكان توزيع السلطة على هذا العدد الكبير من الأمراء "غير النبلاء" بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين،

(62) Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

(63) Brooke, A history of Europe, p. 503.

(64) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يهددها، ولو كان فردريك برباروسا على نفس قدر تفكير معاصريه، روجر الصقلى وهنرى الثانى ملك إنجلترا، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام إدارى مركزى متميز، يثبت به دعائم الملكية.

ومن هنا يمكن القول مع "كانتور" أن محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإقطاع الألمانى، ذلك أن فشل الإمبراطور فى ضم أراضى أعدائه الولفيين، كان يعنى أنه لا يستطيع أن يستغل القانون الإقطاعى فى زيادة سلطانه، كما كان عليه الحال فى إنجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان، وكما حدث بنجاح بعد ذلك فى فرنسا⁽⁶⁵⁾ لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا، بل كان تقليديا فى كل تصرفاته. ولما كان هدفه الإمبراطورى فى إيطاليا يسيطر على سياسته، فإن ركيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانيا. ولم يستطيع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الإقطاعية. ومن ثم فإنه نتيجة للحروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا، حتى قبل عهد فردريك برباروسا، راح الملوك يزدادون اعتمادا على "حسن النوايا" من جانب النبلاء⁽⁶⁶⁾. ولذا كان عليهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعاونهم وتأييدهم، خاصة التأييد العسكرى. وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطاتهم على النبالة الدنيا، وحقهم فى الوراثة. ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب إلى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك، أمرا عبثا. ولعبت المحلية الإقليمية التى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بألمانيا عن قيام دولة موحدة. ولقد كانت أهم وأخطر هذه الأمور - على حد تعبير باراكلاف - أن ألمانيا راحت تسير بخطى ثابتة نحو تأصيل وترسيخ النظام الإقطاعى، وكان هذا

(65) Cantor, *Medieval Europe*, p. 434.

(66) Brooke, *op. cit.*, pp. 505 - 506.

شيئا فرغت منه فرنسا في القرن التاسع، فراحت القلاع تقام في كل مكان، وساعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الإقطاعية، وبقدر ما حققه الأمراء من مكاسب، بقدر ما خرج التاج في النهاية خاسرا (٦٧).

وهناك صورة واضحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا، ذلك أن وفاة هنري السادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التي أمضاها بعيدا عن ألمانيا، وموته غريبا في بالرمو، لم يكن إلا إشارة البدء للحزبين المتصارعين في ألمانيا للاقتتال. وطوال أربعة عشر عاما كاملة (١١٩٨ - ١٢١٢) اصطلت ألمانيا بنيران حرب أهلية طرفاها فيليب السوابي سليل أسرة الهوهنشتاوفن، الوريث الشرعي باعتباره أخ هنري السادس، إذ كان فردريك ابن هنري من كونستانس. ما يزال صبيا قاصرا، وأوتو "الرابع" دوق برونسويك زعيم الولفيين ابن هنري الأسود. ودون أن نخوض في تفاصيل هذا الصراع نقول أنه جر إلى ساحته النفوذ الأجنبي للتدخل في الشؤون الداخلية لألمانيا (٦٨) إذ وقفت إنجلترا إلى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكم عدائها للإنجليز، حقوق فيليب السوابي الهوهنشتاوفني، والذي اعتبر نفسه - رغم ضعف شخصيته ونفوذه الواضحين، سلسل القياصرة الرومان، وخلع على نفسه لقب فيليب الثاني بعد فيليب الأول الذي حكم الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي (٢٤٤ - ٢٤٩)، ولما كانت البابوية قد وضعت في اعتبارها ضرورة الإجهاز على الهوهنشتافن، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها في هذه الحرب، أو بتعبير أدق على حد قول المؤرخ بييرين، أن هذه الحرب جرت كما تشتهي البابوية (٦٩)، فقد أخذت تنقل تأييدها من جانب إلى آخر على عهد رجلها الأشهر أنوسنت الثالث Innocent III الذي أعلن صراحة حقه، باعتباره راعي الكرسي البطرسي، في اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا "مادامت الإمبراطورية تستمد

(67) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141 - 147.

C.M.H. Vol VI, pp. 44 - 79.

(٦٨) للمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع

Ueemann, op. cit. pp. 206 - 212.

وأيضا :

(69) Pirenne, op. cit., p. 285.

أصولها وسلطتها من البابوية" أما أصولها فلأن الإمبراطور أعتلى عرشه، على يد البابا الذي توجه وسلمه مقاليد الإمبراطورية" (٧٠) وبناء على هذا الحق، ومبررات تنفق وهواه ومصالحته السيامية، أعلن اختيار أوتو الرابع دون نظر إلى أصحاب الحق الشرعيين، لكن مع ذلك أخذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل إليه رياح الحرب ومطامع كرسية أبناء جديدة أو آمالا معقودة. ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذي أرادته البابوية وكان الرابع الوحيد منه في نهاية الأمر النظام الإقطاعي في ألمانيا، والذي راح يثبت جذوره بصورة عميقة، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصارعين من تقديم التنازلات وإعطاء الامتيازات للأمرء الألمان، إرضاء لهم على مناصرتهم. وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا في هذه الفترة ما لم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين (٧١).

ومن الطريف أن الأمرء، الذين رفضوا في البداية العرض الذي تقدم به إليهم فيليب السوابي باختيار فردريك ابن أخيه هنري السادس ملكا بدلا منه، حتى لا يتهم باغتصاب العرش، عادوا الآن بعد أن اتخمت نفوسهم - وإن كانوا ما يزالون ينتظرون المزيد - إلى التحول بولائهم المنقلب إلى اختيار فردريك "الثاني" ملكا، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه السنوات.

وباعتلاء فردريك الثاني عرش ألمانيا، تدخل المشكلة الإيطالية نزوة تعقيدها في السياسة الألمانية، إذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه إيطاليا، وكل مظاهر العداوة من جانب البابوية إزاء الملكية الألمانية، وفكرة الإمبراطورية التي بذرت هي بنفسها منذ البدء بذرتها، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الإقطاعي لسلطات أمرء العلمانيين والاكليروس على السواء. وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا أنوسنت الثالث، تنازل له

(70) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

(71) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

فيه عن كل ما كان يناضل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا^(٧٢) يدفعه إلى ذلك حداثة سنة واعتماده على تأييد البابوية في التصديق على اختياره للعرش. وثنى ذلك بتعهد آخر للبابا في سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هنري^(٧٣). ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت، لانتهى الصراع بين البابوية والإمبراطورية تماما، إلا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كل ما جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الإمبراطورية. ومن ثم عمل على رفض كل ما قطعته على نفسه، عند تنويجه، فقاد الإمبراطورية بذلك وأسرتة إلى حتفها.

فمن المعروف - على النحو الذي أسلفنا - أنه منذ أعتلت أسرة الوهشتاوفن العرش في ألمانيا، راحت مكانة إيطاليا في السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنها أمست شيئا لا غنى عنه لألمانيا، ومثلت حجر الزاوية في سياستها كلها، فمن كونراد الثالث حتى فردريك الثاني أضحت التحول كاملا - وذلك بحكم مولده من أم صقلية، ونشأته في صقلية، فأضحى صقليا خالصا^(٧٤)، يريد أن يقيم في إيطاليا ملكية مستبدة على نسق ما أقامه في صقلية، حيث جعل لنفسه الإشراف على القضاء الجنائي، وهدات من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن، ويعقد مؤتمرا في كريمونا Cremona سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الإمبراطورية في السيادة على المدن اللومباردية، ويثير مخاوف البابوية بمحاولاته المستمرة لإثبات سيطرته على جنوب إيطاليا، ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنري ليخلفه على عرش الإمبراطورية مما أفرغ البابوية^(٧٥) ودفعها إلى اتهامه من جانب كل من جريجوري التاسع وأوسنت الرابع، بالهرطقة والتجديف، ووصفه

(72) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

(73) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

(74) Pirenne, op. cit., p. 314.

(٧٥) فيشر؛ تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣؛ ودكتور سعيد عاشور؛ أوروبا العصور الوسطى؛ ج ١، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ وأيضا:

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119 - 124.

بأنه "الحيوان الذى جاء ذكره فى سفر الرؤيا .. عبد الشيطان. نبي أعداء المسيح" (٧٦).

وساعد فرديريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحطيمه، وأن تستغل هذه السياسة فى إثارة الاضطرابات ضده فى ألمانيا، وتدبير الثورات والمكائد للخلاص منه والتحالف مع الأمراء لإزاحة هذه الأسرة من العرش الألمانى وبالتالى صقلية، وفتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الإنجليزى. بل وعرض تاجها على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا، هاكون Haakon ملك النرويج، وأمير من أمراء الدانمرك، وهنرى راسبى الثورنجرى Henry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته على الكنيسة الألمانية إلى مندوبى البابا. فلما توفى فى العام التالى، رشح أنوسنت الرابع أحد صنائعه هو وليم الهولندى (٧٧). ولا يمكن القول أن أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا، لكن وجهة نظر أنوسنت كانت تتلخص فى إثارة العراقل والعقبات أمام فرديريك أكثر من استقرار العرش الألمانى، إلى الحد الذى أقدم فيه البابا على إرسال مبعوث شخصى له إلى ألمانيا هو فيليب أسقف فيرارا Ferrara يحمل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمام التاج (٧٨).

فعلى امتداد عهد فرديريك الثانى أُنِت صقلية وإيطاليا دائما فى المقام الأول، وحظيت العناصر الإيطالية بالمكانة المرموقة يوما على حساب العناصر الألمانية، حتى أمست ألمانيا إبان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عنه، هو ابنه هنرى أولا ثم كونراد من بعد. لقد كان اهتمامه فى ألمانيا محصورا للحصول على اللقب الإمبراطورى فقط .. ومن هنا فإن اتجاهه إلى ألمانيا كان لتدعيم

(76) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٧) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا: راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420 – 428.

Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

وأيضا :

(78) Scott, op. cit., p. 268.

نفوذه وسلطانه في إيطاليا وصقلية^(٧٩) وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماما لما سعى إليه أوتو الأول، عندما كان اهتمامه بإيطاليا بحثا عن قرار سلطانه فوق الإكليروس الألمانى. وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملا خلال هذه القرون الثلاثة ما بين النصف الثانى من القرن العاشر ومنتصف للقرن الثالث عشر.

ويتساءل هنرى بيرين في صراحة .. ماذا كانت ألمانيا تعنى لفرديريك؟ ويجب فى وضوح: لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية .. أنه لم يكن حتى يعرف للغة الألمانية^(٨٠). بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا^(٨١). ويعتبرها "أرض الإحراج الكثبية، والمدن الموحلة، والقلاع المنفرة"^(٨٢) بينما كانت إيطاليا بالنسبة لفرديريك - حسب تعبير كانتروفتشن Kantorowicz "مرفأة الأمين من الطوفان، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك"^(٨٣) ومن هنا كانت نظرتة إلى ألمانيا تحمل فى طياتها كل معانى التشاؤم والقنوط، ولما كان إيطالى المولد والنشأة، فإن نظرتة إلى ألمانيا على هذا النحو، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة، أمرا لا يمكن تجنبه، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يكون فى مملكته الإيطالية وألمانيا فى وقت واحد، ولذا كان الغياب عن أيهما لا بد أن يسوق إلى تآكل السلطة الملكية بها.

وهذا هو ما حدث بالفعل لسلطة التاج فى ألمانيا، من جراء إقامته فى صقلية وترك ابنه هنرى فى ألمانيا^(٨٤)، وتمثلت خطورة ذلك فى أن هذا الاختفاء للتاج جاء فى أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التى تركت بصماتها الواضحة على الكيان

(79) Barraclough, op. cit., pp. 219 – 211.

(80) Pirenne, op. cit., pp. 314 – 315.

(81) Waley, op. cit., p. 75.

(82) Barraclough, op. cit., p. 220.

(83) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.

(٨٤) حكم فرديريك الثانى ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ - ١٢٥٠) لم يمكث منها فى ألمانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعتين.

السياسى للسلطة الملكية فى ألمانيا. مما أعطى الفرصة لكى تخضع ألمانيا بصورة عملية للأمرء الأكليروسيين والعلمانيين. ولما بات كل ما يرجوه فردريك من ألمانيا أن تثير فى وجهه المتاعب، فقد أصبح على استعداد كى يذهب فى هذا السبيل إلى آخر المدى، وأن يقدم من التنازلات ما يهئ له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه فى صقلية وإيطاليا. ولعل هذا هو الذى يفسر إقدامه فى عام ١٢٢٠ على منح الأكليروس الألمانى امتيازات واسعة *Privilegium in Favorem principum ecclesiasticorum* تعطيهم حقوقا مطلقة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، والتصرف فى الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم، وإغفال الإدعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها^(٨٥) وتنازل عن حق إقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود فى الأقاليم الكنسية، وترك للأساقفة كل ما كان قد بقى له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأمور التقاضى ووعده بأن ينظر إلى أى شخص يصدر ضده تختص الحرمان الكنسى على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون. ولا شك أن هذا التصرف الذى جاء فى صالح الكنيسة، قد أساء بشكل واضح إلى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان، ذلك أنه لم يعد لديها الآن ما يدفعها إلى البحث عن التحالف مع التاج، وما دامت القوة الحقيقية قد انتقلت إلى أيدي الأمرء العلمانيين، فإن أمرء الكنيسة راجوا ينظرون إليهم باعتبارهم سندهم الزمنى، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمى لدى الأكليروس تجاه الحكومة^(٨٦) وهكذا .. فإن ما أقدم عليه فردريك الثانى هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألمانى، فقد صنع من كل أمير أكليروسى، ملكا فى الحقيقة. وإن كان لا يحمل اللقب، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته^(٨٧).

(85) Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes of Germany, 1220.

(86) Scott, op. cit., pp. 266 – 267.

(87) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثانى يهدف أساسا بهذه التنازلات إلى اجتذب الكنيسة الألمانية إلى صفه، إذا ما حاولت البابوية التعرض له ولمسياسته، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التى قطعها على نفسه عند إعلان ملكه،-

وكانت هذه الامتيازات التي حصل عليها أمراء الأكليروس، فاتحة خير وبركة للأمراء العلمانيين، وكارثة خطيرة في الوقت نفسه للكيان السياسى فى ألمانيا، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم الألمانية. لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة التي راح يتبعها هنرى "السابع" مخالفا تماما لسياسة أبيه، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم، ذلك أن هنرى أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية، العلمانية والاكليروسية، ألا وهو الاعتماد على المدن التي كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد، وتلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التي شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الإيطالى فى لمبارديا، وفى ألمانيا كذلك. ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى، يتمتع بهذه القدرات. غير العادية، والثقافة العالية، والمهارة الإدارية، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصدى لسلطان أمراء الكنيسة والأمراء العلمانيين، بل لقد أقدم على اتخاذ عدد من الإجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من "تطاول" المدن داخل الأقاليم الكنيسة.

ومن البديهي أن ازدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام الإقطاعى والاقتصاد الزراعى، والأرض باعتبارها المصدر الرئيسى للقوة الاقتصادية وبالتالي السياسية، إلى الاقتصاد النقدى والأموال والتجارى بصفتها المحرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصادى فيما بعد. وكان هذا يعنى بتعبير آخر أنهيار النظام الإقطاعى، وتعبير أكثر وضوحا ودقة، أنهيار سلطان الأمراء العلمانيين والكنسيين. وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عاملان رئيسيان، أولهما ما حصلت عليه مدن العصبة اللومباردية من اعتراف بحقوقها وامتيازات فى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣)، بمقتضى معاهدة

سبعسم توحيد ألمانيا وإيطاليا تحت سيادة شخصية واحدة فى ذريته، وذلك عندما أقدم على إعلان أنه هنرى (السابع) ملكا على ألمانيا، والذي كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعى لأبيه، الذى لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بما أهد عليه فى البدم البابوية.

كونستانس Constance التي انتزعتها هذه المدن من الإمبراطور فردريك الأول برباروسا، بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على إيطاليا^(٨٨) فأصبحت هذه الامتيازات مثالا يحتذى لدى المدن الأخرى في بقية الدول الأوروبية، وحرص رجال المدن على الحصول على "البراءات" التي تقرر مثل هذه الحقوق من جانب الأمراء. أما الثاني فهو الفشل الذي منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها في القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها إلى الغرب مفلسين أو موتهم في الشرق، وضياع الأرض إلى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم إلى الأراضي المقدسة. ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية والسياسية للأرض تتولى إلى الظل تدريجيا، بينما أضحت المدن الناشئة بنشاطها التجاري تلعب دورا هاما راح يتزايد مستقبلا بصفة مستمرة.

ومما يدعو للعجب أن كل ملوك ألمانيا دون استثناء غضبوا عيونهم عن أبصار هذه الأهمية التي تمثلها تلك المدن. والأمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضحة في رفض هنري الرابع العرض الذي تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأييده وهو في رحلته إلى مذبح الأذلال في كانوسا، ليقدم لجريجوري السابع كبرياء الإمبراطورية قربانا، ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن في أخريات عهده. ووقف فردريك برباروسا موقف العداء السافر لقومون روما وأرنولد البرشي Arnold of Brescia وللمدن اللومباردية التي أرهقته من أمره عسرا خلال حملاته العسكرية إلى إيطاليا، والتي استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفيق أو يحقق كسبا معينا، مع أن فردريك برباروسا كان يدرك يقينا أن أعداءه، المدن اللومباردية والبابوية، هما أيضا يحملان لبعضهما عداء كامنا، وكانت الاستراتيجية تقضية أن يعمل كي يظل هذا العداء بينهما قائما، بل وكان في مقنوره أن يحقق ذلك بدلا من دفعهما - بسياسته - إلى تكوين جيش واحد ضده. وكان عليه في الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التي لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة، وأن تحصل له على كل الحقوق، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق

The peace of Constance, January 1183.

(٨٨) انظر :

مع أقل خصومه شأنًا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية، التي كانت هي الأخرى خصمهم العنيد. غير أن هذا هو الشيء الذي لم يستطع برباروسا، بل ولم يرد أن يقدم عليه⁽⁸⁹⁾ وحتى فردريك الثاني نفسه، الذي كان يجب أن يكون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وإدراكا لمغبة هذه الأمر، استمر هو الآخر في المراهنة على الجواد الخاسر، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروسيين الذين كانوا من الطبيعي أن يهجروا جانب الإمبراطورية فور حصولهم على ما يبتغون.

ولا ريب أن الامتيازات التي منحها فردريك الثاني لرجال الإكليروس، وخاصة تلك التي تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن، تعد شيئا خطيرا، ليس فقط لأنها تشير إلى تحلل السيادة الملكية في الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذين كانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل، بل أنها كانت المثل الأخير في العمل المقدر على كل أباطرة ألمانيا الذي حال دون إدراكهم، كما أدرك ملوك آل كاييه في فرنسا، أن الصراع ضد النظام الإقطاعي، وهو الشيء الذي لا يمكن تجنبه إذا أريد قيام دولة قوية، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هي الحليف القوي والطبيعي للملوك في هذا الصراع⁽⁹⁰⁾ ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنري الرابع في أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له، بعد أن تخلت عنه الكنيسة، وعاداه النبلاء وتمرد عليه حتى ابنه.

ولما كان هنري "السابع" قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو، ولما كان يعتبر نفسه في المرتبة الأولى ملكا ألمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون إمبراطورا رومانيا، وهو ماسار على الضد منه كل الخلفاء أوتو الأول، فقد وضع ثقته كاملة في المدن الألمانية التي أعطته هي الأخرى تأييدها المطلق ضد عدوها المشترك، الأمراء الإكليروسيين والعلمانيين. واستشعر هؤلاء الخطر يأتيهم من جراء السياسة الجديدة التي ينسج هنري خيوطها، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التي

(89) Thompson & Johnson, op. Cit., p. 430.

(90) Thompson & Johnson, op. Cit., pp. 418 – 419.

حصلوا عليها خلال السنوات الطوال التي كان التاج الألماني يعاني فيها أوجاع الضعف وآلام التدخل البابوي. ومن ثم أعلنوا ثورة عارمة ضد هنري والمدن، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد برئت من بعض جراحاتها منذ عشرين عاما فقط. واستدعى ذلك قدوم فردريك الثاني على عجل ليقر الأمور في ألمانيا، حيث وجد نفسه مسوقا إلى السير في نفس الدرب الذي اختطه دون تدبير أسلافه. فأقدم على منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (1231 - 1232) حققت لهم ما كان قد أعطاه لأمرء الاكليروس منذ أثنى عشرة سنة خلت، فأضحت لهم السيادة كاملة على إجراءات التقاضى فى أقاليمهم، وحق إقامة دور سك النقود، واستخدام الطرق والمجاري المائية، واتخاذ الإجراءات التى تكفل إغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين. بل أن تلك الامتيازات قضت بأن كل القوانين الإدارية الجديدة والضرائب المستحدثة، لا يصبح لها الصفة الشرعية إلا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكنسيين لهذه الأقاليم⁽⁹¹⁾ وهكذا فإن هذه الامتيازات التى منحت الآن للأمراء العلمانيين، وقرينتها التى سبق إغداقها على الاكليروسيين، أدت إلى إتمام كمال التفسخ السياسى للنسق الاقطاعى فى ألمانيا، وبصفة قانونية. وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألماني.

ويعلق المؤرخ الألماني فرديش هير F. Heer على ذلك، بالنعى على ما ذهب إليه الإمبراطور فردريك الثاني معتبرا إياه أستاذ لتوماس الأكويني Thomas Aquinas فى شكه المزمّن وريبته تجاه المدن⁽⁹²⁾، ففقد فردريك الثاني بذلك نصيرا قويا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد البابوية وحلفائها الأمراء فى داخل ألمانيا. ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن

(91) Statute of Frderik II in vor of the princes, 1231 - 1232.

(92) Heer, the Medievel history, p. 71.

وانظر أيضا:

Otto freiheer, constitutional Reorganization and reform under the Hohepstaufen, p. 211.

هذا المنهج، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية التي وقفت إلى جواره، وأعلن الثورة في ألمانيا، مما دفع أباه إلى القدوم في زيارته الأخيرة إلى ألمانيا عام ١٢٣٥، ليخمد هذه الثورة وليقبض على ابنه وينفيه إلى أبوليا Apulia ليظل هناك في سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢ (٩٣).

هكذا أمست الصورة العامة لألمانيا في منتصف القرن الثالث عشر حالكة السواد، فالإمبراطور مشغول عن بلده بمملكته في صقلية، والبابوية تسعى حثيثا لتدمر كل شيء في صقلية وألمانيا على السواء، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو إليه نفوسهم وشهوة السلطان في صدورهم، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مستقلة، وأتحد الفرسان السيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شواطئ البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج، وإزداد نمو المدن الألمانية مثل ورمز ومينز وكولوني وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية. وصدق على الإمبراطورية الألمانية ملاحظة المندوب البابوي همبرت Humbert في مجمع ليون المنعقد سنة ١٢٧٤ "أنها أمست إلى الضياع quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطرة الألمان سلطانهم في ألمانيا بتدخلهم المستمر في إيطاليا، فأصبحوا كمن يبيع رخيصة ليشتري غالبا (٩٤).

على هذا النحو، فإن انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن بإعدام كونرادينو عام ١٢٦٨م - كما أسلفنا - أو حتى بوفاة فردريك الثاني سنة ١٢٥٠م، يحدد خاتمة حقبة معينة في تاريخ ألمانيا، فقد ولى الآن زمان الملوك الأقوياء بها وأقبل عصر أمراء الإقطاع. لقد حقق النظام الإقطاعي في ألمانيا آنذاك انتصارا باهرا، أو

(٩٣) يختلف المؤرخون حول وقته، فيعتقد بعض أنه ضاق ذرعا بعمليات المراقبة المستمرة التي فرضت عليه، فألقى بنفسه من اعلى فمات منتحرا، بينما يرجح آخرون أن أباه قد حرض على قتله، ويدللون على صدق دعوهم بما أقدم عليه القسيس في عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين لينبح ابنه" (تكوين ١٠/٢٢). للمزيد من التفاصيل انظر:

Scott, op. Cit. p. 288.

(94) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368 – 370.

بعبارة أخرى، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السياسية. وكان الاقتناع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى إخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك، هو ضياع جهودهم وطاقتهم وموارد بلادهم، بل ودماء الألمان أنفسهم جريا وراء أحلام بعيدة المنال عن السيادة على إيطاليا وعالمية الإمبراطورية^(٩٥)، وارتسمت علامات الندم على أقلامهم وهم يلومون على ملوك ألمانيا، مبينين أنهم لو قصرُوا جهودهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ولأمكن تحقيق الاتحاد الألماني الذى تأخر إلى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل^(٩٦). فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكد فشل سياسة الأوتويين تجاه الإمبراطورية، يرفضون بعناد الإقرار بفشل هذه السياسة. وبدا لهم جوهرى وجود نوع من الوحدة السياسية، شأن عالم المسيحية عقيديا. ولكن لا ألمانيا ولا إيطاليا غدت إحداهما قوية، إذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثا فى حملات عسكرية متتابعة إلى إيطاليا، بدلا من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم، وابتعدت الدولتان قصيا عن حسن الإدارة ومركزية السلطة التى تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبى^(٩٧) فبينما كان أشهر معاصرى فردريك الثانى، وهما لويس التاسع ملك فرنسا، وهنرى الثالث ملك إنجلترا، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة، إلا أن كلا منهما ترك دولة تنحو إلى المستقبل، وليست ظلًا لماض فقط، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما^(٩٨).

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته، ولكن قليلا منهم هو الذى كان يصلح حتى كى يكون فقط خليفة لأوتو الأول. فمن أجل الإمبراطورية نسي كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان، وفى طريق نضالهم من أجل الإمبراطورية، فشلوا فى تأمين حتى

(95) Thompson & Johnsson, op. Cit., p. 430.

(96) Ibid , 430 – 431.

(97) Strayer & Munro, op. Cit., p. 153.

(98) Ibid. 353.

دوقية⁽⁹⁹⁾ بل ليس من المبالغة في شئ القول أنه لم يكن هناك في حقيقة الأمر ملوك لألمانيا، بل كانوا يعرفون بالملك الروماني Rex Romanorum والإمبراطور الروماني Imperator Romanorum وليس هناك - على حد تعبير هنرى بيري - كلمات لوصف ألمانيا إلا القول أنها ذابت في الإمبراطورية، بعد أن أهلك ملوكها قواهم في تبني السياسة الإمبراطورية. حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانا، لكنهم لم يضعوا أبدا سياسة ألمانية، وكانوا بصفة مستمرة غارقين في إيطاليا. لقد قدر عليهم أن تنقطع أنفاسهم في ملاحقة سياستهم التي وضعوها. ومن ثم أمست ألمانيا ضحية الإمبراطورية⁽¹⁰⁰⁾ فقد خرجت في نهاية الأمر ضعيفة إذا ما قورنت بانجلترا أو فرنسا، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء، وزيادة مساحة أراضي التاج، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما، إذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم على مناطق يختلف أهلها لسانا وحضارة وأهواء، ودخلوا في صراع مع المدن اللومباردية والنورمان في جنوب إيطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لا تنقطع وتدخل مستمر في شئونهم من جانب البابوية. وحتى في هذه الأخيرة كان حظ الملك الألماني أسوأ بكثير من قرينيه في فرنسا وانجلترا، فوليم الفاتح تحدى جريجورى السابع، ووليم الأحمر قاوم أنسلم، أما هنرى الرابع وبرباروسا فكانا عليهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون في شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا. هذا بالإضافة إلى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة، والتي أهدقها عليها الملوك الألمان أنفسهم، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها في الدول الأوروبية الأخرى⁽¹⁰¹⁾.

(99) Pirenne, op. cit., p. 140.

(100) Bryce, op. cit., p. 213.

Douglas, William the Conqueror, pp. 340 - 341.

Barlow, op. cit., pp. 156 - 158.

وعن وليم الأحمر وأنسلم انظر

(101) Strayer & Munro, op. Cit., p. 147.

ومن الغريب أن هذه النهاية التي آلت إليها كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا، إذ خرجت الأولى من النظام الإقطاعي بملكية "دستورية" إذا صح هذا التعبير آنذاك، وآل الأمر في الثانية إلى ملكية مستبدة، بينما ودعت ألمانيا دنيا العصور الوسطى ممزقة شر ممزق. نقول أن هذه النهايات لا تتفق مع ماجرى عليه الأمر مثلا بعد أنهيار إمبراطورية شارلمان، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما، ففي فرنسا مثلا دخلت البلاد في حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجي وأمراء باريس، في الوقت الذي أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار ملكهم أرنولف الحفيد غير الشرعي للويس الألماني سنة ٨٨٧م، وكونراد دوق فرنكونيا بعد وفاة لويس الطفل ٩١١م. ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحقهم في اختيار الزعيم، وقاد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطة الملكية على المدى الطويل، إلا أن النتيجة المباشرة كانت إعطاء ألمانيا حاكما قويا^(١٠٢) وتمثل ذلك بصفة خاصة في القرنين التاسع والعاشر، وبشكل أساسى زمن أوتو الأول وسميه الثانى، بل وأيضا حتى عهد فردريك برابا روسا، إذا استثنينا فترة التدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا على عهود هنرى الرابع ولوثر وكونراد، فقد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادها الموظفين والدوقات والكونتات والأساقفة ومقدمو الأديرة، يعينهم الملك ويدينون له بالولاء، ولكن الأمر أنتهى إلى ملكية تستمد قوتها من مجموعة من الأفعال الإقطاعيين، من غير ذوى الأصول النبيلة، علمانيين واكليروسيين^(١٠٣).

وإلى جانب هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البابا والإمبراطور من ناحية، وهذا والأمراء من الثانية كانت هناك كارثة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا .. فى سنة ١٠٥٠م كانت الأديرة

(102) Ch. Brooke, Europe in the Central M. Ages, p. 157.

(103) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304. De Wulf, Philosophy and Civilization in the Middle Ages, pp, 281 – 283.

الألمانية مراكز للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسي الألمانية لا تبارى فى أى مكان آخر فى أوروبا. غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها، بحيث أصبح الاكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب. وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها، ثم ما لبث أن باتت متأخرة وعتيقة (١٠٤). بينما عكف العلماء الفرنسيون والإيطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى العالنية. فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا النوع قبل القرن الرابع عشر (١٠٥) بل أن فريدريك الثانى نفسه عندما أقدم على إنشاء جامعة، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا. لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العلمانية وأنغماسهم فى المشكلة الإيطالية، ولم يستعيدوا مكانتهم أبدا على الأقل خلال العصور الوسطى.

وهكذا يمكن القول أن ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب إلا دورا تافها لا قيمة له على الإطلاق فى السياسة الأوروبية، رغم أنها تحتل مساحة شاسعة جدا على الخريطة الأوروبية، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبية من ناحية أخرى فى روسيا وبولندا (١٠٦) بل إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد

(104) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304.

De Wulf, Philosophy and Civilization in the Middle Ages, pp. 281 – 283.

(105) Cantor, op. cit., p. 304.

(106) Pirenne, op. cit., p. 331.

من ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفي هنرى الثالث، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى (١٠٧).

لقد كانت إيطاليا جرحا داميا فى جسم ألمانيا، ظل ينزف طيلة العصور الوسطى حتى أعياد ذلك الجسد، فأمسى شاحبا إلى ذبول، وتكاثفت عليه مباحض الجراحين تحاول أن تجد له طبابا شافيا وعلاجا ناجعا، لكن الداء قد تأصل فى مباحض الجراحين أنفسهم، أعنى أباطرة ألمانيا - الذين استمروا .. رغم - الفشل الذى لاحقهم - لعبة التدخل فى المشكلة الإيطالية، فساقوا دولتهم إلى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه، وإيطاليا هى الأخرى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

(107) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

الفصل الرابع

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

وصفت ألمانيا في القرن السابع عشر؛ بأنها "فوضى شاعتها العناية الإلهية"؛ وما ذلك القول عن إدراك الدراسين لتاريخ ألمانيا ببعيد ولا غلواء فيه ولا غرابة؛ فقد تشكلت ألمانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة دويلة وكيان سياسى!.

فعلى الحدود الغربية عند الراين لا نجد إلا أطلالا لولايات كانت تعد فى الماضى هامة، مثل بادن وورتمبرج .. أما الألزاس واللورين فقد وقعتا فى قبضة الفرنسيين منذ أواخر القرن ذاك. على حين تبدت الفوضى بعينها فى الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه، حيث كان رجال الاكليروس يمارسون حكما يفتر تماما إلى الكفاية والاعتدال، ويفسح الطريق فى يسر وسهولة أمام ضربات الجيران الأقوياء بينما كان الشرق يبدو متماسكا وعلى قدر من القوة، متمثلا فى هانوفر وسكسونيا، وإلى الجنوب عند أعالي الدانوب توجد بافاريا، الشديدة التمسك بكنوليكيته، والتي تملكها الغيرة الشديدة من جارته الشمالية القوية، بروسيا.

على هذا النحو كانت ألمانيا - أو بتعبير أدق - ما يسمى ألمانيا فى القرن السابع عشر، وباتت كذلك أيضا على امتداد القرن الثامن عشر، خليطاً غريباً يجمع بين دول كبرى ودويلات صغرى، علمانية وكنسية، خرة واستبدادية، ولم يكن ثمة فوق هذا الخليط المتلاطم سلطة فعالة على الإطلاق؛ فالإمبراطور كان اسماً كبيراً فحسب، والإمبراطورية كانت كياناً شرفياً، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمور، ذلك أن السلطة الحقيقية لم تكن تمثل فى الإمبراطورية ككل، وإنما فى أجزائها المختلفة، وفى حكام الدويلات التى تتكون منها الإمبراطورية، مثل النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وغيرها وهكذا كانت ألمانيا فى مجموعها

وفى أجزائها، تعاني من التفسخ السياسى، وتعجز بل وربما ترغب عن إبداء أية مقاومة جديّة فعالة تجاه نوايا جارّتها القوية الطامعة .. فرنسا حتى نعتها فولتير بسخريته اللاذعة بأنها "ليست إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة" وإن كان ما يعنينا هنا الآن فقط الشق الأول من هذا النعت "الثلاثى" أعنى الإمبراطورية.

غير أن الذى يدعو للعجب والإعجاب فى الوقت نفسه، أنه رغم هذه الفوضى السياسية الضارية أطنابها فى ألمانيا، إلا أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر، شاهد ازدهارًا رائعًا للفكر والفن الألمانيين؛ فقد ظهرت منذ منتصف القرن حركة بعث قومية عظيمة فى هذين المجالين، كان المساهمون الرئيسيون فيها "لمنج" Lessing و "جوته" Goethe و "شيلر" و "كانت" Kant وفى الموسيقى رفع خلفاء "باخ" الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم "هايدن" و موازرت و "بيتهوفن" رأس البلاد التى تتحدث الألمانية عاليا فى أوروبا ولا شك أن ما أبدعه هؤلاء المفكرون والفنانون يقف على النقيض من الضعف السياسى للدويلات الألمانية فى تلك الفترة.

وفى آخر سنى القرن الثامن عشر، فى أعقاب الحرب التى نشبت بين فرنسا الثورة، وألمانيا، وانتهت بهزيمة الأخيرة وانسحاب كل من بروسيا والنمسا وعقد صلحين منفردين فى عامى ١٧٩٥، ١٧٩٧ على التوالى ثم فرض تسوية من جانب فرنسا وحليفاتها روسيا، أملت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة، وانتهى الأمر فى فبراير ١٨٠٣ بقبول الريشستاغ الألمانى لهذه التسوية التى غيرت إلى حد كبير وجه الخريطة الألمانية؛ فقد اختفت من الوجود مائتا واثنتا عشر دويلة ابتلعتها جارّاتها الكبيرة وتوارى تمامًا معظم فرسان الإمبراطور وجميع المدن الإمبراطورية عدا ست منها، وأزيلت الولايات الكنسية باستثناء مينز، وإن كان قد بقى الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت.

لم يمض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات، حتى أقدم الإمبراطور الفرنسى نابليون، والذى كان قد بلغ أوج مجده آنذاك، على اتخاذ قرار من جانبه بقيام اتحاد

الرايين، ودعا حكام ألمانيا لإعلان انضمامهم أو رفضهم في غضون أربع وعشرين ساعة.

وكان هذا التنظيم يقوم على أساس إنشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية وفي السادس من أغسطس ١٨٠٦ أعلن الإمبراطور فرنسوا الأول تخليه عن اللقب الإمبراطوري القديم، فانتهد بذلك الإمبراطورية الألمانية، أو ما ذاع في التاريخ باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة!.

غير أن هذا الاتحاد الممسوخ، الذي قصد به أساسًا فرض الحماية الفرنسية على ألمانيا، لم يقدر له أن يعمر طويلًا، إذ سرعان ما انحل بزوال سلطان نابليون، ولم يكن "الاتحاد" الذي رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بأحسن حظًا من قرينه، وإن كان العدد الإجمالي للدويلات الألمانية الداخلة في هذا "الاتحاد" الأخير بعبارة أدق، هذا "المجمع" أو "الديت" Diet قد هبط إلى تسع وثلاثين، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها، وأن تمنع وحدها أجازة وتنفيذ لكل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدي، وباختصار لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة في هذا "الديت" ولا شك كانت العلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم في رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم. فالبعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا، والبعض الآخر يرمى إلى دولة ألمانية تدين بالولاء للنساج النمساوي وثالث يروم اتحادًا تعاهديًا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى، أن تكون فرقًا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها. وهكذا لاحت ألمانيا كأنها تتحرك وتسير في ضباب فلسفي، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسي ميشليه Michelet بأنها "آسية أوروبا"!

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما أكثر الدول الأوروبية إفادة من هذا الوضع المتردى في ألمانيا؛ الأولى ضمننت عدم قيام دولة قوية على حدودها الشرقية، والثانية اطمأنت إلى سيادتها على هذه المنطقة، وكان هذا مما أذى مشاعر الألمان؛

خاصة وأن النمسا لم تكن من قبل سوى دوقية أوستريا Austria التي تشكلت بصورة رسمية في منتصف القرن الثاني عشر على يد فردريك بربروسا⁽¹⁾ Frederick Barbarossa وكان هذا دافعا لبروسيا، ذات الطبيعة الاسبرطية، العسكرية، والتي وجدت في التآلف بين فرنسا والنمسا اعتداء على حقوق كانت تدعيها بالزعامة، كي تتحين الفرصة السانحة لتأكيد زعامتها تلك، وساعدتها الظروف بتولى بسمارك Bismarck منصب المستشارية فيها.

وعبر أحداث طويلة وجهود مضنية بذلها الرجل، ولا مكان هنا لذكرها، كان يهدف بها أساسا إلى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا، خاض حربين حاسمتين الأولى ضد النمسا في عام ١٨٦٦ تمكن على أثرها في العام التالي من توحيد شمالي ألمانيا، والثانية سنة ١٨٧٠ ضد فرنسا، وهي التي ذاعت شهرتها بالحرب السبعينية، تمخضت عن قيام الاتحاد الألماني، أو الإمبراطورية الألمانية، وعلى الرغم من ذلك، فإن الذي يعنينا، أنه رغم وجود أناس عديدين رأوا أن الوقت مناسب لإقامة دولة مركزية قوية في ألمانيا فإن بسمارك لم يكن واحدا منهم! فقد كان يردد دائما "أنا لا نروم أن نتضم إلينا بافاريا هي غير راضية، بل نبتغي دولة نتضم إلينا بملء اختيارها وحريتها" ويدرك أن هذه "الذاتية" المتمثلة بوضوح في الولايات الألمانية تضرب في الأرض بجذورها وصولا إلى العصور الوسطى وعبر عن ذلك صراحة بقوله: "أن السلطة المطلقة للأمرء كانت اكتسابا جذريا تحقق على حساب الدولة ووحدها"^(٢).

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية في الجنوب بعد الحرب السبعينية؛ لكي يجعلها تقبل على الاتحاد وهي راضية وفيما يتعلق ببافاريا بصفة خاصة كان على استعداد أن يمنحها حقوقا واسعة كالهيمنة على جيشها أيام السلم، واسماع صوتها في الشؤون الخارجية، وتخويلها نظاما مستقلا للبريد والتلغراف. وهذه كلها

(1) Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394.

(2) Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30

تمثل بشئ من التفاوت بمقتضى التطور التاريخي، حقوق الأمراء الألمان في العصور الوسطى وليس ثمة ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بافاريا رضى أن يضع بنفسه التاج الإمبراطورى على مفروق وليم الأول ملك بروسيا فى حفل تتويجه إمبراطورًا على ألمانيا وإن يكن الدستور الألمانى الجديد الذى صدر فى عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكداً "الذاتية" أو روح "الانفصالية" الكامنة فى الأرض الألمانية، بل لقد دعى رئيس الاتحاد أو الإمبراطور القيصر الألمانى وليس قيصر ألمانيا وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الاتحاد ولم يكن "القيصر" يستمد سلطته من كونه "رئيسًا للاتحاد الألمانى"، بل من كونه ملكًا على بروسيا لقد كان الأمر - على حد تعبير المؤرخين: جرانت Grant وتميرلى Temperley "أشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة فى سرب الصيد يتصدرها جميعًا ذئب رمادى ضخم هو بروسيا يجرى فى أعقابها أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرتمبرج ويسير فى ركابه خمسة وثلاثون حيوانًا أصغر، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة".

بل إن الحال حتى ثلاثينيات القرن العشرين، لم تختلف كثيرًا عنها فى القرون التى سبقتها إلى قلب العصور الوسطى، عندما علت من جديد نعمة "الانفصالية" بين الفيدراليين وأنصار الدولة الموحدة، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسس الاتحاد الألمانى فى القرن التاسع عشر وعلى بروسيا. مما دفع الزعيم النازى هتلر أن يكتب فى كتابه "كفاحى" مدافعًا عن سلفه بسمارك، مؤكداً أن الرجل كان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية فى دويلات ألمانيا ودويلاتها آنذاك، وأنه "أحل هذه الحقائق محلها من التقدير، فجعل تمثيل دول الاتحاد فى مجلس "البوندسرات" متناسبًا وأهمية كل منها، ولزم جانب الحكمة والاعتدال فى تعزيز سلطة الاتحاد على حساب الدويلات التى يتألف منها، فما أخذ منها إلا ما كان الاتحاد بحاجة ماسة إليه، وحرص فى الوقت نفسه على احترام العادات والتقاليد المحلية .. لقد أثر المستشار الحديدى مداراة الدويلات الألمانية تاركًا للزمن أن

يكمل ما بدأه هو؛ لأن الطفرة غير مأمونة العواقب، فدلل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقته^(٣).

والباحث في تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضيها إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين يجد نفسه مواجهاً بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليات هذا القرن إلى تلك الحالة من الاعتزاز بـ"الذاتية" أو حتى "الانفصالية"، والتي صدق عليها قول المؤرخ طومسون: "أن ألفا من السنين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لإضعاف ولاء الألمانى تجاه نزعتة القبلية فالبافارى أو السكسونى كان يميل دائماً إلى اعتبار نفسه هكذا على أن تدعوه ببساطة ألمانيا"^(٤).

والذى يزيد الأمر حيرة أنه فى الوقت الذى بدت فيه فرنسا وبريطانيا فى القرن العاشر الميلادى ملكيات مهلهلة، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية آنذاك، لكن ما لبث أن تبدل الحال، فما أن وافى القرن الثالث عشر، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الإقطاعية ملكية قوية، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة. بينما أفلح النظام فى إنجلترا، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورمانى وخلفائه الأنجويين فى إخراج ملكية قوية مقيدة، أو بتعبير حديث..

(٣) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث، والحال التى آلت إليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين، والتي عرضنا لها فى هذه الصفحات السالفة فى إيجاز شديد، كنتيجة حتمية، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى، يمكن الرجوع إلى هذه الكتب:

بول هازار، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر، جزءان ترجمة محمد غلاب، القاهرة ١٩٥٨-
١٩٥٩؛ بيير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥-١٩١٤، ترجمة جلال يحيى - القاهرة بدون تاريخ؛ جرانت وتمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان: الجزء الأول ترجمة بهاء فهمى، القاهرة بدون تاريخ؛ فيشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠ - القاهرة ١٩٥٨؛ هنتر، كفايحى، ترجمة لويس الحاج - بيروت ١٩٦٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣. ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحي باقاربا شاركت بحماس فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يعتقدون أنهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى. البروسيين! راجع :

Thompson and Johnson, op. Cit., p.353.

(4) Thompson and Johnson, op. Cit., 353.

دستورية منذ صدر العهد الأعظم في عام ١٢١٥ هذا على حين أمست ألمانية ملكية ممزقة، تتقاذف سفينتها أنواء طموحات أمراء الإقطاع من العلمانيين والاكليروسيين على السواء، هذا على الرغم من أن السمات العامة للنظام الإقطاعي الأوروبي في العصور الوسطى كانت واحدة، متمثلة في انحلال السلطة المركزية لحساب السلطات المحلية، من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية^(٥).

هذه التساؤلات التي تطرح نفسها الآن، تدفعنا إلى أن نعود بفكرنا إلى ذلك التاريخ البعيد، وعلى وجه التحديد عام ٩١١ عندما انتهت سلالة البيت الكارولنجي الحاكم في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية ألمانيا، بوفاة لويس الطفل هنا وجد الأمراء الألمان أمام اختيارين لا ثالث لهما، أما الالتجاء إلى فرع الأسرة الآخر في فرنسا، وأما العودة إلى التقليد الجرمانى القبلى القديم باختيار مليكهم، ولما كان الملوك من أسرة شارلمان، لم يحققوا لألمانيا خلال نصف القرن الأخير أو يزيد، الحماية ضد أعدائها الخارجيين، الذين استباحوها من الشمال والشرق^(٦)،

(٥) للمزيد من التفاصيل من السمات الإقطاعية للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى الكتب التالية :

H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66;
G. A. Hodgett, A Social and economic history of Medieval Europe, pp.24-35;
F. Ganchof, Feudalism Hong Kong 1976;
Stephenson, Mediaval History, pp. 199-241; P. Vinogradoff, Feudalism, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)
وله أيضًا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨ وللأستاذ كوبلاند كذلك. القنية والإقطاعية (مقال في تاريخ العالم الذى أشرف على نشره السير جون، هامرتن، المجلد الخامس، ص٣-٢٢؛ اسحق عبيد: الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع، بيروت ١٩٧٥؛ سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج٢ ص٤٢-٨٨؛ إبراهيم العدوى: المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، ص١١١-١٢٦. أما عن النظام الإقطاعى فى إنجلترا فيمكن الرجوع إلى:

F. Barlow, The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London 1974; D. Douglas, William the conqueror, London, 1969.

(6) Barraclough, The Origins of Modern Germany, pp.15-19.

فقد أثروا أتباع الطريق الأخير، ورجبوا فى أن يختاروا أوتو Otto دوق سكسونيا القوى ملكاً عليهم، غير أن الرجل اعتذر لتقديم به، ورشح لهم قرينة كونراد Conrad دوق فرنكونيا Franconia فتم اختياره بلا معارضة. فأصبح كونراد الأول بذلك أول ملك ألماني، جرى تنصيبه بأيدى الأمراء^(٧).

هذه الحادثة تمثل نقطة فاصلة فى تاريخ ألمانيا، فالملك الجديد لم يكن بمقدوره ادعاء أنه ينحدر من الأسرة الكارولنجية، ولم يكن باستطاعته إنكار أنه تم رفعه على العرش الألماني بيد أقران له، لا يقلون عنه مكانه أو مرتبة .. بتعبير آخر، هم الذين صنعوه ملكاً، من هذا المنطلق وبمقتضى هذه الخلفية وراء كل من الجانبين تحددت العلاقة الجديدة بين الملك والأمراء فى ألمانيا ورسمت الخطوط الغائرة فى جبهة التاريخ الألماني تشمل صراعاً مريراً بين هؤلاء وبينه، بتعبير أدق.. بين الملك بحرصه ودفاعه المستميت فى سبيل إقرار حقه فى تعيين خليفته على العرش من بين أبنائه أو أفراد أسرته، أى جعل الملكية وراثية، يستمد منها بمقتضى حق الإرث سلطانه وقوته، والأمراء باستمساكهم بكل صلابة وعناد بحقهم فى اختيار الملك من واقع ممارستهم له الآن (٩١١)، وامتداداً لتقليد جرمانى قبلية كان لدى الأجداد قائماً، وحرصاً على تحقيق ذواتهم ومطامحهم.

ومن ثم لم يكن غريباً أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة هذه التجربة؛ إذ راح كونراد على الفور يبذل قصارى جهده لتثبيت سلطانه كملك على الأدواق، وتدعيم نفوذه فى الداخل، لكن الخطأ الذى ارتكبه كونراد، أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح بلوغاً إلى تحقيقه، فبدلاً من قيادة الجهود الألمانية بنجاح ضد المجيار والصقالبة والدانينين، ترك كل دوقية تتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة^(٨)، ما دامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم فبدأ فى أعين الأدواق كما لو كان حاكماً لدوقية وليس ملكاً^(٩). بل أن مغامراته

(7) Schmediler, Franconia's place in the Structure of Medieval Germany, p.80.

(8) Scott, Medieval Europe, p.61.

(9) Brooke, A history of Europe, p.21; C.M.H. III, P.69.

الخارجية ووجهت أساساً لقهر اللورين لسلطانه، وحتى هذه فقد فشل فيها⁽¹⁰⁾. وزاد الأمر سوءاً، أنه بغية توطيد سلطانه، اعتمد بصفة أساسية على الكنيسة يدفعه إلى ذلك ما ارتآه في نفسه وعلاقاته المطردة سوءاً مع الأمراء فهو باعتباره دوقاً لفرنكونيا لا يستطيع أن يمد سلطانه - كعلماني - خارج حدود دوقيته في ظل هذه الظروف التي تحيط به، أما باعتماده على رجال الاكليروس يصبح ممكناً ممارسة سلطة أوسع نسبياً عبر ألمانيا. ومن هنا ألقى بحظه كله دفعة واحدة في كف الكنيسة ممثلة في أساقفة مينز Mainz وكونستانس Constance وسالزبورج Salzburg.. خاصة وأن الأخيرين على الأقل كانا في عدااء مع دوقي منطقتيهما.

ولما كان العاقل، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذي يتأكد من أنه لن يستطيع أن يستغنى عن أولئك الذين هو نفسه لهم بالتاج الذي يضعه على مفرقه، فقد كان طبيعياً فشل سياسة كونراد الأول فشلاً ذريعاً، تلك التي لم يجن من ورائها إلا سخط الأمراء العلمانيين الذين وضعوا أنفسهم على هذا النحو منذ البداية في مواجهة التاج، إلى الحد الذي دفع أوتو دوق سكسونيا الذي لعب الدور الأساسي في اختيار كونراد ملكاً، إلى التخلي عنه وهجر جانبه بل وتحديه، وفعل الأدواق الآخرون مثل فعله، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلي في دوقيتهم، وإثبات ذواتهم وسلطانهم بين أناسهم الذين يحكمونهم، وتحويل ولاء هؤلاء إليهم شخصياً، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعاً من الهيكلية وما أن وافى عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها في دوقيتهم، وأضحت هذه تشبه ممالك صغيرة، وأمسى كونراد قبل أن يوافيه أجله في العام نفسه، ملكاً إسمياً فقط، بل حتى دوقاً فاشلاً لفرنكونيا ذاتها⁽¹¹⁾. ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسته النجاح في مواجهة تحديات الأمراء خصمه اللدود هنري دوق سكسونيا، ولذا جاءت آخر كلماته وهو على فراش الموت: "أن مستقبل المملكة معلق بالسكسون"⁽¹²⁾، ولهذا أيضاً جاءت توصيته باختيار هنري خلفاً له، وللمرة الثانية

(10) Scott, op. Cit., p.61.

(11) Barraclough, op, cit., p.22; Scott, op. Cit., p.63.

(12) C.M.H. Vol. III, p.174.

خلال جيل واحد، مارس الأمراء تقليدهم الجرمانى باختيار الملك، وعلى الرغم من أنه لم يشترك فى اختيار هنرى غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا، إلا أن هنرى بذل جهودًا مضنية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأذواق الآخرين^(١٣).

وعلى هذه الصورة بدت الملكية الألمانية - كما جاء على لسان المؤرخ جيسبرخت Giesebrecht اتحادًا فيدراليًا من ولايات متعددة، قاد إليه ذلك المفهوم الفرنجى عن الملكية، والفكرة الجرمانية القديمة عن الاتحاد الحر، والتي من خلال الاتحاد "القبلى" لكل منها، أدت إلى علاقات تدعيم سيادة أسرة بعينها، بحيث يمكن أن نسمى ذلك فيدراليًا وأصبحت المشكلة قائمة فى التساؤل حول.. هل يؤدي ذلك إلى أن يقود التنظيم الجرمانى إلى إقامة نظام فيدرالى حقيقى؟ أو إحياء الملكية الفرنجية؟ وهذا بالفعل ما تبدى لهنرى الأول، بحيث تمكن بشئ من العنف والإدراك الواقعى، أن يحقق كسبًا معينًا من أجل سيادة دوقيته، تاركًا المستقبل لشأنه^(١٤).

هكذا .. وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة، شهدت ألمانيا صراعًا طويلًا بين سلطان التاج وسلطات الأمراء، خفيًا حينًا، سافرًا أحيان كثيرة، كل يسعى لتدعيم نفوذه، وتأكيد ادعاءاته، فى ملكية وراثية شأن الممالك الأوروبية الأخرى خاصة فى إنجلترا وفرنسا، أو ملكية انتخابية، الملك فيها ليس إلا الأول بين أقرانه Primus inter pares، مما طبع تاريخ ألمانيا كله حتى سنها المعاصرة بهذه النزعة "الانفصالية" العميقة الجذور فى تربتها أرضًا وسكانًا ولا شك أن هناك عوامل متعددة، متباينة تكاثفت كلها لتعمل سويًا على تعميق هذا الاتجاه "القبلى" أو "الانفصالى" بين الدوقيات الألمانية.

(١٣) قاد هنرى الأول حملة لأكراه أرنولف دوق بافاريا على الخضوع له، ولم تخضع له اللورين إلا فى عام ٩٢٥. راجع : C.M.H. Vol. III, p.179-180.

(14) Joachimsen, The investiture contest and the German constitution, p.97.

يتساءل الجغرافيون .. ما هي ألمانيا؟ ويجيبون .. هي كما يعرفها القوميون الألمان "وطن الألمان" Deutschland وهذا الوطن لم يتحد في دولة واحدة إلا منذ عام ١٨٧١ وهو يتسع ليشمل غرباً الألزاس واللورين، ويمتد شرقاً ليحاذى ساحل البحر البلطى فالسهل الألماني جزء من سهل أوروبى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فبولندا فألمانيا حتى هولندا، وكذلك المرتفعات الهرسينية جزء من إقليم جيولوجى أكبر وهكذا إذ أن النطاقات الطبيعية فى وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية، بينما ألمانيا تقطع هذه النطاقات من الشمال إلى الجنوب وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانيا تنحصر فى إقليمين .. القسم الشمالى السهلى المنبسط، والقسم الجنوبى المرتفع، المكون من هضاب قديمة وأحواض داخلية وإذا رسم خط متعرج من آخن فى الغرب إلى هانوفر وليبزيج وجورلتز على نهر نيسى Neisse فإنه يفصل بين هذين القسمين التضاريسيين لألمانيا فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية التى تعتبر جزءاً من السهل الأوروبى الأعظم، مموج السطح، ينحدر انحداراً تدريجياً نحو بحر الشمال، ولا يزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم، بينما يزيد ارتفاع الجزء الجنوبى عن هذا القدر. بل أن القسم الشمالى السهل ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ غرب نهر الب Elbe وهو سهل صغير تتحدر أنهاره نحو بحر الشمال، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعاً وينقسم بدوره إلى عدة أقسام صغرى، وتجرى أنهار نحو البحر البلطى، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل، متداخلة فى الإقليم الجنوبى لألمانيا، الذى تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب^(١٥). يضاف إلى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية، هو عدم وجود حدود طبيعية منيعة تحيط بالوطن الألمانى الأصلى، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية فى ألمانيا، لأن ألمانيا لم تقترن فى ذهن الألمانى، منذ القرون الأولى للميلاد، بوطن معين ذى حدود طبيعية، هذا على عكس الحال فى فرنسا تماماً^(١٦). وتلك نقطة

(١٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه النواحي - انظر: دولت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية، الجزء الأول، ص ٤٧٤-٤٨٥.

(١٦) دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الجغرافية السياسية، ص ٢٤٠-٢٤١.

جديرة بالأهمية يوليها أصحاب النظريات السياسية اهتمامًا خاصًا، ويعتبرونها ركناً أساسيًا من أركان قيام الدولة^(١٧).

هذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة، واختفاء الحدود الطبيعية، فرضت نفسها على الألمان بصورة واضحة، في التناظر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك، وساعد على التباعد جريان الأنهار من القلب إلى الأطراف هنا وهناك، ف جذب الناس بتجارتهم من المركز، الذي لم يكن له وجود أصلاً، كجزيرة فرنسا Ile de France وباريس في وسطها إلى الأطراف، كل يسعى بتجارته حسب تيار النهر. وكان هذا عاملاً هاماً في ازدياد هوة "الانفصالية" في ألمانيا. فإذا أضفنا إلى ذلك عنصرًا آخر خاصًا بالتكوين البشري، أدركنا مدى عمق هذه النزعة. فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير في فرنسا بصورة سريعة جدًا، كان في ألمانيا على العكس من ذلك، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية^(١٨)، وحيث كان الاتجاه القبلي في ألمانيا قويًا يتمثل في إقامة وحدات سياسية ألمانية على أساس قبلي^(١٩)؛ ذلك أن ألمانيا مع نهاية القرن العاشر، كانت مقسمة إلى خمس دوقيات كبيرة؛ لوثارنجيا، سكسونيا، بافاريا، فرنكونيا، وسوابيا، تتفق حدود الأربع الأخيرة تمامًا مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة: السكسون والبافاريتين والفرنجة والألماني وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتها داخل أراضيها التي تملكها، وحتى داخل نطاق الإمبراطورية الكارولنجية بصورة لا تعرف الملل. وبينما كانت سكسونيا تحتل في الشمال بصفة دائمة، مركزًا مؤثرًا وحيويًا في الحياة السياسية الانفصالية، كان هناك في الجنوب

(١٧) عبد الحميد متولى، الوجيز في النظريات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية، ص ١٢٤-١٢٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، ص ١٩-٤٠؛ وأيضًا : هارولد لاسكى، أصول السياسة، الجزء الأول ص ٣٩-٥ ومن الجدير بالملاحظة أن النظرية الألمانية من الدولة التي تأثرت إلى حد كبير جدًا بالواقع الألماني، حيث ترى أن العبرة في قيام الدولة هي وجود حكومة تملك سلطة إصدار أوامر ملزمة في قدر معين من الشؤون المتصلة بنظام الحكم، ولو لو تكن لها السيادة بالمعنى المطلق في تلك الشؤون كافة وهي نظرية لم تلق أي قبول انظر، محمد كامل ليلة، المرجع السابق، ص ٤١-٤٢.

(18) Mayer, op. cit., p.8 .

(19) Strayer and Munro. The Middle Ages, p.148.

مركزان كبيران هما سوابيا وبافاريا اللتان خضعتا لمملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين ولا نجد تعبيراً أدق وصفاً لحالة التنافر بين هذين العنصرين، أفضل مما يذكره المؤرخ الألماني "شميدلر" (20) في قوله: "قلما تجد بين قبيلتين ألمانيتين من الكراهية، ما تجده السوابيين والبافاريين. لقد راح العداء بينهما يزداد نموا واضطرابا، ويتمثل في مظاهر واضحة أبرزها العداء بين الولفيين والهوهنشتاوفن Hohenstaufens فمع نهاية القرن الحادى عشر كان الولفيون هم البافاريين، والهوهنشتاوفن هم السوابيين، وخلف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الشعبين وكانت إيطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة.

ولقد حاول شارلمان تنويع هذه العصبية القبلية، غير أن نجاحه كان محدوداً ومؤقتاً، لم يلبث أن ضاع بوفاته ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شاحبة، لدرجة لم يكن ممكناً معها قهر الشعور القبلى، فقد ازداد هذا الشعور رسوخاً من جراء الضعف الذى كان عليه خلفاؤه، والذين شغلوا أنفسهم بمشروعات تتسم بالأنانية، وهجروا بالتالى سياسته، ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الخارجية واضحا، أصبح الجو مهياً لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات (21). بل لعله مما يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم، خلفاء شارلمان، ساعدوا بصورة مباشرة على تعميق النزعات القبلية. ففي عام 869 قسم لويس الألماني جيشه بصورة تحمل طابع التفسخ الواضح، فوجه الثورنجيين لحرب الصرب، والبافاريين ضد مورافيا، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته، ولما كان السكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالية، فقد تحرروا على يد لويس الألماني من الالتزام بالمشاركة فى حملاته العسكرية وكان هذا دافعا لهم كي يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية (22).

(20) Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval Germany, pp.74-5.

(21) Thatcher and McNeal, 8 Source book for Mediaeval history, pp.69-71.

(22) Barraclough, op. Cit., p.19 .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التي تعرضت لها ألمانيا، واعتماد الدوقيات على قواها الخاصة في هذا المجال، جاءت نشأة الأذواق نشأة عسكرية، حيث اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة أو الأفاخذ Stems كما كان يطلق عليها، بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الإدارية، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعي ابان الفترة الكارولنجية، خاصة في فترة الضعف التي شهدتها عهد لودفيج Ludwig الطفل، وقد لقي هذا الاغتصاب للقب "دوق" قبولاً حسناً، حيث نظر الناس في كل دوقية إلى هذا "الدوق" باعتباره ممثلاً لوحدتهم القبلية^(٢٣). ففي سكسونيا برزت عائلة "ليودولف" Liudolfinger والتي منها انحدر ملوك ألمانيا السكسون فيما بعد، باعتبار أفرادها القادة العسكريين للحدود الشرقية Ducis orientalis Saxonum وفي بافاريا جاءت العائلة الحاكمة من ليوتبولد Liutpold الذي قتل في إحدى المعارك ضد المجيار، وخلفه ابنه أرنولف الذي قرن لقبه بـ "العناية الإلهية" Dei providentia أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقب دوق راثينيا dux Raetianorum يعني حماة ممرات الألب السويسرية على حين احتلت عائلة كونرادين الزعامة في فرنكونيا بعد الصراع الداخلي الذي دار بينها وبين عائلة بيبين، وانتهى بتحطيم الأخيرين عام ٩٠٦، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا^(٢٤).

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية في السياسة الاستقلالية للألماء الألمان في مواجهة الملكية، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تأت من جانب سلطة حكومية مركزية، بل جاءت ملكيتها نتاجاً ملحقاً خالصاً وبالتالي فإن النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وممتلكاتهم، ليس عن طريق الحصول

(٢٣) كانتور، التاريخ الوسيط ترجمة قاسم عبده قاسم الجزء الأول، ص ٣٥٥ وانظر أيضاً:

Thatcher and McNeal, op. Cit., pp. 69-71

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية، يمكن الرجوع إلى:

Z. N. Brooke, op. Cit., p.7 وأيضاً Schmeidler, op. Cit., p.79 وكذلك

Barraclough, op. Cit., p.19 ودكتور نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص

٤٤٨-٤٥١.

عليها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتمادهم على العصبية القبلية^(٢٥). من هنا يمكن تفسير غيرتهم على هذه الحقوق، ومن هنا أيضاً تتضح الحقيقة القائلة بأن النبالة الألمانية كانت دائماً متمردة، بل ومتمامرة في عهد الملوك الأقوياء، على حين تظل على ولائها إزاء ملك ضعيفاً ويعود ذلك في المقام الأول إلى أن زعماء الجرمان المبكرين كانوا يقودون شعوباً تتكون أساساً من الأحرار، ونسبياً من أرقاء لا يرتبطون مباشرة بالحاكم، بل يخضعون للمادة المباشرة، وأثناء فترات الاضطراب التي صاحبت حركات الهجرة التي استمرت قرابة القرون الأربعة، راحت طبقة الأحرار تتناقص^(٢٦)، فلما خضعت الأراضي الألمانية للفرنجة، ولم يكن هذا الخضوع قد حدث دفعة واحدة، بل على فترات متباعدة، ولقى الفرنجة زمن شارلمان مقاومة عنيدة وتحدياً لسياسة الضم هذه خاصة من جانب السكسون^(٢٧)، كان ينظر إلى كل فرد يمتلك أرضاً يؤدي عنها ضريبة، باعتباره حراً، ويمنح كل الحقوق التي تخول للمواطن الحر ومن بين هؤلاء ظهرت طبقة أرستقراطية وعائلات ثرية راحت تزداد تباعداً عن الأحرار الذين لم تكن ملكياتهم تتعدى مساحات صغيرة محدودة^(٢٨).

وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الأحرار يشكلون جماعات الخدمة العسكرية، بينما الآخرون يكونون الكونتات أو القادة ولما كانت الملكيات الزراعية لهؤلاء واسعة ومبعثرة في أنحاء كثيرة من ألمانيا، بل وربما أحياناً عبر الحدود في فرنسا أو إيطاليا، أصبحت هذه الطبقة الأرستقراطية هي المهيأة لممارسة الوظائف العامة، فأضحت الكونتيات والأسقفيات والأديرة في أيديهم، والقيادة في الحرب^(٢٩).

(25) Bryce, The holy Roman Empire, pp. 121-122.

(26) Freiherr V. Dungen, Constitutional reorganization and reform, pp. 204-20

(٢٧) ليس هناك شعب من الشعوب قاوم الغزو الفرنجي والاندماج في الإمبراطورية الفرنجية، كما فعل السكسون تحت قيادة زعيمهم الأشهر فيدوكيند Widukind وكان من نتيجة حروب شارلمان التي استمرت من ٧٧٢ حتى ٨٠٤ فناء جيل بأكمله، ولم تنته إلا بعد أن أكره عدد كبير من السكسون مع أسرهم على ترك سكسونيا والاستقرار في الأقاليم الفرنجية. انظر

Barraclough, op. Cit., p.8.

(28) Freiherr V. Dungen, op. Cit., p.205.

(29) Ibid, p. 206

حقيقة أن الكونتات على عهد شارلمان، كانوا موظفين ملكيين، يمكن-على الأقل من الناحية النظرية- تغييرهم بيد الإمبراطور، حتى إذا جاء القرن العاشر الميلادي، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون ألمانيا باعتبارهم أدواقاً، يتمتع الدوق منهم داخل حدود دوقيته بسطان يفوق سلطة الملك، وأصبح منصبه وراثياً، وبالتالي أصبح من المهام الصعبة على الملك إحلال غيره محله⁽³⁰⁾. ويعبر المؤرخ الألماني ماير Mayer عن هذه الحال بقوله؛ أن الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من التاج، بل وحدات تعود إلى أصول مستقلة⁽³¹⁾ وأخذ استقلال الدوقيات يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة في كل دوقية عن الأخرى، بل وحتى الأهداف وراح هؤلاء الأدواق ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم حماة جيورين على هذه الادعاءات والاختلافات⁽³²⁾ وليس أدل على ذلك من أنه في أثناء فترة الحرب الأهلية التي دارت بين الأخوة الأعداء أبناء لويس التقى، ما بين عامي ٨٣٢-٨٤٠، لم تكن ألمانيا موحدة في اتجاهاتها؛ فبينما كانت بافاريا وحدها تؤيد لويس الابن، تأرجحت سكسونيا وثورنجيا وسوابيا وفرنكونيا في مواقفها، وإن ظلت على ولائها للويس الأب التقى. فلما مات هذا بقي الأمر معتقداً خلال الحرب الأهلية الثانية ففي سكسونيا مثلاً، ونتيجة لصراعات طبقية، اختلفت الأهواء؛ فالأرستقراطية النبيلة أيدت لويس الألماني (الابن)؛ لأن الأغلبية العظمى المكونة من الأحرار أيدت لوثر! لم تكن هناك إذن وحدة في الهدف في ألمانيا إبان هذه الحرب الأهلية التي انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣، ولا حتى بعد أن خضعت كلها للويس الألماني بمقتضى المعاهدة لقد اعتمد أولاً على بافاريا، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه سكسونيا!.

وعلى عكس ما كان عليه الحال في فرنسا، خلت ألمانيا من وجود جهاز إداري بها، فلقد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك، وكان هذا في

(30) Scott, op. Cit., p.60

(31) Mayer, op. Cit., pp.15-16, 27.

(32) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211.

حد ذاته يعد الشكل الأول من أشكال النظام الإداري في ألمانيا، كما أن الظروف التي عینوا فيها كانت تختلف تمامًا في سكسونيا وبافاريا مثلًا عنها بالنسبة للجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية، نعى فرنسا.

لقد كان الكونت في ألمانيا لا يعدو كونه مبعوثًا ملكيًا عين ليفرض ويؤكد الحكم للفرنجي فوق شعب مهزوم، ينحصر واجبه الأساسي في تحقيق رغبات سيده الملك الفرنجي ومن ثم كان عمله في المقام الأول سياسيًا ولم يكن إداريًا⁽³³⁾ وكان وجود الملك في غالة بعيدا عن ألمانيا، التي لم يكن بها-كما أسلفنا- سوى نوابه، عاملاً أساسيًا في ضعف سلطان الحكومة المركزية بها، بله عدم اعتياد الألمان الخضوع لحكم مركزي مباشر، ومن هنا يمكن القول أنه لم يمكن هناك في ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه وهكذا فإنه تحت سطح الوحدة الظاهرية التي تكونت بقيام الإمبراطورية الكارولنجية، فإن كل إقليم من أقاليم الإمبراطورية كان يحتفظ بحياته الخاصة وتاريخه ومشاكله وخصائصه الجغرافية، فعدت الإمبراطورية على هذا النحو دولة غير متجانسة مع تقاليدنا السياسية.

ويعود ذلك في المقام الأول إلى أنه في الوقت الذي كانت فيه فرنسا إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية، لم تكن ألمانيا كذلك. ولذا فإن النظام السياسي في الأولى، لم ينمو مستقلاً من التربة الفرنسية، بل فرض على أرضها بأيدي الرومان، فلما غزا الفرنجة غالة، ووجد كونتات الفرنجة أنفسهم وسط نظام إداري روماني قائم بالفعل، كان قد أضحى أمرًا طبيعيًا راسخًا خلال خمسة قرون من الحكم الروماني، فوجهته الطبقة الحاكمة الجديدة حسبما تقضى مصالحها⁽³⁴⁾. وظل نظام الحكومة الرومانية، والمبادئ الأساسية للجهاز الإداري للدولة، على حالهما دون أن يتعرضا للتخريب، وبقيت للقانون الروماني هيئته، وأصبحت له صلاحيته لسكان الغال - الرومان Roman - Gallo ، كما بقي النظام الضرائبي للدولة حيا في

(33) Barraclough, op. Cit., pp. 8-9

(34) Mayer, op. Cit., p.5.

أسسه ومبادئه بل وحتى وقت متأخر، إلى القرن العاشر عندما كانت تجبى ضريبة الدانيين^(٣٥). Danegeld خلاصة القول أن مفهوم الوحدة السياسية للدولة، الذي تمثل في هذا النموذج الروماني، لم يدمر في فرنسا، وأثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسية في العصور الوسطى بل والأزمة الحديثة. أما ألمانيا فلم ينضو منها تحت السيادة الرومانية إلا جزء ضئيل، ولم تمارس الإمبراطورية فيها عملية التوحيد التي طبقتها في غالة. وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية لإمبراطورية الفرنجة، لم يحدث ذلك دفعة واحدة، بل على فترات، كما أسلفنا، ولم يجد الفرنجة ميراثاً إدارياً لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان، وكان عليهم أن يتعاملوا - عندما أخضعوا سكسونيا مثلاً - ما أناس لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحكومة الملكية، ولا يعرفون شيئاً مطلقاً عن النظام الإداري الروماني ولم يكونوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت إلى المسيحية^(٣٦). ولذا فإن الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان عليه الحال في فرنسا؛ ذلك أن البعثات التي قدمت إلى الأراضي الألمانية، جاءت من مملكة الفرنجة، وكانت الكنائس والأديرة الكبيرة التي شيدها بونيفاس Boniface وأتباعه، بمثابة الطلائع التي مهدت للتوسع الكارولنجي بعد أن قام الرهبان بتصوير الناس، وتأسيس مراكز للتعليم والحضارة، فأوجدوا بذلك الكنيسة الألمانية التي عرفت بهذا طريقها إلى الوجود قبل أن توجد أية زعامة ملكية ألمانية فعالة وهي بهذه الصورة تعد عملاً فرنجياً وليست ميراثاً رومانياً^(٣٧).

كانت ألمانيا إذن أرضاً تم غزوها من جانب الفرنجة، وطبقت فيها النظم الفرنجية، فالدوق في أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الروماني، كما كان

(٣٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية في غالة الفرنجة، راجع البحث القيم الذي كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحت عنوان Gaul under the Merovingian Franks., C.M.H., Vol. II, pp. 133-158 وأيضاً، موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٣١٩-٣٢٢.

(36) Barraclough, op.cit., p. 7.

(٣٧) كانتور، التاريخ الوسيط، ص ٣٥٩.

عليه الحال في فرنسا، بل خليفة الموظف الفرنجى. وحتى هذه لم يكتب لها السيادة هناك. وبالتالي فإن النظرية عن الدولة، لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانية^(٣٨) وباختصار .. فإن الوحدات الألمانية المستقلة، والتي لعبت دوراً معيناً فى المهام الحكومية، ولم تستمد سلطاتها من التاج، بقيت منذ البداية عنصراً أساسياً فى الحياة العامة. وساعد على ذلك أن النظام المبعوثين الملكيين الفرنجى لم يكن من الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا. وسرعان ما هوى وققد رؤساء البلاط أهميتهم منذ بواكير القرن التاسع. كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبي فى ألمانيا، حتى قبل نهاية العصور الوسطى. يضاف إلى هذا كله أن التشريعات الكنسية والزمنية كلها توقفت فى ألمانيا بعد تقسيم الإمبراطورية الفرنجية مباشرة^(٣٩).

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتاً، ولا الإدارة فيها معروفة، يصبح الارتباط والولاء الشخصى أهم العناصر فى إدارتها وحياتها السياسية، ومن ثم اعتمد الحكام على أشخاص بعينهم، وركنوا إلى ولائهم، بالإضافة إلى اعتمادهم على مساحات واسعة من الأراضى تحت تصرفهم يبنون عليها سلطانهم الملكى، دون أن ينجحوا أو حتى يحاولوا إقامة جهاز إدارى كامل يمكن أن ينجز حقيقة مشروعاتهم وكان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج الألمانى للدعامة الأساسية التى يرتكز عليها الأمراء أنفسهم؛ ففى خلال الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عام ٩١٨ كانت أراضى الستاج قد تم اغتصابها، بالإضافة إلى أن ما تبقى منها كان مبعثراً فى مختلف الدوقيات الألمانية^(٤٠). وكان هذا على عكس الحال فى فرنسا

(38) Mayer, op. Cit., p.7.

(39) Ibid. p.8; Pirenne, A history of Europe, p.319

(٤٠) يمكن احصاء ما تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتلاء الأسرة السكسونية العرش، على النحو التالى؛ ٨٣ فى فرنكونيا، ٥٠ فى سوابيا، ٢١ فى بافاريا، ١٢ فى اللورين، ٥ فى كل من سكسونيا وفرنيزيا. راجع

Barracough, op. Cit., p. 31

Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp.8,1-13

Hodgett, op. Cit., p.24

وكنك

فرغم أن النظام الإقطاعي كان سائدًا فيها، ضاربًا بجذوره في تربتها، إلا أن الملك كانت له أراضيها الخاصة، وأصبح منذ القرن الثاني عشر قادرًا على أن يسترده الامتيازات التي منحت من قبل لأفصاله، وأن يتخذ عاصمة مستقرة لملكه، تتركز فيها الإدارات الحكومية، وتتجه إليها كل الأنظار.

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية فتغير موطن الأسرة الحاكمة في ألمانيا من دوقية إلى أخرى كان كفيلاً أن يتبعه بالتالي التغيير الكامل في كل مرافق الدولة وأجهزتها سعيًا وراء الملك من دوقية إلى أخرى، فإذا كان الملك من سكسونيا، شأن هنري الأول والأوتوبين، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم، وصخرة قوية في الشمال، ووقفت مثلاً كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين سيادة الملك في إيطاليا وإذا كانت قوة الملك في بافاريا، شأن هنري الثاني، كان قادرًا على عزل سوابيا المعادية دائمًا عن كل من بوهيميا وسكسونيا.

أما إذا كان الملك سوابيا، مثل أسرة الهوهنشتاوفن، ارتبطت أراضيها بفرنكونيا وامتدت تجاه ثورنجا حتى تصل إلى الألب، مكونة حاجزًا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية سكسونيا من ناحية أخرى^(٤١)؛ ذلك أنه لم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا، ولا مركزًا مستقرًا للحكومة حقيقة كانت للملوك قصورهم، لكنها لم تكن لهم مستقرًا ومقامًا، فحيثما وجد الملك توجد الحكومة^(٤٢). بل إن المشكلة لم تكن قاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافي يمكن الوصول إليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم، بل أن ألمانيا افتقدت أيضًا أي شيء يمكن اعتباره مركزًا روحيًا تتجه إليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان^(٤٣).

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات، أنظر:

Schmidler, op. Cit., pp. 82-93

(42) Brooke, op. Cit., p. 20. وأيضا Pirenne, A history of Europe, p.320

D. Waley, Later Medieval Europe, pp.73-74

وراجع أيضا :

(43) Joachimsen, op. Cit., p.99

ولما كان وجود عاصمة دائمة يؤدي بصورة طبيعية إلى قيام حكومة مركزية، على غرار باريس، كان من البديهي أن يتصدى الأمراء الألمان لأية محاولة في هذا السبيل، لأنهم يعلمون يقيناً مدى تأثير ذلك في الحد من نفوذهم وسلطانهم ومن هنا نفهم مغزى اجهاض المحاولة الجريئة التي أقدم عليها هنري الرابع، بهدف تقوية سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك، باتخاذ سكسونيا وبداخلها جوتسler Goslar عاصمة له، وبنى من حولها القلاع العسكرية في منطقة مرتفعات هارتز Harz متمثلاً في ذلك آل كايه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم في جزيرة فرنسا^(٤٤) إلا أن سياسة كهذه كان لابد أن تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجرين، الذين كانوا أقل الشعوب الألمانية اندماجاً في الدولة الألمانية^(٤٥). فإذا علمنا أن هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التي عثر عليها زمن أوتو الأول، وأن ذلك يعنى إعطاء الملك الألماني مصدراً للدخل مستقراً بعيداً عن تحكم الأمراء، أدركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنري الرابع من جانب السكسون^(٤٦).

لا ريب إن في أن الأمور التي عرضنا لها على هذا النحو، ترسم لنا صورة واضحة عن الأحوال العامة في ألمانيا إبان تلك الفترة من العصور الوسطى، وتبين الدوافع الحقيقية التي حدثت بالأمراء الألمان إلى التمسك بحقوقهم الموروثة بحكم النظام الجرمانى القبلى، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكية في ألمانيا خلال القرن التاسع، والغزوات الخارجية الشرسة التى تعرضت لها، والتي تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقيتهم، مما استتبع بالتالى حرصهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينقص ولو قليلاً من امتيازاتهم الواسعة، ولن يتأتى هذا إلا إذا استمرت الملكية الألمانية انتخابية بأيدي الأمراء، بعيدة عن إقرار مبدأ وراثه العرش. لقد كان اختيار الملك

(44) Ibid, pp.110-111; Freitherr V. Dungern, op. Cit., p.211

(45) Thompson and Johnson, op. Cit., pp. 374-375.

(46) Barraclough, op. cit., pp.83-84.

بالنسبة للأمراء - على حد قول بروك Brooke - حقًا أساسيًا بصفة دائمة، ولم يسمح أبدًا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء، بالاعتراف بحق الإرث كما جرى التقليد في فرنسا^(٤٧). ومن الجدير بالذكر أن أساسيات عدد من الملوك الألمان في الداخل، والظروف والمشكلات الخارجية التي تورطوا فيها جميعًا في الخارج، أعنى المشكلة الإيطالية، كانت من العوامل الهامة التي عمقت مبدأ الانتخاب في الملكية الألمانية، وجعلت حق وراثته العرش مع أخريات القرن الثاني عشر نسيا منسيا.

فالاختيار الذي تم عام ٩١١ وجاء بكونراد إلى العرش كأول ملك ألماني، ثم الاختيار الثاني الذي حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنري الأول السكسوني له، كانا لا بد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة في الحكم، وهو الشيء الذي كان مطلوبًا آنذاك للاستقرار الداخلي في العصور الوسطى غير أن هنري الأول الصياد تمكن بسياسته الداخلية، وجهوده الخارجية التصدي للمجبار والدانبيين، من تثبيت دعائم نفوذه، والتمكين لأسرته في حكم ألمانيا. واتضح ذلك جليًا عندما أقدم هنري، وقد حضرته الوفاة - على دعوة الأمراء والناس في ارفورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له. ولم يلبث أن تدعم هذا ثانية باختيار الأمراء الحر بعد وفاة هنري، ومباركة الاكليروس، وموافقة الناس وقد تم ذلك في آخن Aachen، حيث اجتمع الأذواق وكبار الكونتات والفرسان الذين أقسموا يمين الولاء له، ثم قام رئيس أساقفة مينز، وأخذ بيده وقاده إلى صحن الكنيسة مخاطبًا الناس على هذا النحو: "أقدم لكم أوتو الذي اختير Electum من قبل الله، وعين بواسطة هنري، السيد الراحل للمملكة domino rerum وأصبح الآن ملكًا بيد كل الأمراء، فإذا كان هذا الاختيار Electio يسركم، فلتعلنوا رضاكم بأن يرفع كل منكم يده اليمنى"^(٤٨). هكذا - وعلى حد تعبير باركلاف - نجح أوتو الأول عن طريق إرادة أبيه، وإرادة الله بحقوق الوراثة،

(47) Brooke, op. ct., p.19; Waley, op. cit., p.73

(48) Widukind, History of the Saxons, in A Source book for Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp.72-75

وبحق الانتخاب، وبحق الإلهي، نجح في استخدام كل تأكيد رمزي وديني كان متاحًا في ذلك القرن^(٤٩). وبدأ للجميع ساعتها أن مبدأ الوراثة قد أخذ يستقر في الأرض الألمانية على حساب مبدأ الانتخاب أو بتعبير آخر، تدعيم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء.

ولا شك أن السياسة التي اتبعتها أوتو الأول أثناء عملية اختياره ملكًا، وبعدها تفصح عن نيات الملك الألماني الجديد تجاه الأمراء؛ فاختياره آخن بصفة خاصة لتجرى فيها عملية تنصيبه، توحى بأن العاهل الجديد يترسم خطى سلفه العظيم شارل. كما أن الوليمة التي أعقبت مراسم التتويج، على الصورة التي جرت بها^(٥٠) وإن كانت عند الأمراء لا تعدو امتدادًا للتقليد الجرمانى القديم، إلا أنها لدى أوتو كانت تعنى حقيقتها لا رمزها فقط، أى اعتبار الأمراء "خدامًا ملكيين"، تابعين تبعية مطلقة للتاج. وقد ظهر ذلك واضحًا بعد عامين فقط؛ إذ أن إبرهارد Eberhard دوق بافاريا، والذي كان قد خلف أباه أرنولف منذ عام ٩٣٥ وحصل على ولاء البافاريين^(٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادًا على هاتين الدعامتين: التعيين بحق الإرث عن أبيه، وولاء دوقيته فكانت إجابة أوتو على ذلك، العزل ولم يعط بافاريا لأجد من أبناء أرنولف الآخرين، بل أعطاها لهمم برتولد الكارنثى Berthold of Carinthia الذى تعهد أمام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت، وأصبحت أراضي التاج فى بافاريا تابعة مباشرة للتاج وعين إلى جانب الدوق، رئيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية وكانت دلالة العزل الهامة القضاء على الاعتقاد السائد بحق الإرث فى الدوقية للأبناء^(٥٢) وهو الحق الذى كان يناضل الملوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكية الألمانية. ولم يضع

(49) Barraclough, The origins of Modern Germany, p.73

(٥٠) للمزيد من التفاصيل عن المراسم والصورة التى جرت بها هذه الوليمة، راجع :

Widukind, Loc cit.

(٥١) عن سياسة أرنولف البافارى المستقلة، وانتزاعه يمين الولاء لابنه من البافاريين، راجع :

Heinrich Mitteis, Feudalism and the German constitution, pp. 236-237

(52) Barraclough, op. Cit., p.28.

أوتو وقتاً، فخطا خطوة واسعة عام ٩٦١ عندما تغاضى عن مسألة اشراك الأمراء فى اختيار الملك الجديد، وأقدم على تعيين ابنه وسميه حاكماً شريكاً. يضاف إلى هذا كله اعتماد أوتو والأسرة السكسونية من بعد، اعتماداً كاملاً على الكنيسة ورجال الاكليسروس فى معظم أمور الدولة، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانيين، بعد الثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد أوتو الأول، وكانت أخطرها بين عامى ٩٥٣-٩٥٥ واستهدفت اغتياله. وتلك التى واجهت أوتو الثانى وهنرى الثانى، حتى غدت الكنيسة الألمانية هيئةً دنيوية.

ومهما يكن من أمر، فإن الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهة الميجار، والاستقرار الداخلى الذى تحقق، كان عاملاً رئيسياً فى أن يظل مبدأ الوراثة محترماً ومرعيًا على امتداد أربعة أجيال متعاقبة، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣-١٠٢٤) وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش، كما حدث عند وفاة أوتو الثالث دون أن يعقب خلفاء، أقدم الأمراء على اختيار هنرى الثانى، احتراماً للأسرة التى قدمت كل ما مقدورها لرفعة ألمانيا، باعتبار هنرى أحد أفراد البيت السكسونى. بل إن ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا عن الدنيا، يبين مدى نجاح الأسرة السكسونية فى تعزيز مبدأ الوراثة فى اعتلاء العرش؛ ذلك أنه فى عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدعيان انحدارهما من سلالة ابنة أوتو الأول، ليوتجارد Liutgard وقد فاز كونراد (الثانى) لأن أرملة هنرى الثانى، كونيجوند Kunigunde سلمته الأشعرة الإمبراطورية عقب وفاة زوجها، فعد ذلك تعييناً له باعتباره أفضل المرشحين.

هكذا بدا عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الوراثة والانتخاب، قد حسمت فى هذه الجولة لصالح الوراثة، وأن النزعة الإقليمية لدى الأمراء، والتى كانت واضحة تماماً خلال القرن التاسع والعقود الأولى من القرن العاشر، قد أخذت تخبو، وأن النظرية التيوتونية عن الاختيار، قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النسيان خاصة وأن سنوات القرن الحادى عشر - إذ استثنينا فترة الحرب الأهلية على عهد هنرى الرابع (١٠٧٧-١٠٨١) - والعقدين الأولين من القرن الثانى

عشر، شهدت استقرار مبدأ الوراثة بصورة بدت ثابتة، بعد أن أمكن كونراد الثاني لابنه هنري الثالث، وهذا لوريثه-الطفل-هنري الرابع، وهذا لابنه هنري الخامس.

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثاني العرش، تصميم الأسرة السالية الفرنكونية على ترسيخ جذور مبدأ الوراثة، جرياً على سنة الأسرة السكسونية، وتدعيماً لسلطان التاج على الأمراء ففي عام ١٠٢٦، ولم يمض على اعتلاء كونراد العرش سوى عامين فقط، أقدم في أوجزبرج Augsburg على تعيين ابنه هنري (الثالث) ذي التسع سنوات، وريثاً له، ووافق الأمراء على ذلك وفي عام ١٠٢٨ تم تتويجه ملكاً في أكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهي السنة التي أعقبت تتويج كونراد نفسه إمبراطوراً في روما⁽⁵³⁾. وهكذا يعلن الملك إمبراطوراً، وما أن يصل إلى العرش الإمبراطوري حتى يعين ملكاً جديداً خلفاً له، مما يوحي بأن الأمر لم يكن فقط مجرد استمرارية، ولكن تثبيتاً للحقوق التاريخية للملكية بل أن هذا الحق امتد إلى الإمبراطورية ذاتها؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضحت الحقيقة القائلة بأن الملك الألماني هو بحكم الواقع ipso facto حاكم إيطاليا، وذهبت مع الريخ حقوق الناخبين للمبارد، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح Rex Romanorum in imperatorem promovendus الذي يعنى أن الملك الألماني، وإن لم يكن قد تلقى بعد التاج الإمبراطوري في روما، إلا أنه بالطبع يعد "ملك الرومان" Rex Romanorum بحقوق ثابتة لا يمكن انتهاكها في وراثة الإمبراطورية، حتى أن أحد فقهاء القانون في القرن الحادي عشر، عبر عن ذلك بقوله: "إن من تم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطوراً حقاً، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار"⁽⁵⁴⁾.

وانطلاقاً من السياسة للعامة التي اتبعتها الأسرة الفرنكونية، والتي وضع خطوطها العريضة كونراد الثاني، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضي التاج وذلك بعد اتباع السياسة التي درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضي هبات

(53) C.M.H., Vol. III, p. 269.

(54) Barraclough, op. Cit., pp. 73-74.

إلى الكنيسة، بل أنفقها لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا، أو صغار النبلاء الذين أغدق عليهم هباته، ليصنع بهذا الإجراء قاعدة عريضة من الموالين والأتباع.

وتمثل ذلك بصورة واضحة في اعترافه بحق هؤلاء في توريق إقطاعاتهم⁽⁵⁵⁾. وتجسد هذا بصورة عملية في مواجهة للثورة التي أشعلها أرست Ernst دوق سوابيا، فقد تحالف الملك مع الكونتات ضد الدوق⁽⁵⁶⁾. ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الاستقرابية النبيلة، مسألة تثير الاهتمام؛ لأنها تشير الوهلة الأولى إلى العداء الاجتماعي الآخذ في الظهور خلال القرن الحادي عشر، غير أن خطورة هذا الأمر تعود إلى أنه إذا كان كونراد قد استطاع بذلك تقوية سلطانه في الداخل، واضعاف شوكة الأذواق وكبار الأمراء؛ فإن هذا كان أمراً مؤقتاً؛ لأنه أدى بسياسته هذه على المدى الطويل إلى تفتيت ألمانيا إلى إقطاعات صغيرة.

وتمشيًا مع هذا الاتجاه، وخروجًا عن الخط الذي رسمه الأوتويون بالاعتماد الكامل على رجال الأكليروس، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون إلى الاعتماد على طبقة جديدة لا تمت إلى النبالة بصلة، وجعلوا منهم الموظفين الإداريين والفرسان المسلحين، وهذه الطبقة عرفت باسم ministeriales وليس لها نظير في المجتمعات الإقطاعية الأخرى في فرنسا أو إنجلترا⁽⁵⁷⁾. وأصبحت هذه الطبقة الجديدة تعتمد بصورة أساسية على التاج في وظائفها ودخولها وإذا كانوا يشبهون الأوصال في أنهم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضي والمراتب، إلا أنهم كانوا يفتقدون الحرية الشخصية للفصل الإقطاعي ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصة بتلك الطبقة. وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحاً، وهو أن هذه

(55) Thompson & Johnson, op. Cit., p.372.

(56) عندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك أجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك، قائلين: "نحن أحرار، والحارس الأعلى لحررتنا هو ملكنا وإمبراطورنا، فإذا هجرنا فقدنا حررتنا".

(57) للمزيد من التفاصيل عن أصل هذه الطبقة ووجودها في ألمانيا، راجع:

Davis, op. Cit., pp.334-33

الطبقة من "محدثى النعمة" أقل خطرًا من النبلاء وأسهل انقيادًا، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك وقد جعل كونراد الثانى منهم العمود الفقرى لجهازه الإدارى الجديد، ولم يكن هنرى الرابع من بعد بأقل منه استنادًا إليهم، حتى أن الشكوى التى سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بمجموعة من ذوى الأصول المتضعة *Vilissimi et infimi homines* وأنه يسمع فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية، ويزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة، كانت تعبر عن الواقع "الإدارى" الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء "الموظفين" *ministeriales* دون غيرهم.

ولم يحاول كونراد الثانى أن يعهد بالدوقيات الشاغرة إلى الأسرات المحلية، بل وضعها جميعًا فى يد ابنه هنرى، حتى إذا جاءت كونراد رسل الموت تتوفاه، كان هنرى يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا. فلما أصبح هنرى الثالث هذا ملكا عام ١٠٣٩ حرص على بسط سلطانه على كل الدوقيات، فعهد بسكسونيا إلى رئيس أساقفة بريمن *Bremen*، أدالبرت *Adalbert* عام ١٠٤٣، بهدف إضعاف جانب عائلة بيلونج *Billonger* ولما كان رئيس الأساقفة مواليا للتاج، فقد تحول العداء بينه وبين أوق سكسونيا إلى عداء هؤلاء الأخيرين للملك وإن كان هنرى قد تمكن من اخماد الثورات بها، وأمضى فيها خمس سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطانه هناك. أما اللورين فقد تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو *Goziilo* بعد وفاته سنة ١٠٤٤ إلا أن وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها خاصة وأن وريثه كان طفلاً صغيراً إلا أن الملك الجديد هنرى الرابع، بعد أن باشر مهام سلطانه، بذل جهوداً كبيرة فى إتمام خطط أسلافه الفرنكونيين فى إقامة دولة ألمانية قوية.

عمد هنرى إلى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التى تم اغتصابها على أيدي الأمراء، العلمانيين والاكليروسيين على السواء، إبان الفترة التى كان يعانى فيها غض العمر وسن القصور، ولو أخذنا سكسونيا مثلاً واحداً فقط، لعلمنا أنه خلال هذه الفترة، أقدم فلاحوها على استغلال ممتلكات التاج من الغابات والمراعى

جهاراً، فقطعوا أخشابها، ورعوا أنعامهم، وأورثوها أبناءهم وكان الاتجاه الذي انتواه فيما يختص بإعادة تأكيد امتيازات التاج فوق الأراضي، وتحريم الاستغلال الخاص لها، وتخصيص إنتاجها لدخل الملك، وبيع التصاريح الخاصة بالانتفاع بها سواء في قطع الأخشاب أو الرعى أو إقامة الطواحين كل هذا بدا لأعين السكسون طغياناً جائراً. وفوق هذا وذاك، فإنه ضماناً لإخماد الثورات التي يمكن أن يقوم بها أهالي هذه المناطق، فإن هنري وقد ترسم في ذلك خطى أبيه، أقام في أراضي التاج في سكسونيا وثورنجيا عددًا من القلاع، شحنها بالمخلصين له من السوابيين، الذين حظوا بمقت السكسون وكراهيتهم باعتبارهم دخلاء يعملون في خدمة ملك، عد عندهم طاغية. وما أن و افى عام ١٠٧٣ حتى كان هنري الرابع قد سار في هذه السياسة شوطاً بعيداً، فقد بذلك السكسون إلى حافة الثورة^(٥٨).

وقد ألقى المؤرخ الألماني هانز هيرش Hans Hirsh الضوء على محاولة أخرى قام به هنري الرابع، دفعت الأمراء دفعاً إلى عدم التردد في الإحاطة به، عندما اشتدت حمى الصراع بين الإمبراطور والبابوية، فقد سعى إلى أن يكون القضاء الجنائي، أهم الحقوق العامة، مستنداً إلى السلطة الملكية. بمعنى أن تكون الإدانة من الملك نفسه، وبهذه الصورة يمكن نقلها إلى سلطان الدولة، وكان هذا يعنى في حالة تمامه، التدخل المباشر في حقوق وامتيازات النبالة الألمانية، وهي من أهم الحقوق التي كانوا يمارسونها^(٥٩). ويبدو أن هنري الرابع كان متأثراً في هذه الناحية، بما أقدم عليه ويبو Wipo مستشار كونراد الثاني والذي امتدحه بأنه واهب السلام العام *Pacis ubique dator* ومعلم ابنه هنري الثالث، من تقديم اقتراح إلى هنري الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسوماً عند تعيينه إمبراطوراً، يجبر النبلاء الألمان على إرسال أبنائهم إلى المدارس لتدريبهم هناك على احترام القانون.

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن سياسة هنري الرابع الداخلية هذه، راجع:

Strayer & Munro, op. Cit., pp.207-208; Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184; Thompson & Johnson, op. Cit., pp.374-375

(59) Mayer, op. Cit., pp.27-28.

فالإيطاليون - على حد قوله - يدرسون منذ زمان بعيد، القانون مما جعل من روما سيدة العالم⁽⁶⁰⁾ وبهذا وضع ويبو يده على مواطن الضعف فى الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين. فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التى يتمتع بها الأذواق فى دوقيتهم. وكان اقتراح ويبو يمثل المعارضة القائمة من جانب التاج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين، الذين تجنبوا دوماً أى قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك، وراحوا يؤكدون فى تنقيف بنهم على الخلال الفروسية والخالقية، والتى تقابلنا فى الملاحم البطولية⁽⁶¹⁾. هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح من العداء الكامن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال إرساء النظم الملكية الألمانية. إبان تلك الفترة، لأن إيجاد قانون منكوب، وهيكلى ثابت، لن يخدم فقط قضية القانون فى ألمانيا، بل سيدعم بالتالى مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا⁽⁶²⁾.

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير إلى أن الملكية الألمانية، راحت تأخذ طريقها إلى الاستقرار، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة فى أوروبا العصور الوسطى، وأن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحاً بعيداً فى التجربة الألمانية متفوقاً على منافسه الخطير، والكامن فى نفوس الألمان، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش. وبدا أن هنرى الرابع سوف يوضع فى عهد أقوى ملوك أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، هنرى الثانى ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا. لكن الظروف التى وجد هنرى نفسه محاطاً بها، أضاعته جهوده وجهود أسرته وأسلافه عبثاً، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية، وحتى أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فى إقامة دولة ألمانية موحدته، على رأسها ملك قوى، يدعمه حق طبيعى تقليدى فى وراثة العرش، دون تدخل من جانب الأمراء.

(60) Joachimsen, op. Cit., 103

(61) Id.

(62) Ibid., p. 104

ذلك أن هنرى كان معاصرًا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى، جريجورى السابع، الذى تجسدت فيه كل مبادئ نظرية السمو البابوى منذ جلازيوس الأول Gelasius فى نهاية القرن الخامس، وحتى حركة الإصلاح الكلونى على المبادئ الجريجورية، والتى استهدفت فى النهاية وجود إمبراطور واحد هو البابا^(٦٣).

ولا شك أن هذا لا يتفق وسيادة الإمبراطور الألمانى الذى كان يرى وجهة نظر مخالفة عن الإصلاح الكنسى^(٦٤). وقد حمى أتون الصراع بادئ الأمر حول مشكلة التقليد العلمانى، فلما أسقطت إتفاقية وورمز عام ١١٢٣ هذا القناع، سر لهيب الجدل بين البابوية والإمبراطورية حول السيادة العالمية، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألمانى فى ألمانيا ذاتها. وانتهى الأمر بتحطيم الإمبراطورية فى القرن الثالث عشر، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها إلا اسمها فقط دون أى معنى سياسى.

كانت الكنيسة تميل دائمًا إلى تأييد مبدأ الانتخاب فى الملكية عن الوراثة؛ لأن ذلك كان هو أيضًا نظامها الذى تقوم عليه، وقد رأينا أسقف مينز يباشر شيئًا من هذا عند اختيار الملك الألمانى. ولكن الشئ المؤكد أنها كانت ترى فى ذلك تحقيقًا لصالحها الخاص. وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحمسًا لهذا الاتجاه، خاصة وقد رأى بعينى رأسه ما فعله الإمبراطور السابق هنرى الثالث من عزل ثلاثة من البابوات المرشحين والمارقين، وتعيين خمسة

(٦٣) للمزيد من التفاصيل عن آراء جريجورى السابع، راجع:

Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, pp.142-161;

Bryce, op. Cit., pp.156-158;

Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages pp.262-309;

Tout, The Empire and the Papacy, pp. 110-114, 124-136;

Dictatus papae, in Henderson, H.D., pp.366;

Barry, The papal Monarchy, pp. 190-227.

(٦٤) عن الصراع بين البابوية والإمبراطورية انظر الفصل الأول.

آخرين على التوالي ممن توسم فيهم التمسك بإصلاح أحوال الكنيسة. وتفصح رسائل جريجورى عن القاعدة التى بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثية للملك، واعتبر أن الأمراء يشكلون جماعة أو هيكلًا واحدًا، وهم لذلك يمثلون المملكة وقد تحمس جريجورى جدًا لآرائه هذه، وقد رأى فيها عاملاً هامًا لتحقيق فكرته عن "صلاحية" idoneitas⁽⁶⁵⁾. وقد اعتمد رجال القانون الكنسى بصفة دائمة على عبارة وردت فى إحدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فيها نظام البيعة السكندرية، حيث يقوم اكليروسها باختيار واحد من بينهم ليكون أسقفًا، "كما يفعل الجيش بالنسبة للإمبراطور"⁽⁶⁶⁾.

كان قرار الحرمان الذى أصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الرابع فى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٦، إشارة البدء للأمراء كى يطرحوا وراء ظهورهم تمامًا، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦-١٠٧٦)، أعنى احترام مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية، وأن يبعثوا من جديد ذلك التقليد الجرمانى القديم باختيار الملك، والذى مارسوه فى بواكير القرن العاشر الميلادى. ولم يكن هذا سلوكًا عفويًا .. لكن التراكمات الطويلة الناتجة عن سياسة الأسرة السكسونية ثم الفرنكونية من بعد، والتى ابتغت تدعيم سلطان التاج وتأكيد الحق الوراثى فى العرش، ثم ما لجأ إليه كونراد الثانى وهنرى الرابع بصفة خاصة من الاعتماد على طبقات أخرى نوى أصول غير معروفة، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الأرسقراطية، ومحاولة إقامة عاصمة دائمة للمملكة فى سكسونيا، وتجريد الأمراء ثانية من الامتيازات التى اغتصبوها إبان فترة قصور هنرى الرابع. كل هذا يجعلهم يستشعرون خطورة الأمر إذا ما قدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية فى صراعهما حول مشكلة التقليد العلمانى.

(65) Joachimsen, op. Cit., pp.127-129.

(66) Mundy, Europe in the high Middle Ages, p.330

دفع قرار الحرمان ضد هنرى، بألمانيا إلى حالة من الفوضى العارمة، تمثلت فى تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية، ودفعت بالأساقفة المرتعشين أن يهرولوا إلى البابا طالبين الصفح والغفران. وكان إضفاء صفة القداسة على الثورة الألمانية، عاملاً هاماً فى تشجيع مختلف العناصر، أفراداً وجماعات على إظهار سخطها^(١٧)، وامتدت الثورة فى مختلف أنحاء ألمانيا بصورة واسعة، عجز معها هنرى عن التصدى لها. وعقد الأمراء الألمان مؤتمراً فى مدينة تريبور Tribur حضره مندوبان عن البابا، اضطر هنرى على أثره أن يلحق كل ما قاله آنفاً فى حق البابا، ووعد بأن يرفعى فى كل شئ الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جريجورى^(١٨). وكان عليه أن يمضى أيامه الآتية فى الدير حتى يأتيه عفو البابا. وأعلن الأمراء أنه إذا لم يتمكن هنرى، حتى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسى، فإنهم سوف يعلنون أنثذ عدم اعترافهم به كملك من بعد. ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية فى فبراير فى مدينة أوجزبرج، حيث وجهوا الدعوة إلى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقترح، بحيث إذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على عرشه، اختار المؤتمرون ملكاً بديلاً.

لا شك أن اغتباط جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف، فليس أحب إلى قلبه من أن يصبح وسيطاً وحكماً فى الشئون الألمانية. فاتخذ سبيله على مهل إلى ألمانيا فى ديسمبر ١٠٧٦. وإذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة، بسعيه هو إليه، ولقائه المهين فى كانوسا Canossa فى يناير ١٠٧٧، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذى ضربه الأمراء، إلا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء عن عزمهم، فاجتمعوا فى مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى، بعد أن اتهموه بأنه خدعهم ولم يلتزم بالبقاء فى الدير حسب ما قرروه فى تريبور من قبل، واختاروا ملكاً مضاداً هو رودلف Rudolph دوق سوابيا.

(67) Thompson & Johnson, op. Cit., p.283

(٦٨) انظر:

Henry IV, Promise of the King to offer obedience to the Pope
 Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, وأيضا:
 Select historical documents of the Middle Ages, pp.384-385).

هكذا عاد الأمراء من جديد إلى ممارسة التقليد الجرمانى القاضى باختيار الملك. والتقت مطامحهم وأطماعهم بالمصالح البابوية، حتى أن المؤرخ كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى السابع والأمراء، بعد أن أصبح واضحًا فى عام ١٠٧٦ لكل من البابا وعدد كبير من زعماء الكنيسة الألمانية، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء، ولإضفاء صفة العدالة على خطتهم القاضية بعزل هنرى، عادوا إلى ما جاء فى الكتاب المقدس، من أن صموئيل عين داود ملكًا بينما شاول كان ما يزال على قيد الحياة. ويذكر أن هذه الرؤية كانت مرضية جدًا بالنسبة لجريجورى، وهى التى ألهمته من بعد نبوءته الشهيرة عام ١٠٨٠، بأن هنرى لن يلبث أن يموت، إبان صراعه مع رودلف السوابى. أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصعب عليهم الاعتماد فقط على ما جاء فى العهد القديم، وألا وضعوا أنفسهم تحت رحمة الكليروس عنيف لا يرحم، هو البابوية. ومن ثم أقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشورة البابا⁽⁶⁹⁾. ويدعم أولمان Ullmann هذا الرأى أيضًا حين يقول أن الأمراء فوجئوا بما أقدم عليه للبابا فى كانوسا، من العفو عن هنرى دون أن يستشيرهم فى هذا الأمر، ولما كانوا قد وجهوا بالأمر الواقع fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى⁽⁷⁰⁾. ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السابع إلى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا⁽⁷¹⁾.

كان طبيعياً أن يفصح الأمراء عن نياتهم الحقيقية باختيار رودلف السوابى للعرش الألمانى، فهم من ناحية أكدوا من جديد حقهم فى "اختيار" الملك، ومن الأخرى ضمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد، الذى صنعه أيديهم، كل ما كانوا يشكون من ضياعه على عهد هنرى الرابع وأسلافه، الفرنكونيين بخاصة.

(69) Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp.154-283

(70) Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, p.119

(71) Gregory VII, Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa, (in Brian Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 62-63.

ولذا كان رودلف ملكاً مفضلاً لدى الأمراء، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يتعهد بإعادة حقوق هؤلاء الأمراء، وظهر هذا واضحاً خلال مرحلة المفاوضات التي سبقت اختياره. وكانت الوعود التي قطعها على نفسه تكشف بوضوح-على حد قول المؤرخ الألماني Mitteis- الاتجاه إلى منح رودلف مركز السيد الإقطاعي وليس مركز الملك⁽⁷²⁾. ومن ثم كان أهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف السوابي، أن الملكية الألمانية-كما يراها الأمراء، يجب أن تبقى انتخابية، وأن يتولى إلى الظل مبدأ وراثته العرش. ولذا فقد كان حرص الأمراء بادياً على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الإقدام على إحياء مبدأ وراثته العرش من جديد.

ونتيجة لحرب التقليد العلماني، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لإقامة ملكية قوية، فقد ألفت للبابوية بثقلها في الميدان، واستغلت الأرسقراطية هذا النزاع لتدعيم مصالحتها ونفوذها، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧-١٠٨١) دوراً كبيراً في تمزيق وحدة ألمانيا، واستغلت فترة الثلاثين عامًا، الواقعة بين ١٠٧٦-١١٠٦، وهي التي لم يكن فيها هناك من الناحية القانونية، ملك معترف به من الألمان جميعاً، في ممارسة سلطات متزايدة للأرسقراطية، وبدلاً من النظام الفرنكوني للحكومة، أقامت الأرسقراطية نظاماً يتفق ومصالحها هي، وأهملت تمامًا حقوق الملكية. وهكذا شهد المجتمع الألماني تحولاً خطيراً في تركيبه الاجتماعي خاصة في الفترة ما بين اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ واعتلاء فردريك الأول برباروسا للعرش عام ١١٥٣، بحيث يمكن القول أن ألمانيا تحولت بالفعل إلى مجتمع إقطاعي، بعد أن انتشرت القلاع في كل مكان، واختفى الفلاحون الأحرار، وتحول النبلاء الصغار إلى فرسان وارتبطوا بالسلادة بروابط الفصلية⁽⁷³⁾.

وساعدت الحرب الأهلية في ألمانيا على التمكين لهذه القوى الجديدة، وكان كل كسب يحققه الأمراء، يعد بالتالي خسارة للتاج؛ ذلك أنه كان على الملوك أن يقدموا باستمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء الكسب تأييدهم، خاصة التأييد

(72) Heinrich Mitteis, Feudalism and German constitution, p.241.

(73) Barraclough, op. Cit., p.136.

العسكري. وكان هذا يعنى اعترافاً متزايداً بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا، وحقهم فى الوراثة. وهكذا أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب إلى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العكسرى تجاه الملك، أمراً عبثاً^(٧٤). كما أن الادعاءات الخاصة بالإمبراطورية أثرت إلى حد كبير فى كفاءة ومقدرة الملكية الألمانية، بعد أن أغرق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات إيطاليا، وتعددت سنوات غيابهم هناك بعيداً عن ألمانيا، مما أعطى الفرصة للأمرء الألمان كى يمارسوا سلطانهم وسيادتهم بعيداً عن أعين الملوك^(٧٥).

كان اختيار رودلف السوابى إذن، نقطة البدء فى طريق للعودة إلى مبدأ وراثة العرش ثانية، وإذا حدث من بعد فلن يمثل إلا الاستثناء، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن. بل لقد استمر الهجوم على الملكية الوراثة عقب موت رودلف السوابى ١٠٨٠، إذ لقى اقتراحاً بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلاً من أبيه، رفضاً جامحاً من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال: "لا أرى إلا عجلًا شاردًا يولد من ثور هائج؛ لذا فأنا لا أريد الابن ولا الأب!"^(٧٦). وكان تمرد هنرى الخامس ضد أبيه، وقبوله التاج وإعلان نفسه ملكاً بيد الأمرء عام ١١٠٥، يعنى اعترافاً منه بالسماة الأرسقراطية للمجتمع الأمانى، وبما وصل إليه سلطان الأمرء. وباختصار، فإن حقوق الإرث الملكى والامتيازات التى لا تقبل المناقشة بالنسبة للملكية، قد انهارت تماماً من جراء الصراع حول التقليد العلمانى، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦-١١٠٦ وظهر ذلك واضحاً فيما قاله أسقف مينز، الذى طالما ادعى ومارس حق تنصيب الملك، وراح يناضل الآن من أجل أن يجعل من نفسه "صانع الملوك"، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها. قال فى عام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية إلى هنرى الخامس: "إذا لم تغد حاكماً عادلاً، حامياً لكنيسة الله، فإنه مصيبك حتماً ما أصاب من قبل أبائك!"^(٧٧).

(74) Brooke, op. Cit., p.506.

(٧٥) عن هذا الموضوع انظر الموضوع الفصل الثالث.

(76) Barraclough, op. Cit., p.15, n.1

(77) Ibid., pp. 153-154.

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره التعهدات على نفسه والتي تخرج عن تلك التي أعطها صاغراً من قبل، رودلف فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة at *amnibus iustum indicium faciat*. وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة، وجدد وعوده فى عبارات محددة واضحة تجاه المملكة جميعاً. لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب، باختصار، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمرء الإقطاع^(٧٨).

ولبو أن الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦، لوجدنا أن السابقتين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثاً لأوتو الثالث، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى، لكونه مرشحاً من قبل زوجة الملك الراحل هذا، يمكن أن تشيرا إلى أن الأمرء سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس، على اختيار فرديريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى، والمرشح من قبله قبل وفاته. غير أن هذا أصبح الآن شيئاً مستحيلاً، إذ لو حدث لرأى فيه الأمرء عودة إلى مبدأ الوراثة، ولذا فقد عمدوا إلى اختيار لوثر Lothar دوق سكسونيا وكان أدالبرت رئيس أساقفة مينز، والعدو اللدود لهنرى الخامس، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة، بالإضافة إلى أن لوثر كان معروفاً بعدائه الشديد لسلفه إبان حياته، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش^(٧٩). ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للتاج راجع فقط إلى الانتخاب وحده. وشجع الأمرء على ذلك، أنه كان قد بلغ الخمسين من عمره، ولم يكن له وريث ذكر، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل

(78) Ibid., p.155

(٧٩) عن دور رئيس أساقفة مينز، راجع Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp.167) أما لوثر فكان ابناً لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا، وإن كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ عن طريق اصهاره إلى أسرة بيلونج Billung راجع: Scott. Op. Cit., p. 116.

فى حقوق الأمرء وامآيازاتهم. لقد كان لوثر باآآصار أأء أفراء تلك الطبقة الجءءة التى ظهرت نآآجة لآرب النآلقء العلمانى⁽⁸⁰⁾.

وظئلة عهد لوثر (1125-1137) كان ىآصرف بما لا ىزىء عن كونه زعمىآ لآماعة النبلاء أكآر منه ملكآ ألمانىا. ولما وءه بعءاء أصآاب الآق الشرعىىن فى العرش، الهوهنشآوفن، ركن إلى آءععم نفسه بإقامة آرب قوى إلى آواره، ءون أن ىءآل فى اعآباراه أنه آاكم لمملكة. فوزعت الأراضى الملكية لآذب الأنصار، وارآمى فى أآضان الكنيسة، وابتاع رضاها بما آءمه من تنازلات باهظة، وآسرت الملكية الألمانية كل ما كانت قد آقآته زمن هنرى الآمس بمآآضى انآاقية وورمز عام 1122. لكن الآسارة الكبرى آمآلت فى تنازله للكنيسة عن أملاك الكونآيسة ماآلءاء، وقبوله باءعاءات البابوية عىها، وآلقىها من أنوسنآ الآنى Innocent II إآطاعىآ بابوىآ، فى مآابل آصوله على الآآ الإمبراطورى سنة 1133! ⁽⁸¹⁾.

وكان هنرى المآآبر Henry the Proud الولفى ءوق بافارىا، من أكبر مؤىءى لوثر عند آآوآه ملكا، وآءعم الآآالف بىنهما عام 1127 بزواج هنرى من ابنة لوثر الوحىءة وورىآته، وآاء هذا الزواج فى نفس العام الذى آمل فىه الهوهنشآوفن، الأعداء النآلقىءون للولفىىن والملك، السلاح، وأقاموا ملكآ منافسآ، وظلت لهم الىء العلىا آآى عام 1130، وإن كان الآآالف بىن لوثر وهنرى قد أءى إلى آآسن موقف الملك وانآصاراه على آصوله عام 1135. وكان لآبء أن ىكافى صهره على آسن صنعاه، فآعله مارآىزا لآوسكانىا وعهد إلىه إءارة أملاك الكونآيسة ماآلءاء، مما آر على الملك غضب الكنيسة فى آآرىاآ سنى آىآاه. وزاء المسألة آعقبا فى ألمانىا، أن لوثر ضم إلى هنرى أىضآ ءوقية آسكانىا، فآءا بءاك

(80) Davis, op. cit., p317.

(81) رآع: Lother, coronation Oath, 1133 وأىضآ الوآىقة الآاصة بمنآ أراضى الكونآيسة ماآلءاء.

Innocent II grants the land of Countess

كإطاع بابوى إلى لوثر

Matilda to Lothar II, 1133 (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

عند وفاة صهره أقوى المرشحين للعرش، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا في ألمانيا، وتوسكانيا في إيطاليا، وبتلقيه للأشعرة الملكية من لوثر الذي بعث بها إليه عندما حضرته الوفاة. كما أنه عن طريق زوجه جرترود Gertrude ورث ضياع لوثر الخاصة، التي تشمل أملاك أكبر عائلتين في سكسونيا قديماً، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته في بافاريا تحت إدارة أخيه ولف Welf^(٨٢).

أضحى من الممكن في ظل هذه الظروف، قيام حكومة ألمانية مستقرة، وأن تغدو الدولة الألمانية قوية. لكن شيئاً من هذا لم يحدث، لأن قيام ملكية ألمانية قوية لم يكن في مصلحة أى من النبلاء أو الكنيسة. وكانت شخصية هنري المتكبر، بلقبه الذى اقترن باسمه، تنفر الأمراء والاكليروس من الإقدام على اختيار ملك لابد أن يصبح "متعجرفاً" مزهواً بقوته. وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفاة هنري الخامس، إذ ضرب بعرض الحائط آراء النفر القليل الذى كان ينادى بإعادة مبادئ الشرعية والوراثة، رغبة فى تقوية الملكية^(٨٣)، ولعبت الدوافع الشخصية دورها حاسماً، متمثلة فى المندوب البابوى الذى بعث به البابا على عجل، ليعمل قدر طاقته فى ألمانيا لصرف التاج عن هنرى، ووقع اختيار الأمراء والمندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا، ليكون ملكاً. ولما كان منصب رئيس أساقفة مينز شاغراً، بينما تم اختيار رئيس أساقفة كولون لتوه، فقد تزعم أسقف تريير Trier أدالبرو Adalbro الدعوة لمنع وجود ملك قوى، يمكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر^(٨٤).

هكذا أكد الأمراء خلال أقل من خمسة عشر عاماً، وعلى مرتين متتاليتين، حقهم فى انتخاب الملك، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية. ولكنهم فى الوقت ذاته حكموا عليها بأن تظل ضعيفة، ودفعوا بألمانيا إلى عداة إقطاعى مدمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن^(٨٥) زاده ضراما ضعف شخصية كونراد، ولجؤته إلى نفس

Brooke, op. Cit., p.278

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز، راجع:

(83) Barraclough, op. Cit., p.158.

(84) Brooke, op. Cit., pp.278-790.

(85) Scott, op. Cit., p. 119.

الأسلوب الخاطيء، قصير النظر الذى سار عليه سلفه لوثر، فأقام إلى جانبه حزبًا مناوئًا للولفيين، فعين ألبرت الدب Albert the Bear على سكسونيا، وليوبولد Leopold الأخ غير الشقيق للملك، دوقا على بافاريا، بعد أن انتزعهما من هنرى المتكبر. غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى إشعال نيران الحرب الأهلية، فلما فشلت محاولاته، وانتصر الحزب المؤيد لهنرى الأسد، ابن هنرى المتكبر ووريثه، لجأ إلى عملية تغذية هذه للنيران، فحرض براندبيرج ضد سكسونيا، واستريا (النمسا) ضد بافاريا. غير أن هذه للسياسة كشفت إلى أى مدى أمست الملكية الألمانية إلى ضياع.

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية، بينما تحولت أراضي التاج إلى رقع مبعثرة، خاصة فى شمالى ألمانيا، سواء من حيث المساحة أو الامتداد⁽⁸⁶⁾. وفى عام ١١٢٥ حمل التغيير فى الأسرة الحاكمة إلى مزيد من التدمير لأراضى التاج، فقد ذهب جزء كبير منها إلى أسرة الهوهنشتاوفن، بمقتضى الظن عند هنرى الخامس بانتقال العرش إليها عن طريق فرديريك السوابى الذى بعث إليه هنرى بالأشعره الملكية. ثم ازدادت المشكلة تعقيدًا عام ١١٣٨ بذهاب أراضي التاج إلى هنرى المتكبر، بحكم الظن أيضًا بانتقال العرش إليه بعد وفاة لوثر. حتى أن هنرى - كما أسلفنا - غدا بالأراضى الواقعة تحت سلطانه، أقوى من كونراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش. ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكية، مع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بين أقرانه Primus inter pares⁽⁸⁷⁾. ولقد أصاب أوتو الفريزي Otto of Freising كاتب سيرة فرديريك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانت زمن الفرنكونيين وراثية عملاً، أمست فى عام ١١٥٢ انتخابية تتم حسب رغبات الأمراء؛ ذلك أن العمدة التى ارتكزت عليها الملكية الفرنكونية كانت قد ولت، فالكنيسة غدت إقطاعية، ولم يعد الأساقفة على ولائهم للتاج، والموظفون

(86) Bryce, op. Cit., p. 162.

(87) Barraclough, op. Cit., pp.159-162.

الملكيون الذين اعتمد عليهم هنرى الرابع فى برنامجہ، تارجحت أھواؤھم بفعل عدم استمرارية الأسرة الحاكمة أو سياستها⁽⁸⁸⁾.

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد الثالث، وتغاضى الأمراء عمدا عن ابنه الأكبر، وتحولوا إلى اختيار ابن أخيه فردريك دوق سوابيا، ورغم أن الأمر بدأ على هذا النحو يمثل تارجحاً بين الوراثة والانتخاب، إلا أن الأمراء كانوا يدركون تماماً، أن البديل لذلك هو الوقوع تحت سطوة زعيم البيت الولى، الشخصية القوية الصارمة، هنرى الأسد. يضاف إلى ذلك أن الأمراء رأوا فى فردريك شخصية قد توقف نزيف الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين العائلات الأرستقراطية الكبيرة، فقد كان فردريك ودودا مع الولىين، كما أن أمه جويث Judith كانت أختا لهنرى المتكبر⁽⁸⁹⁾. لذا لم يلق اختيار فردريك برباروسا الهوهنشتاوفنى معارضة، كما حدث لسلفيه من قبل. وكان أول شئ أقدم عليه الملك الجديد إظهار حسن النية من جانبه تجاه الولىين، فاعترف بحق هنرى الأسد فى الأراضى التى يسيطر عليها بالفعل عبر نهر الألب، وكذلك سكسونيا، ورد عليه دوقية بافاريا، وأقطع الولىين أيضاً أراضى إمبراطورية فى توسكانيا فاستطاع بهذه العلاقات أن يجعل من الأمراء الألمان قوة إلى جانبه⁽⁹⁰⁾.

غير أن هذه السياسة التى لجأ إليها فردريك برباروسا فى أول عهده، لم تكن تنم عن شخصيته أو أهدافه الحقيقية، بل جاءت ترضية لخواطر الأمراء وتهذنة للأمور فى ألمانيا بعد فترة عصيبة، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيراً منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦-١١٥٢). لقد كان فردريك يدرك تماماً حقوقه الملكية ومدى سلطانه، شأن أى سيد إقطاعى، ولم يكن يدخر وسعاً فى سبيل تثبيت هذه الحقوق، ولذا فقد أضحي البلاط الملكى على عهده بتوالى السنين، شيئاً يثير الرهبة فى النفوس وبيعث على الاحترام. وكان زواجه من بياتريس Biatrice وريثة كونتية برجنديا، قد حمل إليه أرضاً جديدة وأفضالاً

(88) Ibid, p. 162

(89) Brooke, op. Cit., p.287.

(90) Thompson & Johnson, op. Cit., p.394.

تابعين^(٩١) أما فيما يختص بالكنيسة، فإن فردريك، بعد التبعية والخضوع الذي كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها، عاد بصورة متطرفة إلى تلك السياسة التي انتهجها الأوتوويون من قبل. فأعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التي أعطيت للناج بمقتضى اتفاقية وورمز ١١٢٢، وكان السبيل الذي انتهجه في ذلك يدور حول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون في تركيز السلطة الكنسية في يد روما، بغيرهم من الأساقفة السياسيين، من المدرسة الألمانية القديمة، والذين لم يهجروا جانبه مطلقاً، بما يتميزون به من العناد وكان من أبرز هذه الشخصيات رينالد Rainald رئيس أساقفة كولون، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل في خدمة الدولة، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه إلى درجة ربما أبعد مما كان يسعى إليها فردريك نفسه. كما أنه وجد في كريستيان رئيس أساقفة مينز، عقلاً منقداً ونصيراً^(٩٢).

وكان من بين الدعامات التي لجأ إليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته، حرصه على أن يوجد إلى جواره إدارة تنفيذية تعمل بأمره، وأراضى واسعة للناج وخاضعة له مباشرة، ورغبته في تطبيق مبادئ القانون الإقطاعي، بجعل الهيراركية العسكرية Heerschild ونظام القيادة العسكرية مرتبطاً أيضاً بالناج. وكان هذا يعنى مدخلاً طبيعياً لمفهوم الوحدة Monistic للدولة في ألمانيا^(٩٣). وهذا يستتبع بالتالى العودة إلى إقرار مبدأ الوراثة في العرش، والذي كان قائماً أيام الأسرتين السكسونية والفرنكونية. وهذا بدوره سوف يقود حتماً مقضياً إلى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعاً. وقد تهيأت الفرصة لفردريك برباروسا في عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذي حازه، بما أعده عليه فردريك في البداية، فراح يطبق نظاماً عسكرياً صارماً في سكسونيا، واهتم بتأسيس المدن في مناطق نفوذه مثل برونزويك Brunswick وميونخ Munich ويمارس سياسة خارجية مستقلة، فأصهر إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا وتزوج ابنته، وقام برحلة إلى الأراضى المقدسة، واستقبل رسل

(91) Ibid, p. 395

(92) Ibid. pp. 395-6 ; C.M.H. Vol. V, pp. 392-397.

(93) Mayer, op. Cit., pp.28-29.

الإمبراطور البيزنطي، الذي كان على عدااء مع الملك الألماني. فلما استشعر في نفسه القوة، رفض الاشتراك في الحملة الخامسة التي قام بها الإمبراطور إلى إيطاليا عام ١١٧٦، وكان لغيابه أثره الكبير في هزيمة فردريك في موقعة لينانو Legnano، وما ترتب عليها من إعادة تكرار مشهد كانوسا ثانية في البندقية، على يد البابا إسكندر الثالث. فلما عاد الملك إلى ألمانيا، راح يستجمع قواه وقوى الأمراء الحاقدين على هنري الأسد، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠^(٩٤).

غير أن فردريك فوت على نفسه وأسرته فرصة إقامة ملكية ألمانية وراثية قوية، وذلك بالأسلوب الذي اتبعه بعد تدميره قوة خصمه؛ ذلك أن عقابه جرى في إطار النظام الإقطاعي، باعتبار هنري فصلاً إقطاعياً متمرداً، أُدين بمقتضى القانون أو السنظم الإقطاعية، فجرد من ممتلكاته كعقوبة إقطاعية أيضاً. وبدلاً من ضم هذه الأراضي والممتلكات إلى التاج لتقويته، وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه في محاكمة هنري والقضاء عليه. وكانت هذه سابقة خطيرة، بحيث لم يستطع أى ملك ألماني فيما بعد أن يضم أراضى مصادرة لفصل متمرد إلى ملكية التاج، هذا على عكس ما حدث بعد ذلك بعشرين عاماً في فرنسا، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة جون ملك إنجلترا، على ضم نورماندى إلى أراضى أسرة كابيه^(٩٥). لكن الشئ الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع مملكتات هنري الأسد، غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا، وإذا كانت قد ضمنت له السيادة على ألمانيا طيلة عهده. بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنري الأسد، إلا أنها عملت على تفتيت وحدة ألمانيا تماماً؛ فقد اختفت أو كادت الدوقيات الكبيرة القوية، وحلت محلها دوقيات صغيرة هزيلة، وأصبح لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الذى كان من قبل، وظهرت نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة من العائلات العريقة. وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل ألمانيا فيما بعد .. وأثبت فردريك بذلك أنه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول^(٩٦).

Brooke, op. Cit., pp.51, 501-503.

(٩٤) عن تفاصيل هذه الأحداث، راجع:

(95) Barraclough, op. Cit., pp. 189, 193-4 Slessor, The Middle Ages in the West, p.113.

(96) Brooke, op. Cit., pp. 503-506; reiherr V. Dungen, op. Cit., p. 221 Ganshof, Feudalism, pp. 160-161

ومع أن الحملات العسكرية المتتالية التي قادها فرديريك إلى إيطاليا، قد أرهقت ألمانيا من أمرها عسرًا، إلا أن ما حصل عليه فرديريك في النهاية بمقتضى نجاحه في زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة عرش النورمان فى صقلية، عوضه كثيرًا عن جرح كبريائه أمام مدن العصبة اللومباردية فى شمالى إيطاليا، والبابوية. وضمن فرديريك العرش الألمانى من بعده لابنه هنرى السادس، يعد هو الآخر نجاحًا وإن كان مؤقتًا لمبدأ الوراثة؛ ذلك أن العمر القصير الذى أمضاه الملك الجديد على العرش (١١٩٠-١١٩٧)، وانشغاله المستمر بثبيت دعائم ملكه فى صقلية وحروبه فى إيطاليا، وطفولة ابنه ووريثه، وضعف خلفه فيليب السوابى، والحرب الأهلية الضروس التى استمرت ستة عشر عامًا، كل هذا أتاح لقرون طويلة آتية بإمكانية قيام ملكية وراثية قوية فى ألمانيا.

لقد شهدت نهاية القرن الثانى عشر، وبواكير القرن الثالث عشر، قمة للمأساة فى الصراع الطويل بين مبدأى الوراثة والانتخاب للعرش الملكى فى ألمانيا. وحسنت لصالح الانتخاب. ولعبت فيها البابوية دورًا أساسيًا إلى جانب الأمراء الألمان، إن لم يكن الدور كله. فقد كان يعنىها فى المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا فى إطار نضالها من أجل السيادة العالمية. ولقد كان أنوسنت الثالث - على حد تعبير باراكلاف^(٩٧) - على استعداد ليس فقط لتدمير السلام فى ألمانيا، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضًا. هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالإمبراطورية شرًا. لكن الإمبراطورية التى كان يعنىها، كانت شيئًا غير ذلك تمامًا. لقد كان يعنى إمبراطورية بمفهومه الخاص، وليست تلك الإمبراطورية التاريخية التى نهضت من وحل مشكلة التقليد العلمانى بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن. كما أن امتداحه للوثر الثانى، يكشف عن أفكاره التى تعود بنا إلى جريجورى السابع، وهى تقوم على أساس أن يختار الملك بواسطة الأمراء، ولا يصح له ممارسة سلطاته إلا بعد أن يتم التمهيد الواجب من جانب الكرسى الرسولى، كى يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا.

(97) Barraclough, op. Cit., p. 207.

وهذا هو ما حدث تمامًا إبان الأزمة التي تفجرت بالموت المبكر لهنرى السادس، بينما ابنه ووريثه فردريك (الثانى) يحبو فى عمر الطفولة. لقد بذل هنرى قصارى جهده لإغراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيًا، بحيث يخلفه ابنه بصورة تلقائية إمبراطورًا وملكاً على صقلية. ونجح فى مارس ١١٩٦ من الحصول على تأكيد من جانب اثنين وخمسين أميرًا، اجتمعوا فى فيرزبرج Wursburg بقبول مبدأ الوراثة على العرش. ولكن لم يكن هناك تجربة سابقة يمكن أن تكون ضمانًا مؤكدًا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هنرى، إذا ما مات قبل أن يصل ابنه إلى سن الرشد^(٩٨). وهنا يبدو الخلاف كبيرًا بين ما آلت إليه الملكية فى ألمانيا، وما كانت قد بلغت فى إنجلترا وفرنسا. فهنا كان الملوك قادرين على فرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثًا جيلًا بعد جيل. أما هنرى فقد اضطر إلى أن يشتري موافقتهم بمزيد من التنازلات، فاعترف لهم بحق الوراثة كاملة فى إقطاعاتهم، وامتد ذلك ليشمل أيضًا الإناث والأصهار. أما بالنسبة لرجال الاكليروس، فقد منحهم حقوقًا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فى الوصية. لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءًا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول، فابنه هنرى السادس، فابنه فردريك الثانى، تسعى حقيقة إلى تدعيم نفوذها كأسرة قوية، لكن الوسائل التى استخدمها التاج فى سبيل ذلك، استخدمها الأمراء أيضًا فى أراضيهم، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم^(٩٩). وحتى هذه التنازلات التى قدمها هنرى، لم ترض جميع الأحزاب، فعدد من الأمراء، ومن بينهم دوق النمسا، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثة بامتيازات خاصة.

وتمثلت المصالح والدوافع للشخصية خير تمثيل فى موقف كل من البابا كلستين الثالث Celestine ورئيس أساقفة كولون. فهذا الأخير، شأن قرينه أسقف مينز^(١٠٠)، كان يدعى حقًا قديمًا فى تنويع الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء، رأى أن نجاح هنرى

(98) Waly, op. Cit., p.74; Scott, op. Cit., pp. 256-257.

(99) Freiherr V. Dungern, op. Cit., p.221.

(١٠٠) هناك وثيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود إلى سنة ١٢٩٨، صادرة عن الملك ألبرت

Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277

فى ضمان العرش من بعد لابنه، يعلى تهديدًا لسلطانه. أما البابا والذى كان متفقًا مع أسقفه أول الأمر، فقد أقدم على تنويج فرديريك الثانى ملكًا، متخطيًا حق أسقف كولونى فى هذا السبيل، ضاربًا عرض الحائط بغضبه، وذلك عندما لوح له هارى باستعداده للخروج فى حملة صليبية، وبالدخل الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين لبيه فرديريك الأول والبابا لوقا الثالث، من جميع كنائس الإمبراطورية بدلا من المناطق المتنازع عليها فى وسط إيطاليا^(١٠١)، وهو الذى لا بد أن يسيل له لعاب البابوية. ومع أن البابا قد رفض مقترحات هنرى بإقامة ملكية ورثية، بعد أن رأى اشتداد المعارضة من جانب الأمراء خاصة دوق اللورين، إلا أن هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء، وزعامة ألمانيا عندما أعلن اعتزاه الخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها، وبمزيد من التنازلات، وافق الأمراء فى ٢٥ ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فرديريك ابنه ملكًا^(١٠٢). ومع أن هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحًا لكل مشروعات هنرى السادس، إلا أنه ضمن على الأقل استمرارية الأسرة على العرش. وإن كانت هذه الأحداث كشفت بجلاء عن حقيقتين هامتين؛ قوة الأمراء وازدياد نفوذهم، وارتباط مصالحهم بالمصالح البابوية.

على أن الشئ الذى يستلفت الانتباه حقًا، هو أن الأمراء الألمان كانوا فى حالة تعرض ألمانيا لخطر خارجى يهددها، يتناسون - إلى حين - خلافاتهم ونزعاتهم الشخصية، حتى وإن كانت مسألة ظاهرية. وقد تمثل ذلك عند الموافقة على اختيار هنرى الأول الصياد، ثم الموافقة الإجماعية عند تعيين أوتو الأول ملكًا، كذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فرديريك الأول برباروسا. وقد تكرر نفس الشئ الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجئ والمبكر عام ١١٩٧، فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق، أعلنوا ولاءهم لفرديريك الثانى. وفى صقلية أظهر ماركوارد Markward أمير انويلر Anweiler الحليف القوى والموالى لهنرى السادس، قوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية^(١٠٣). أما

(١٠١) للمزيد من التفاصيل، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp.204-206.

(102) Barraclough, op. Cit., p.203.

(103) C.M.H., Vol. V, p.479, VI,12.

فيليب السوابي، أخو هنري السادس، فقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه إلى جانب فردريك، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيًا على العرش، حتى يبلغ فردريك سن الرشد^(١٠٤). وهكذا فإن حقوق الوراثة في أسرة الهوهنشتاوفن، والتي تحداها الأمراء عام ١١٩٦، وهنري السادس بعد حي، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عندما اختاروا رودلف السوابي ملكًا بعد أن أعطى الموائيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثاني ابن أخيه.

كان من الممكن جدًا أن تفيق ألمانيا من صدمتها العنيفة ب وفاة هنري السادس، وأن تستجمع قواها من جديد في ظل ملكية موحدة كما أرادها الهوهنشتاوفن، لكن عاملين هاميين قلبا كل هذه الاحتمالات وبدداها، أولهما تدخل البابوية بصورة سافرة متمثلة في شخصية أنوسنت الثالث الذي يعيد إلى الأذهان ذكرى سلفه جريجوري السابع، والذي وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن، وبالتالي تحطيم الإمبراطورية، لتتحقق للبابوية السيادة العالمية الكاملة. وثانيهما التدخل الأجنبي في شئون ألمانيا من جانب فرنسا وإنجلترا، ولم يكن ذلك راجعًا لمصالح لهما في ألمانيا ذاتها، بقدر ما كان انعكاسًا للصراع الطويل بينهما حول الوضع القانوني لمنطقة نورماندى، بعد أن أصبحت مشكلة غاية في التعقيد في أعقاب فتح دوقها وليم لإنجلترا في عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكًا عليها ودوقًا لنورماندى. ولما كانت عائلة الولفيين ترتبط برباط المصاهرة مع البيت الإنجليزي الحاكم، منذ أصهر هنري الأسد إلى هنري الثاني ملك إنجلترا، بالإضافة إلى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك إنجلترا في أسر هنري السادس، في طريق عودته من الأراضى المقدسة، واستمرار بقائه أسيرًا طيلة عامين. إزاء هذا كان طبيعيًا أن تلقى فرنسا بتقلها إلى جانب الهوهنشتاوفن حتى لا تدع لإنجلترا فرصة الانفراد بإحراز نصر سياسى لها عن طريق أنصارها في ألمانيا. إلا أن عاملاً ثالثًا كان له أكبر الأثر في نجاح مسعى هذين العاملين، ألا وهو طفولة الوريث الشرعى فردريك الثاني، مما أعطى

(104) C.M.H., Vol. V, pp. 45-46 .

الفرصة السانحة للحزبين الكبيرين فى ألمانيا، الولىفیین والهوهنشتاوفن، أن یصطرعا حول العرش، وعلی البابویة أولاً وأخیراً تقع مسؤلیة هذه الفترة العصیبة من تاریخ ألمانيا، والتی كانت نقطة فاصلة فى تحویل مسارها التاریخی إلى دولة ممزقة الأشلاء مهلهلة، كما أرادتھا البابویة! .

ولقد ظهر ذلك واضحا من تلك اللهجة العنيفة والتوبيخ، الذى وجهه أنوسنت الثالث إلى كونراد رئیس أساقفة مینز سنة ١٢٠٠، عندما حاول جاهداً إيقاف نزيف الدم المتدفق فى ألمانيا من جراء التطاحن بین الأحزاب المتصارعة؛ لأن هذا یعنى - كما أفصح البابا - أن تقف ألمانيا جبهة موحدة، وهذا یجرد البابویة من حجیة التدخل فى شئون الإمبراطوریة^(١٠٥). أما الأمر الثانى فیتمثل فى تلك الأوامر البابویة الصادرة إلى المندوب البابوی فى الغرب فى نفس العام، ببذل كل جهد لعرقلة إتمام الصلح الذى كانت المفاوضات تدور بشأنه بین فرنسا وإنجلترا، لأن إتمامه سوف یوقف تسابقهما على التدخل فى الشئون الألمانية، ویوقف بالتالى الفوضى الحادثة فى ألمانيا، ویجعلها تلتئم تحت سیادة الهوهنشتاوفن، أصحاب الحق الشرعى فى العرش، وهذا لا شك یؤلم البابویة!^(١٠٦).

وكان عدد كبير جداً من أمراء ألمانيا، ممن یمثلون الأرسقراطیة النبیلة، قد اجتمعوا على اختیار فیلیب السوابی، أخی هنرى السادس، ملكاً على ألمانيا عقب وفاة هنرى مباشرة، وتم نتویجه فى مینز فى الثامن من سبتمبر ١١٩٨. وفى مايو من العالم التالى، التقوا فى سباير Speyer وكتبوا إلى البابا أنوسنت الثالث، یخبرونه أن اختیارهم للملك أمراً لا رجعة فیة، وحق لا یمكن نقضه، ویوضحون له أنهم سوف یظهرون فى روما قریباً لاتمام الإجراءات الرسمىة لتتویجه إمبراطوراً. وارتجع الأمر على أنوسنت الذى كان یرى فى هذا التصرف خروجاً على طاعته بمقتضى السلطة البابویة التی یدعیها الجالسون على الكرسى الرسولى فى روما، وحاول أن یوضح لهم اعترافه بحقهم فى اختیار الملك، لكنه ذكرهم أن

(105) Barraclough, op. Cit., p.207

(106) Id.

النتائج الإمبراطورية يمنح من البابا وحده، وأنه في حالة تنازع مرشحين على العرش، فإن المسألة تحتاج إلى تمحيص دقيق، وهذا يستدعي بعض الوقت. وكان هدف أتوسنت من ذلك واضحًا، كي يدفع كلا المرشحين لطلب عونه، وبالتالي تقديم تنازلات^(١٠٧). لكن اجتماع سبائر في جوهره أعاد إلى الأذهان من جديد، ذلك المفهوم القديم جدًا عن الإمبراطورية، والذي أحياه فردريك برباروسا، متحديًا ادعاءات البابوية، معلنا - كما أسلفنا - أن من يتم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطورًا شرعيًا، حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا^(١٠٨).

وفي مقابل فيليب السوابي، اجتمع عدد قليل من أنصار البيت الولفي، واختاروا أوتو الرابع دوق برنسويك، ابن هنري الأسد، ملكًا منافسًا، وتوجه في آخن في الثاني عشر من يولييه ١١٩٨. ولعبت الرشوة التي قدمها ملك إنجلترا للأمراء الألمان في الشمال الغربي دورًا كبيرًا في هذا الاختيار، حتى غدا الأمراء - كما وصفهم باراكلاف - مجرد جنود مرتزقة من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وإنجلترا^(١٠٩). وقد حمل هذا الترشيح معه نذر شر مستطير بالنسبة لألمانيا، فقد أفقدها لأمد بعيد امتد حتى القرن التاسع عشر، أملها في دولة موحدة. وكان أوتو غريبًا عن الأرض الألمانية، إذ لم ير أرض آبائه من قبل؛ فقد ولد في نورماندي، ونشأ في بلاط إنجلترا، وأعلن إيرلا على يورك ١١٩٠، وكونتا لبواتو Poitou في ١١٩٦. وصفه أحد المعاصرين بأنه كان "غطريسا غيبيا"^(١١٠). ولما كان لا يملك أي حق أو سند شرعي يؤهله لاعتلاء العرش، فقد أعلن على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية في السيادة.

ودون أن نخوض في تفاصيل الصراع الداخلي والحرب الأهلية التي استمرت ما بين عامي ١١٩٨ و ١٢١٤ أي ستة عشر عاماً^(١١١)، فإن ما يعيننا

(107) Stephenson, op. Cit., p. 406.

Barraclough, op. Cit., p.210

(١٠٨) راجع:

(109) Barraclough, op. Cit., p.210.

(110) Slessor, The Middle Ages in the West, p.128.

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث في الفصل الأول.

منها تلك الوثيقة الهامة، التي سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث والتي تقصح دون أدنى ريب عن أهداف البابوية ومصالحها ومطامعها في ألمانيا، وتشجيعها لاستمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة، وإصرارها على أن تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل في شئونها.

والوثيقة خاصة بقرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة، فيليب السوابي، وأوتو الرابع، وفردريك الثاني⁽¹¹²⁾، وصدرت عن البابا سنة 1201، أي بعد ثلاث سنوات من الانتظار والترقب من جانب الأحزاب المختلفة، والتعمد من جانب البابا. وقد جاء في ديباجتها أن من مهام البابا النظر في توفير الأمان والخيرية للإمبراطورية، وأنه "مادم الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة ... فإن أمورا ثلاثة أيضاً لا بد أن توضع في الاعتبار عند المفاضلة بينهم، وهي الشرعية والصلاحية وأسلوب الاختيار". وراح أنوسنت يطبقها على المرشحين واحداً بعد الآخر، واعترف صراحة بأن "الشاب - يعني فردريك الثاني - ليس هناك أي سبب قانوني للاعتراض على انتخابه، لأنه قد حظي من قبل بالإيمان التي أخذها أبوه على الأمراء ... وإن الأمراء قد صدروا عن ذلك بمحض اختيارهم .. ليس من الحق إذن معارضته". ورغم هذا الاعتراف الصريح، إلا أنه رفض تأييده، "لأن الأمراء عندما اختاروا للإمبراطورية شخصاً لا يصلح لها ولا لأي منصب آخر، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عامين ... ولما كان لا يمكن حكم الإمبراطورية عن طريق وصي على العرش، أو نائب، ولما الكنيسة لا ترغب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون إمبراطور، لذا كان من الضروري اختيار شخص آخر".

أما فيما يتعلق بفيليب السوابي، "فلا يبدو أن هناك أيضاً من الناحية الشرعية، والقانونية ما يعترض اختياره"، حيث اختاره عدد كبير من الأمراء، من ذوى المرتبة الرفعية، وهكذا "فإن اختياره يبدو شرعياً ... ولكن دون اختياره

(112) Innocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 220 - 227).

عقبات ... فهو قد حرم كنسيا لأنه استولى على أراضي القديس بطرس في توسكانيا ودمرها ورفض المصالحة". لكن أهم ما في الأمر هنا قول أنوسنت الثالث؛ "وليكن واضحاً أيضاً، أنه ربما يكون من اللائق أن نعترض على اختياره، لأنه باعتلائه العرش، سوف يرث الأخ أخاه، كما ورث ابن من قبل أباه، عندما سلم فرديريك الأمر إلى ابنه هنري السادس، سوف تنحو إلى أن تصبح وراثية، وبالتالي سوف تغدو المفسدة قانوناً بحكم طول العادة!!".

وهذا هو بيت القصيد في القضية كلها .. فالبابوية لا يعينها قرار الحرمان هذا. فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته إياه، ولا تقيم وزناً للشرعية أو الصلاحية أو أسلوب الاختيار، وهي القواعد الثلاث التي وضعها بنفسه أنوسنت في البداية معياراً للمفاضلة. وهذا يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقول: "أنه يبدو للوهلة الأولى أنه ليس من اللائق قانوناً الوقوف إلى جانبه، لأنه اختير على يد نفر قليل، كما أن حزبه قليل وضعيف" (١١٣). ومع ذلك فهو يؤيد اختياره ويعتبره أفضل المرشحين الثلاثة، ويعلنه ملكاً على ألمانيا.

كان هذا القرار من جانب أنوسنت الثالث، ضربة قاضية وجهت إلى مبدأ الوراثة في الملكية الألمانية، وانتصاراً ساحقاً لمبدأ الانتخاب. لكن الضحية في حلبة الصراع كانت ألمانيا ذاتها التي حرمت قيام دولة قوية موحدة، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، على النحو الذي عرضنا له في مقدمة بحثنا؛ ذلك أن البابوية لم تقف عند حد إصدار القرار، بل مارست التدخل العلني السافر، وراحت تنقل تأييدها - دون مراعاة لأية مبادئ - من فريق إلى آخر حسبما تقتضى مصالحها. فها هي تؤيد أوتو الرابع، فيقدم لها تنازلات مهينة على حساب الملكية الألمانية، حتى إذا أحست أن قضيته أمست خاسرة، وإن كفة فيليب هي الراجحة، قلبت لطيقتها الأول وصنيعها ظهر المجن، وأعطت خصمها الهوهنشتاوفني كل تأييدها، وحصلت منه بالتالي على تنازلات أشد مهانة (١١٤). حتى إذا اختطفه الموت غيلة

(١١٣) كان عدد الأمراء الذين اختاروا فيليب السوابي، ٢٦ أميراً، بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط. راجع

Slessler, op. cit., p. 129.

(114) Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203, in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230.

عام ١٢٠٨، والتف الأمراء حول أوتو الرابع ثانية، بعد أن سئموا هذه الحرب الطويلة، أعلنت من جديد وقوفها إلى جواره، لكنها سرعان ما سمرت لهيب الحرب ضده عندما رأت فيه هوهنشتاوفي السياسة، رغم أصله الونفي، وأنه يسعى لإقامة ألمانيا قوية مرة أخرى. وعادت تستدعي ذلك "الشاب" - كما يصفه البابا - فردريك، الذي نبذته مكاناً قصياً، وأعلنته ملكاً، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديم المزيد من التنازلات الأقصى مهانة^(١١٥). وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسي في ألمانيا، يحقق بالتالي كسبا في نورماندى، حتى تمكنت القوات الفرنسية المناصرة لفردريك، من إزلال هزيمة قاسية عند بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ بالقوات الإنجليزية الونفية المشتركة، أضحت فرنسا على أثرها، أكبر قوة سياسية في أوروبا، بينما انحطت ألمانيا إلى السفح تضمد من نفسها الجراح!.

ورغم أن فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠) بعث قوة أسرة الهوهنشتاوفن ثانية، ونفخ في روح ألمانيا من جديد، إلا أن عهده كان بريقاً خاطفاً سرعان ما خبا في الظلام، فقد ناصبته البابوية العداة السافر حتى مات. واضطر هو في سبيل ضمان تأييد الأمراء، إلى إعطائهم الكثير من الامتيازات والتنازلات على حساب التاج الألماني^(١١٦)، فلما مات عام ١٢٥٠، مات معه كل أمل في دولة ألمانية قوية، وتولت البابوية الإجهاض على مبدأ الوراثة تماماً، بعد أن سددت له الضربة القاضية من قبل، وغرقت ألمانيا في بحر من الفوضى، استمرت ثمانية عشر عاماً (١٢٥٠-١٢٦٨)، رشحت البابوية خلالها ملوكاً لألمانيا، ليسوا من بينها على الإطلاق، ريتشارد إيرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطمئن البابوية إلى أن مبدأ الوراثة في الملكية الألمانية قد أدخل القبر، سيق الصبى الصغير كونرادينو Conadino حفيد فردريك الثانى، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن، إلى نابولى، حيث أعدم بموافقة البابوية!.

(115) Frederick II, Promise to Innocent III, 1213; Promise to resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230 - 233).

(116) Fredrick II, Statute in favor of the princes, 1231 - 1232; Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233 - 36).

ولعل خير مثال يوضح لنا الحال التي ترددت فيها ألمانيا آنذاك، أقدم الأمراء في عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجى Rudolf o Habsburg إذ رأى فيه الأمراء شخصاً ينتمى إلى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة. حقيقة كانت للهابسبرج أراضيهم فى الأكراس، وأعلى الراين. ولم تكن هناك دلائل تشير إلى مستقبل ما لهذه الأسرة. لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بوعود قاطعة، بأنه لن يقدم على التصرف فى أى جزء من أراضيهم هبة، دون موافقتهم (١١٧). ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية، جاءت على قلم رئيس أساقفة مينز، تقول: "وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله ... لما كنا نرغب فى أن نكون مطيعين ومنفقين مع سيدنا الجليل، رودلف، الملك، فأنا قد أعطينا بصورة تامة وصريحة موافقتنا على أن يهب كإقطاع قرى لنكرشايم Lenkersheim وإيرلباخ Erlebach وبروك Brucke وكل متعلقاتها إلى فرديريك حاكم نورنبرج Nurnberg حيثما رغب فى ذلك" (١١٨).

لقد كان الانتخاب فى الفترة المبكرة، محط اهتمام كبار النبلاء، باعتبارهم ممثلين للدوقات الألمانية، وإن كانت قد جاءت فترات معينة، حولت فيها الوراثة، مسألة الانتخاب إلى مسألة نظرية فقط. فلما توفى هنرى السادس، ودست البابوية فى ألمانيا أنفها وذراعها وقدميها، أصبح الانتخاب حقيقة واقعة، وتخلفت ألمانيا عن إنجلترا وفرنسا سبعة قرون سوياً.

(117) Waley, op cit., pp. 76 – 78.

(118) Werner, Electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 265 – 266

وراجع أيضاً وثيقة اختيار هنرى السابع اختيار هنرى السابع سنة ١٣٠٨ ليتضح مدى دور الأمراء فى ذلك Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأصلية

- Adalbert, Archbishop of Mainz: Letter to the bishop of Bamberg.
- Adrian IV (Pope 1154 – 1159):
 - Teaty of Adrian IV and Wiliam of Sicily, 1156.
 - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.
 - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.
 - William of Sicily, King: Treay of Amalfi. 1156.
- Albert, German King:
 - The archbishop of Mainz is confirmed as archchancellor of Germany, 1298
 - Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213
 - Frederick Promise to resign Sicily, 1216.
 - Frederick Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.
 - Frederick Statue in favor of the princes, 1213-1232.
 - Gregory VII, Pope : Dictatus papae.
- Ambrosius, Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=PL.XVI 1007-1018). – Ad Theodosium Augustum. Ep. XL: Nicene X 2, 440-445.
- Anna Komnena, Alexiad, translated E.R.A. Sweter, Penguin book 1969.
- Augustinus, De Civitate Die, Eng. trans. M. Dods, Edinburgh, 1949.
- Athanasius, Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene IV 2, 451-480 (=PG. XXVI) 681-793)- Historia Arianorum as Monachos: Nicene IV 2, 270-302 (=PG XXV 696-796).
- Concordat of Worms, 1122.

- Conrad III, (Emperor 1138-1152): Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) Emperor John Comnenus, 1142.
- Donatio Constantini.
- Edict cancelling the sentence against Gregory VII.
- Einhard, Vita Caroli, Eng. trans. Lewis Thrope, Penguin Book, 1969.
- Eugenius III, Pope, Letter to king Louis VII of France.
- Eusebius, Vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (= PG. XX 905-1232).
- Frederick I Barbarossa, (Emperor 1152-1190): Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.
 - Manifestyo of Frederick I, 1157.
 - The Peace of Contance, 1183
- Frederick I and Eugene III (Pope 1153-1154): Traty of Constance 1153.
- Gelasius, Pope, Letter to Anastsius.
- Gregory I, Letter to Maurice.
- Gregory II, Pope, Letter to Leo III.
- Gregory VII (Pope 1073-1085): Letter of Gregory VII to Henry IV, 1075.
 - to the princes wishing to reconquest Spain, 1073
 - Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa, 1077.
 - to Solmon, King of Hangary 1074.
 - Calls for Crusade 1074.
 - Sumons Christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by god, 1187.
 - accords the Church's protection to Crusader Hinc of Zerotjn 1187.

- Letter to Wratislav, duke of Bohemia 1073.
- Letter to Sancho, King of Argon 1074.
- Letter to Solomon, King of Hungary 1074.
- Letter to Demetrius, King of Russia 1075.
- Gregory VIII, Pope, Sumons christians to repentance and describes the crusade as a test imposed by God, 1187.
 - Accords the church's protection to the crusader Hincó of Zerotjn 1187.
- Gregory IX, Pope, Excommunication of Frederick II 1239.
- Gregory IX and Frederick II, Emperor; Papal Charges and Imperial defence1238.
- Guiscard, R., The oaths of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.
- Henry III, Emperor, The emperor deposes and Creates Popes 1048.
- Henry IV, Emperor: Promise of King to offer obedience to the Pope.
- Henry VII, German King: Declaration of the election of Henry VII 1308.
- Henry, Emperor, The deposition of Gregory VII 1076.
- Hosius, Bishop, Epistola ad contantium Augustum (in Athanasius, historia Arianorum 44).
- Innocent II, Pope: Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.
- Innocent III, Pope : Letter to the Archbishop of Ravenna 1198.
 - Letter to the King of Armenia 1199.
 - Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscan 1198.
 - Sermon on the Consecration.
 - Beging the taxation of the church for the crusades 1199.
 - Sermon on consecration of a pope.
 - Decision in regard to the disputed election.
 - Grants the of king to the duke of Pohemia 1204.

- The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.
- Innocent IV (Pope 1243-1245): Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.
- John IX, Pope; enactment of a Roman Synod 893.
- Justinianus, Emperor, Novellae, translated into French by M. Berenger.
- Karl the Great, Emperor, Letter to Leo III.
- Lactantius, De mortibus persecutorum: Ante Nicene VIII 301-322 (=PL.VII 2, 189-276).
- Leo III, Pope: The oath of Leo III before Karl Great.
- Leo VIII, Pope: Leo VIII grants the emperor the right to choose the Pope and invest all bishops 963.
- Letter from the church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confirm the election of their bishop.
- Letter from the church at Rome to the Exarch at Ravenna, asking him to Confirm the election of their bishop.
- Liudprand (Bishop of Cremona): Report of his embassy to Constantinople, 968.
- Nicene and Post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et Sq.
- Nicholas II (Pope 1059-1061): Papal election decree of Nicholas II, 1059
- Socrates, Historia Ecclesiastica: Nicene II 2, 1-1178 (=PG. LXVII 29-842).
- Philip of Suabia, German King: Concessions to Innocent III, 1203.
- TREATY of SAN GERMANO, 1230.
- URBAN II, Pope, -to all the faithful in Flanders, 1095.
 - to this partisans in Bologna, 1096.
 - to the religious of the Congregation of Vallombrosa, 1096.

- Werner, Archbishop of Mainz: Electoral "letter of Consent". 1282.
- Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:

- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956.
- Brand (CH.), Byzantium Confronts the West, Harvard university press, 1968.
- Brook (CH.) Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966.
- Cantor (N.), Medieval history: the life and death of a civilization, New York, 1966.

وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب في جزعين، صدر الأول منهما عن دار المعارف في عام ١٩٨١، والثاني تحت الطبع. وقد تفضل مشكوراً بإطلاعي على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثاني.

- Cantor (N.), The Medieval world 300-1300, London 1968.

ثانياً: المراجع الأوربية

- Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.
- Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911 – 1250; essays by German Historians, translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
- Barraclough (G.), The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.
- Barlow (F.), The feudal Kingdom of Englan, 1042 – 1216, London, 1974.

- Bettenson, (H.), Documents of the Christian Church, London, 1956.
- Brackman, (A.), The Beginning of the National State in Medieval Germany and the Norman Monarchies, (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 281-299), Oxford, 1948.
- Brooke (ch), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.
- Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.
 - Bryce (J), The Holy Roman Empire, London 1950.
 - Care, (R.), and Coulson, (H.), A Source Book for Medieval Economic History, New York, 1965.
 - Cambridge, Medieval History, 8 Vols. Planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.
 - Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis, London, 1957.
 - De Wulf, (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.
 - Douglas (D.C.), William the Conqueror, London 1969.
 - Freiherer (O.), Constitutional Reorganization and Reform under the Hohenstaugen, trans. from German by Barraclough, in Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.
 - Ganchof (F.), Feudalism, Hong Kong, 1976.
 - Haskins (Ch.), The Normans in the European History, New York, 1966.
 - Heer, (F.), The Medieval World, Europe 1100-1350, translated from German by Barraclough (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford, 1948.

- Hinderson, (E.), Select Historical documents of the Middle Ages, London, 1923.
- Hodgett (G.A.), A Social and Economic History of Medieval Europe, London, 1972
- Holmes (W.G.), The Age of Justinian and Theodora, London, 1912. 2 Vols.
- Hyed, (J.), Socitey and Politics in Medieval Italy, the Evolution of the Civil Life, 1000-1350, London, 1973.
- Joachimsen (p.), The investiture contest and the German Constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.
- Jones, (A.), Later Roman Empire, Oxford, 1964. 2 Vols.
- Kantorowicz, (E.), Frederick the Second, London, 1931.
- Mayer (Th.), The historical foundations of the German Constitution, trans. From German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.
- Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans from German by Barraclough, in (Mediaeval Germany, vol II, pp. 235-279) Oxford, 1948.
- Mundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London, 1973.
- Ozmet, (S.), The Age of Reform, 1250-1550, London, 1980.
- Paoluci, (H.), The Political Writings of St. Augustine, Indiana, 1962.
- Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C.M.H.) Vol. II, pp. 133-158.
- Pirenne (H.), A history of Europe, London, 1951.

- Pirenne (H.), Economic and social History of Medieval Europe, London, 1972.
- Pounds (N.), An Economic History of Medieval Europe, London, 1974.
- Riley-Smith, The Crusades, Idea and Reality, 1095-1274, Documents of Medieval History, London, 1981.
- Runciman, (S.), A History of the Crusades, London, 1965. 3 Vols.
- Scott (W.), Medieval Europe, London, 1975.
- Setton, (K.), A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-1989. 6 Vols.
- Southern, (R.), Western Society and the Church in the Middle Ages, Penguin Book, 1978.
- Schmeidler (B.), Franconia's place in the structure of Mediaeval Germany, trans. form German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.
- Slessor (H.), The Middle Ages in the West, London.
- Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.
- Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York, 1970.
- Thatcher, (O.), and McNeal, (E.), A Source Book of Medieval History, New York.
- Thompson (J.W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York, 1966.
- Tierney (B.), The Crisis of Church and state, 1050-1300, USA, 1964.
- Tout (T.F.), The Empir and the Papacy, London, 1924.

- Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London, 1955.
- Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975.
- Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.
- Vasiliev, (A.), History of the Byzantine Empire, Madison, 1964. 2 Vols.
- Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. Vol. III, pp. 458-484).
- Waley (D.), Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther, London, 1976.

ثالثاً: المصادر والمراجع العربية والمحربة

- إبراهيم العدوى، المجتمع الأروبي فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩١٦.
- أسحق عبيد، الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع - بيروت ١٩٧٥.
- أسحق عبيد : الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، منشورات جامعة بنغازى، طبعة بيروت بدون تاريخ.
- أسحق عبيد: روما وبيزنطة، من قطعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة ١٩٧٠.
- جرانت (أ.ج) وتمبرلى (هـ.)، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان. الجزء الأول ترجمة الأستاذ بها، فهمى. القاهرة بدون تاريخ.
- جوانفيل (ج) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، المعروف بمذكرات جوانفيل، ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٨.
- جوزيف نسيم يوسف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ترجمة لبحثين للأستائين. م. هارثمان، ج. باراكلاف. القاهرة ١٩٧٠.
- جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور. القاهرة ١٩٦٩.
- جوزيف نسيم يوسف: نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٧١.
- دولت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية. الجزء الأول. القاهرة ١٩٥٩ - الجغرافية السياسية. القاهرة ١٩٦٥.
- ديفز (ر. هـ. س): شارلمان، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩.

- رأفت عبد الحميد: الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى، القاهرة ١٩٨٣) ص ٨٣ - ١٤٤.

- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥) ص ١٥٨-٢٢٥.

- الدولة والكنيسة - الجزء الثانى. القاهرة ١٩٨٢ - المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية، بحث منضور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. العدد ٣٠. - "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب" بحث منشور فى المجلد الثانى من ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، ١٩٨٣.

- رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤. ترجمة دكتور جلال يحيى. القاهرة، بدون تاريخ.

- روبر الراهب: رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم فى كتابه "الحروب الصليبية، نصوص ووثائق"، القاهرة بدون تاريخ.

- زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكو ١٩٨٦.

- سباين (ج.): تطور الفكر السياسى، ترجمة حسن جلال العروسى ودكتور راشد البراوى فى خمسة أجزاء. القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧١.

- سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩.

- الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة ١٩٨٣.

- أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول: التاريخ السياسى القاهرة ١٩٥٨، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٦٣.

- عبد الحميد متولى، الوجيز فى النظرات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية. القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩.

- فيشر (هـ) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العرينى. القاهرة ١٩٦٦.
- فيشر (هـ)، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠. ترجمة دكتور أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع. القاهرة ١٩٥٨.
- كانتور (ن.) : التاريخ الوسيط، قصة حضارة، البداية والنهاية، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم فى جزئين القاهرة ١٩٨١، ١٩٨٣.
- كرامب (ج.)، جاكوب (إ.): تراث العصور الوسطى، جزءان ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعة المصرية تحت إشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥.
- كوبلاند (ج. و) : القنية والإقطاع، مقال فى "تاريخ العالم"، الذى أشرف على نشره السيرجون أ. هامرتن، المجلد الثانى، ص ٣ - ٢٢. القاهرة ١٩٥٧.
- كوبلاند (ج. و) وفينوجرادوف (ب): الإقطاع والعصور الوسطى غرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨.
- لاسكى (هـ) : أصول السياسة، أربعة أجزاء، ترجمة محمود فتحى عمر. القاهرة بدون تاريخ.
- محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣.
- محمد معروف الدواليبى: الوحيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها جزءان. دمشق ١٩٦٣.
- هسى (ج. م): العالم البيزنطى. ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد. القاهرة ١٩٨٢.
- محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.
- موس (هـ)، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٧.

- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، لبنان، ١٩٦٧.
- هاوزر (أ.) : الفن والمجتمع عبر التاريخ. جزءان. ترجمة دكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٧١.
- هتلسر، كفاحي، ترجمة لويس الحاج، بيروت ١٩٦٨.
- هسي (ج. م.) العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٤.

فهرس

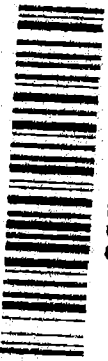
| رقم الصفحة | الموضوع |
|------------|---|
| ١٠ - ٧ | التسمية |
| ٦٦ - ١١ | الفهم الأرك: السمو البابوى بين النظرية والتطبيق |
| ١٢٧ - ٦٧ | الفهم الثانى: الفكر البابوى الصلىبى |
| ١٨١ - ١٢٩ | الفهم الثالث: المشكلة الإيطالية فى السباسة الألمانية |
| ٢٣٤ - ١٨٢ | الفهم الرابع: الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب |
| ٢٤٧ - ٢٣٥ | قائمة المصادر والمراجع |

هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسي الروماني يقبل مطلقاً وجود كيان مستقل عن سلطة الإمبراطور أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة.

فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم، وهو صاحب السلطة المطلقة في دولته؛ والكنيسة تنأى بنفسها عن هذا السلطان، وشعب الكنيسة يجعل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم؛ ورأس الكنيسة، أي البابا، يرى أنه ورث عن بطرس كل السلطات، فما يحله الأخير في السماء يحله البابا على الأرض وما يربطه في السماء يربطه البابا على الأرض، وعلى هذا فسلطة البابا الروحية تسمو على غيرها من السلطات العلمانية، وما كان للإمبراطور أن يرتضى هذا !! وأخذت البابوية تقلب بنظرها في سماء أوروبا، لتجد في الفرنجة خير معين، واستدارت إلى الألمان لتجعل منها قريناً للفرنجة في إخلاصهم وحرصهم على البابوية. ولكن سرعان ما اكتشفت أن الأباطرة الألمان كانوا يؤمنون بسمو السلطة العلمانية على السلطة البابوية .. ليبدأ الصدام بين الأيدولوجيا العلمانية في الفكر البابوي والأيدولوجيا العلمانية ممثلة في

Bibliotheca Alexandrina



0372032

